بلال فضل

السكان "الأصليين" لمصر

حكايات عن عبقرية المكان

.. وبلادة الحكام وطرمخة البشر

دار ميريت

القاهرة 2009

السكان "الأصليين" لمصر
حكايات عن عبقرية المكان
.. وبلادة الحكام وطرمخة البشر

بلال فضل

الطبعة الأولى ٢٠٠٩،

٦ (ب) شارع قصر النيل، القاهرة
تليفون / فاكس: ٢٥٧٩٧٧١٠ (٢٠٢)
www.darmerit.net
merit56@hotmail.com

الغلاف : أحمد اللباد

المدير العام : محمد هاشم

رقم الإيداع: ١٥٩٦٦/٢٠٠٨

الترقيم الدولي: 977-351-430-7

إلى عم صلاح السعدني وعم محمود السعدني

رعاتي الرسميين

.. أو على رأي المثل

رُبَّ أبوين أخوين لك لم تلدهما ستك

ممتنا لهما كأجدع مايكون الإمتنان

وطالبا لهما الثواب من الله كأمتع مايكون الثواب

"لا حياة مع اليأس ولا يأس مع الحياة"

الزعيم مصطفى كامل

"لا حياة مع اليأس ولا حياة لمن تنادى"

عبد الفتاح القصرى

فى مصر لا حياة مع اليأس ولا حياة مع الأمل"

أنا

أجدع من أي مقدمة

ياعم الضابط إنت كداب
واللي بعتك كداب
مش بالذل حاشوفكم غير
أو استرجى منكم خير
إنتو كلاب الحاكم... وإحنا الطير
إنتو التوقيف... وإحنا السير
إنتو لصوص الوقت .. وإحنا بنبني بيوت
إحنا الصوت... ساعة ماتحبوا الدنيا سكوت
إحنا شعبين شعبين شعبين
شوف الأول فين.. والتاني فين
وادي الخط مابين لاتنين.. بيفوت
انتو بعتوا الأرض بفاسها.. بناسها
في ميدان الدنيا فكيتوا لباسها
بانت وش وضهر
بطن وصدر

ماتت والريحة سبقت طلعة أنفاسها
واحنا ولاد الكلب الشعب
إحنا بتوع الأجمل وطريقه الصعب
والضرب ببوز الجزم وبسن الكعب
والموت في الحرب

عبد الرحمن الأبنودي
رضي الله عنه وأرضاه

السكان الأصليين لمصر!

كثيرا ماأتلقى أسئلة من بعض القراء الأعزاء – وهم كثير ولكن لاشيء أعلم عنهم – حول كيفية قدرتي على التعايش مع واقع هو ضد كل ماأكتبه أو أحلم به، واقع أقول أنا مرارا وتكرارا أنني أعلم أنه لن يتغير أبدا لكنني أبدا أستمر في رفضه والسخرية منه وخبط رأسي في حوائطه الخرسانية الكئيبة.

ببساطة شديدة ودون محاولة لتزويق الكلام أعتقد أن مايحميني دائما كبني آدم ضعيف يغره الأمل من الوقوع في وهم انتظار الفرج هو أنني أوقن أنه لاأمل في أي أمل طالما ظلت المعركة الأزلية الدائرة على أرض مصر منذ أن خلقها الله لايشترك فيها سوى نوع واحد من سكان هذه البلد أطلق عليه إسم السكان المنتفعين بمصر، لاحظ هنا أن الإنتفاع ليس مصطلحا سلبيا فهو يعني أن من يمكن وضعهم ضمن هذا النوع يحصلون من وراء كونهم مواطنين مصريين على نفع ما أيا كان قل أو كثر، شرعيا كان أو غير شرعي، وهذا النوع بالمناسبة شامل فضفاض يمكنك أن تضع تحت إهابه وبين ثناياه كل من ينتسبون إلى الحكومة والمعارضة ومن ينتسبون إلى مايعرف بالنخبة والصفوة والكريمة وكل محترفي السياسة

والصحافة وهواتهما وأرباب الفنون من الموهوبين أو الموهومين وأصحاب العاهات الفكرية المستديمة أو القابلة للشفاء ونجوم المجتمع ومرشحي الإنتخابات ووكلاءهم ورجال وسيدات الأعمال وقراء الصحف المنتظمين والشواذ جنسيا والشواذ فكريا والشواذ نفسيا.

أما ماعدا أولئك من أبناء الشعب المصري فهؤلاء هم الذين أسميهم "السكان الأصليين لمصر"، وأعتقد جازما أن في أيدي هؤلاء وحدهم الأمل الوحيد في تحقيق أي تغيير لأن هباتهم المفاجئة هي التي تصنع الفرق لكن المشكلة أن هبات هؤلاء متباعدة وقصيرة النفس ونادرة وعشوائية – تماما مثل حياتهم – ربما لأنهم اختاروا لأنفسهم منذ عهود سحيقة حلا يعصمهم من الإنقراض أو الطفقان المفضي للإنقراض، هو أن يعيشوا في بلد موازية لها قوانين خاصة وحكام مختلفين وأبطال شعبيين يخصونهم وغناء لايطرب غيرهم وأنواعا من الطعام والشراب لاتصلح إلا لهم.

ومع أني أعرف ان الكثيرين لديهم حساسية شديدة من حكاية أن المصريين هم أول من اخترعوا كل شيئ من ورق البردي إلى ورق البفرة، لكن الحقيقة التي لايمكن إنكارها هي أن السكان الأصليين لمصر هم أول من اخترعوا ماأصبح يعرف هذه الأيام لدى خبراء التكنولوجيا بالواقع الإفتراضي، لاأحد يعرف منذ متى كان ذلك، هل كان منذ أن دخل الهكسوس إلى مصر أو العرب أو الفرس أو الرومان أو المباركيون القدامى أو المباركيون الجدد،

ليس مهما متى بدأ ذلك، لكن المهم أنك تستطيع دون عناء أن تدرك أن هذا الواقع الإفتراضي الذي يدعي خبراء الكمبيوتر زورا نسبته إليهم هو الذي يحكم منذ قديم الأزل حياة السكان الأصليين لمصر، وهي حياة تشبه مايمكن أن تكون قد شاهدته في أفلام الخيال العلمي الأمريكية والتي تفترض أنه مع التطور التكنولوجي المذهل سيصبح هناك نوعان من البشر يعيشان في الأرض، أغنياء يعيشون على سطح الأرض وفقراء يسكنون باطنها، وتستطيع أن تقول أننا بالصلاة على الحبيب سبقنا أفلام الخيال العلمي بتطبيق هذه الإفتراضية ولكن الفرق أن الفقراء يعيشون لدينا على الأرض أيضا تاركين بطنها لأمواتهم ومواسير صرفهم الغير صحي.

المؤسف أو المقرف إن شئت أن كل الخناقات التي يخوضها السكان المنتفعين بمصر تندلع وتثور تحت ظلال شعارات تقسم أنها مااندلعت وماثارت إلا من أجل خاطر السكان الأصليين لمصر، هاهو رئيس الدولة المبارك يحلف على النعمة الشريفة أنه لايذوق الزاد إلا وهو يفكر فيهم، وهاهي حرمه المباركة تقيد صوابعها العشرة من أجلهم مشكورة مأجورة، وهاهو إبنه المبارك يقول أنه كان من الممكن أن يتمتع بالخميرة التي عملها من شغل البنوك في هدوء لكنه قرر من أجلهم فقط أن يجلب لنفسه وجع القلب من اللي يسوا واللي مايسواش، وهاهنااالك رئيس الوزراء النظيف الطويل يحلف على المصحف إنه لاينام الليل من أجل راحة السكان الأصليين لمصر وأنه يستحق أن يوقف الله نموه لو

لم يدخل لكل منهم كمبيوترا في بيته أيا كانت عفاشة بيته، وها دوكهمه الوزراء لايقض مضاجعهم ولايعكر عليهم صفو الإستمتاع بقصورهم وحساباتهم في البنوك سوى التفكير في أولئك المزعجين الذين يطلق عليهم عادة أسماء غير دقيقة مثل البسطاء والمهمشين ومحدودي الدخل والمواطن العادي، وأطلق أنا عليهم إسم السكان الأصليين لمصر. (بالمناسبة الخطأ النحوي مقصود لحاجة في نفسي لم أتبينها بعد).

حتى الذين يحتلون مواقع المعارضة في مصر يتقسمون فيما يخص علاقتهم بالسكان الأصليين إلى صنفين: بعضهم ينتفع هو الآخر من إدعائه أنه يحمي حقوقهم وهو ليس كذلك، وأغلبهم يحمل هم السكان الأصليين على رقبته ويزعق ويعارض ويكتب ويتظاهر ويسجن ويقتل ويشرد وينفى وكل هذا وهو يعتقد يقينا أنه يفعل ذلك من أجل السكان الأصليين الذين يراهم يشدون على يديه ويقبلونه ويقولون له كلاما جميلا ناعما مؤازرا ومحبا ويطلبون منه أن يستمر في دفاعه عنهم، لكنهم في حقيقة الأمر عندما يحدث له أي أذى من جراء مافعله من أجلهم سيكتفون بالحوقلة والمصمصة والدعاء على الظالم والمفترى وإبن الحرام دون تحديد إسمه حتى، ثم القول بلهجة معاتبة "هو برضه زودها حبتين".

يعني هل تتخيل مثلا أن هناك بعض السكان الأصليين لمصر يعتقد أن صحيفة معارضة حرة مثل الدستور التي تقض مضاجع أهل الحكم في مصر ليست سوى صحيفة تمتلكها الحكومة في

"الكتيمي" لكي تبرهن للخليقة أن هناك حرية في مصر، وأنني وأمثالي بدءا من رئيس تحرير الدستور إبراهيم عيسى وحتى أصغر محرر فيها نكتب بتعليمات مباشرة من الرئيس مبارك وإبنه لزوم إضفاء الديكور الديمقراطي على حكمه، أقسم بالله أن هذا الكلام جاءني كثيرا في إيميلات تلقيتها من سكان منتفعين بمصر سمعوا هذا الكلام من سكان اصليين لهذه البلاد واندهشوا جدا وصعبت عليهم أنا ومن على شاكلتي لأننا نؤذن في مالطة، بينما أنا عن نفسي لم أندهش أبدا ولم تصعب علي روحي أبدا، لماذا؟، لأنني نشأت وترعرعت وكدت أذبل كواحد من السكان الأصليين لمصر، لكنني ماإن انتقلت دون سعي حثيث مني بل بمشيئة السميع العليم إلى فئة السكان المنتفعين بمصر حتى جاهد كل السكان الأصليين الذين كنت منهم في قطع صلاتهم بي وحرماني مما يعتبرونه تلصصا على واقعهم الإفتراضي الذي رضي عنهم ورضوا عنه، وذلك لأني في رأيهم لم أعد أهلا لأن أكون منهم. تريد توضيحا أكثر، وماله، بالتأكيد سمعت ذلك التعبير الذي لايقوله إلا السكان الأصليين لمصر عندما يقولون عن شخص أنه "عدى"؟ ألم تسأل نفسك مامعنى "عدّى"؟، إنه ببساطة يعني أنه فارق حياته معهم إلى عالم آخر فأصبح مفارقا لهم حتى وإن بدا مجاورا. لذلك وأرجو ألا يحبطك كلامي بينما نقول نحن معشر الكتاب المستقلين بكل يقين أننا نعبر عن السكان الأصليين فيما نكتبه، يحتفظ غالبية هؤلاء السكان الأصليين برأي مغاير تماما، رأي يضعنا نحن ومن نعارضهم في سلة واحدة، فجميعنا

"ولاد كلب – يعني اعتبرها ولاد كلب فأنت تعرف حقيقة مايقال – .. كلهم بيضحكوا على بعض.. يقدر حد فيهم يعيش يوم زي ماإحنا عايشين". والحقيقة أنني أعذرهم كثيرا عندما يقولون ذلك، فبرغم أنني عشت أياما طويلة "زي ماهم عايشين"، لكنني الآن لااستطيع أن أعيش يوما ما زي ماهم عايشين، وبالمناسبة ولاأنت أيا تستطيع أيا كانت ظروفك المادية، كنت أغني مني أو افقر، عارف ليه، لأنك خرجت فورا من عباءة السكان الأصليين لمصر عندما اهتممت بما يحدث في البلد الموازية التي يتقاسمونها معنا. بعض هؤلاء قاطعني إلى الأبد ويصب علي اللعنات بل وبعضهم أو بعضهن يرسلون إلي تحذيرات بألا آتي إلى المناطق التي جاورتهم وجاورتهن فيها، لكي لايطلع أشياء معينة من عائلتي، والسبب أنني خنت العشرة وجعلت منهم أضحوكة للخلق، هكذا يرون، والبعض الآخر اصبح يتحفظ على حكاية أي شيئ أمامي "علشان مايلاقيهاش في فيلم ولا جرنان"، وهكذا أصبح مقدورا علي أن أكتفي بالكتابة عن حصيلة سنوات طويلة من العيش إلى جوار السكان الأصليين في مصر، وهي حصيلة رويت منها النزر اليسير في هذا الكتاب، مستغربا كيف ضحك الناس على بعضها عندما نشرتها في الصحف السيارة، ففي رأيي أنها ليست حكايات مضحكة أبدا، حتى لو بدت كذلك، وماكتبتها إلا لأنني رأيت أنها يمكن أن تشكل مدخلا ما لفهم الناس الذين نعيش معهم في هذه البلد ونسأل بكل براءة – لن أقول كلمة قبيحة أخرى مع أنها أدق في الوصف – لماذا لايتحركون ولماذا لن يثوروا أبدا

على ظالميهم وسارقيهم وناهبي أقواتهم. على أي حال وبعيدا عن الغرق في أسئلة لايعلم إلا الله وحده إجاباتها، دعني أقول لك أنني في هذا الكتاب سأحكي لك عن أناس كثيرين من السكان الأصليين لمصر ليسوا ملائكة ولاشياطين ويمكن أن تظن أحيانا أنهم ليسوا بشرا، هم يقولون ذلك طول الوقت، "إحنا عمرنا ماهنبقى بني آدمين"، يقولون ذلك بشكل محايد يوحي لك أن حكاية أن تكون بني آدم هي مسألة تجيئ بظروفها، يعني ممكن أن تأتي ويمكن ألا تأتي، إنت ونصيبك. هؤلاء البشر بالتأكيد أنت تعرفهم، وفي الأغلب كنت منهم قبل أن تقرر أن تشغل بالك بمستقبل ومصير هذه البلد التي تعيش عليها فقرا وتهتم بمعرفة أي شيئ عنها حتى ولو كان من باب العلم بالشيئ، وإذا لم تكن كذلك فستفعل مايفعله عادة أبناء طبقة السكان المنتفعين وستسأل في تأفف عن الحكمة من الإساءة إلى سمعة مصر وتشويه صورة الشعب المصري وماإلى ذلك من الكلام الذي لايجيب همه، والذي يمكن أن أنصحك بالإستعاضة عنه بعدم قراءة هذه الحكايات أساسا.

أما إذا كنت ساكنا أصليا سابقا أو ساكنا أصليا منتسبا فأنا على يقين أنك ستستمتع جدا بما سأحكيه عن السكان الأصليين لمصر وستدرك كم أحبهم وكم أتعاطف معهم بل وأحن إليهم وإلى أيامهم الحقيقية، وستتفهم كل شيئ يخصهم بدءا من قرارهم الإختياري بالإنقراض من الواقع الواقعي والإكتفاء بالواقع الإفتراضي ووصولا إلى شتائمهم ولعناتهم التي تنصب طيلة اليوم

على مصر، أو تلك الدعوات التي تسمعها أينما ذهبت "بلد بنت.. يارب تولع بجاز.. يارب تتحرق من ساسها لراسها"، ومن فضلك لاتقل لي أنها دعوات تدخل في نطاق "أدعي على ابني وأكره اللي يقول آمين"، بالمناسبة سأعذرك إن فعلت فأنت عندها فعلا لست من السكان الأصليين لمصر، فهؤلاء دائما لديهم اعتقاد راسخ أن دعاءهم على البلد الموازية التي هي مصر وهو دعاء حقيقي ومحروق وممزوج بالوجع سيستجاب يوما ما وعندما تحترق البلد لن ينالهم من العذاب جانب، ليه.. "عشان احنا غلابة وعمرنا ماأذينا حد"، جملة أقسم بالله أنني سمعتها من قتالين قتلا ونشالين نُشلا، وموظفين على المعاش، وموظفين على المعاش المبكر، وفلاحين بالأجرة، وفتيات ليل بالأجرة، وعمال فاعل، وعمال مفعول بهم، كلهم لديهم دائما يقين راسخ أن العذاب الذي يستعجلون نزوله من السماء على سكان البلد الموازية التي إسمها مصر هو عذاب سيحيق فقط بأهلها التي هي "بلدهم ويعملوا فيها ما بدالهم" ولن يحيق بهم أبدا لأنهم غلابة و"عمرهم ماأذوش حد .. ومابيعملوش حاجة غلط"، كلهم يوقنون بذلك يقينا لاشك فيه، بدءا من عامل المستشفى الحكومية الذي يسرق أدوية المستشفى على أساس أن "قرايبي الغلابة أولى بيها من ولاد الكلب اللي معاهم فلوس"، وصولا إلى فتاة الليل التي تقولها بملء صدرها أنها مابتعملش حاجة غلط لأنها عارفة ربنا كويس، "أصله مش هيسيب الحرامية الكبار ويبجي على الغلابة".

لن أطيل عليك أكثر من ذلك. مع أنه كان نفسي والله. هذا كتابي وتلك حكاياته بين يديك. لم أكتبها لكي تضحك. لكن لو ضحكت كما ضحك إخوة لك من قبل فلاتدع لي، إدعي لمصر.. فهي أحوج مني إلى دعواتك.

من غير ماتحس بيه!

"معلهش ياباشا في الكلمة.. سيادتك بتقابل جمال باشا مبارك؟".

لولا معرفتي بصدق نوايا عم جعبل بائع الجرائد لظننته يشتغلني على الصبح، قلت له "آخر مرة شفت إبنه شادي بس ماكانش معاه باباه".

قطّب عم جعبل وجهه غاضبا مني، ثم قال لي "باتكلم بجد والله ياباشا.. أصل بيقولوا إنك بتكتب عنه في الجرنان.. قلت لما أشوف جايز يكون بيتسل بيك"، قلت له " هو أكيد بيكلمني بس أنا مش مسجل نمرته.. بس قول إنت عايز إيه وأنا أشوف له سكة". قال لي " لا أنا مش عايز مصلحة لذات نفسي يعني لاسمح الله، أنا بس اتخضيت لما سمعت الحوار بتاعه مع الأستاذة المذيعة السفيفة نميس الحنيتي ولقيته بيقول ليها إن الإصلاح الإكتصادي الحمد لله إبتدا بس المواطن العادي مش قادر يحس بيه"، قلت له "وإيه اللي يخض في حقيقة زي دي ياعم جعبل.. المفروض إنك تفرح إن الإصلاح ابتدا من غير ماتحس بيه"، نظر عم جعبل إليّ كاظما غيظه وقال لي " ماهي المشكلة إننا حاسين بالإصلاح قوي لغاية ماجبنا خل وجاز ودم كمان وهم لسه فاكرين إننا مش

حاسين بيه"، على حين غرة أخرج عم جعبل من جيبه علبة ورقية لمرهم شهير وهو ينظر حوله محرجا حذرا، ثم قال لي بصوت هامس " ياباشا انا حصل لي إلتهابات من كتر الإصلاح.. وماشي على المرهم ده بقى لي سنتين وباغيره كل خطة خمسية"، قلت له ملتزما بشروط الموضوعية " أكيد بشرتك حساسة وده مش ذنب الأستاذ جمال خالص[1].

دس عم جعبل المرهم في جيبه مسرعا منعا للفضيحة وأخذ يحدثني بحرارة وهو يكاد يمنع نفسه من البكاء " أنا مش باكذب الباشا الصغير جمال بيه والله بس الظاهر إن في سوء تفاهم مخليه يفتكر إننا مش حاسين بالإصلاح.. تلاقي حد من الحرامية الكبار بتوع مجلس الشعب قال له إن الشعب يعني مش حاسس بالإصلاح فقرر يقرص علينا في الإصلاح زيادة.. وأملنا فيك كبير إنك تبلغه إننا حاسين بيه.. وياريت يخفوا علينا شوية.. يعني يعتبروا الفترة دي فترة راحة من الإصلاح أصلح لينا وليهم"، قلت له متبينا لكي نقف على أرضية دلالية واحدة "قصدك يعني يتوقفوا فترة من أجل تقييم آثار عملية الإصلاح الإقتصادي على مختلف الطبقات"، بدا جليا أنه لم يفهمني فقال لي بعد تردد "مش هنختلف يعني يابيه المهم يعرفوا إننا حاسين قوي وتعبنا والنعمة خاسة يعني والباشا الكبير أبو علاء ربنا يديه الصحة قال من ييجي عشرين تلاتين سنة إن سياسة الدولة هي إنها ماتخليش المواطن يحس بآثار الإصلاح الإكتصادي علشان مايحصلناش زي الدول اللي حست بيه وباظت على الآخر.. اللي هم الجماعة بتوع

الإتحاد السوفيتي.. وبصراحة ربنا إحنا ماحسيناش بيه في الأول بس يعني الموضوع ده ماقعدش كتير.. هو يادويك كام سنة بس بعد كده إبتدينا نحس بيه قوي.. وياما حاولنا نقول الموضوع ده لناس ليهم علاكات زي حضرتك.. بس ماحدش حس بينا.. بس ربك والحق خدنا على الإصلاح بعد كده وهديت المسائل.. بس لما جه الباشا الصغير والباشوات الصغيرين اللي معاه وعملوا إصلاح جوه الإصلاح رجعنا نحس قوي بيه.. لدرجة إني فكرت أقف في الشارع وأستنى أي موكب يعدي لحد من الباشاوات وأصرخ خلاص كفاية والنعمة إحنا حاسين بيه بس خفت حد يفهمني غلط.. عشان كده أنا باحملك الأمانة دي والنبي.. إحنا مالناش طلبات كتير والله.. ولا عندنا أمل في أي حاجة.. وخلاص رمينا طوبة كل حاجة.. بس خلاص اللي جاي مش قد اللي راح.. ونفسنا يحسوا إننا حاسين بيه.. عشان عيب واحد زي حالاتي يتبهدل في سن زي دي عشان الناس الكبار فاكرينه مش حاسس بيه". فجأة انخرط عم جعبل في البكاء فجرى إبنه بيومي الواقف على طرف فرشة الجرائد ليحتضنه ناظرا لي نظرة إتهام، قلت له دفعا لأذاه "معلهش يابيومي والله ماكنتش أعرف إن عم جعبل حاسس بيه"، قال لي وهو يتابع والده الذي ابتعد عنا قليلا مختليا بحزنه "قصدك إيه ياباشا.. إنت هتلبخ"، قلت له" أنا قصدي الإصلاح يابيومي.. أصل والدك محملني رسالة لجمال باشا مبارك.. وأنا قبلت الأمانة.. بس ياترى إنت حاسس بيه يابيومي.. حاسس بالإصلاح الإقتصادي"، قال لي "أنا حاسس إنك هتخليني

أتغابى عليك ياباشا"، أعجبتني تركيبة الجملة فقلت له "يابيومي أنا عايز أطمنك إن جمال مبارك هيتفهم الرسالة بتاعة والدك جدا لأنه كما اتضح شاب عادي ولو كنت شفت الحوار"، قال لي ببلاهة مدمن باتجو ردئ التجميع "حمار مين"، قلت له " إصحى معايا يابيومي أنا مش باتكلم عن برنامج حالة حمار.. أنا باتكلم عن حوار جمال مبارك اللي قال فيه إنه شاب عادي لأنه كان جو تو سكول باي باص إيرلي إن ذا مورنينج وكان بيروح التدريب عادي في النادي.. يعني زيه زيك.. أكيد إنت كمان كنت في سنه بتروح التدريب".

ظهرت نظرات الغدر في عيني بيومي وهي نظرات عرفتها ذات يوم عندما رفض زبون أن يأخذ منه علبة كبريت بدل الربع جنيه الباقي له أيام كانت الجرائد بخمسة وسبعين قرشا، ولم يكتف الزبون يومها بالرفض المهذب بل تطاول على مقام بيومي واتهمه في ساعة تحس بأنه حرامي، يومها أصر بيومي على أن يشعل كل علبة الكبريت في مناخير الزبون عودا تلو الآخر ولولا وساطة أولاد الحرام لكان أشعلها في أماكن أخرى أكثر تأثرا بالنار، الواقعة جعلتني أبتسم له بمودة محاولا إمتصاص غضبه قائلا "ياخسارة يابيومي أنا نسيت إنك كنت ولازلت بتروح التضريب مش التدريب.. عموما إطمن جمال مبارك حاسس بمشاكلك إنت وأبوك لأنه زي ماقال لف كتير جدا.. وأكيد المعاناة الإنسانية اللي شافها وهو رايح النادي عشان يلحق التدريب وتجاربه المريرة في ركوب الباص وحجز كرسي جنب الشباك

واللعب في الباك يارد بتاعة الإسكول.. كل هذه التجارب الإنسانية العميقة ستجعله يشعر بمعاناتك أنت ووالدك وجميع الحاسين بيه من أبناء الشعب المصري وبالتالي سيضعوا معاناة إحساسكم بيه في المراحل التالية من عملية الإصلاح الإقتصادي في ثوبها الجديد".

أصدر بيومي صوتا منكرا لايليق بشخص حاسس بيه ثم دفعني في كتفي قائلا "يالله ياعم ربنا يسهل لك.. امشي من هنا ماتاكلش دماغنا"، نهره أبوه الذي كان قد اختفى للحظات في بير سلم العمارة المجاورة ثم أطل وهو يعدل جلابيته أثناء مشيه داسا علبة المرهم في جيبه "عيب يابيومي ياأهبل.. ده عمك وأنا موصيه على مصلحة عند الباشا الصغير.. والنبي ماتنسي ياباشا"، قلت له "حاضر ياعم جعبل ولو إن إبنك باين عليه لسه ماحسش بالإصلاح"، قال لي ملاطفا "ماتستعجلش عليه ياباشا.. شاب ومستعفي روحه.. بكره يحس بيه وعينه تتكسر"، هززت رأسي متأملا حكمة الأب وأنا أبتعد عن فرشة الجرائد ناظرا إلى عناوين الصحف القومية التي تتلو على الناس ماتيسر من تصريحات النجل السابق سنه، استوقفني صوت عم جعبل وهو يناديني "والنبي ياباشا قوله لما يطلع تاني في أي حوار يدينا كم بوسة وهو بيتكلم عن الإصلاح.. عشان مافيش إصلاح من غير بوس".

أم هند لا تريد حبا ولا حنانا..
تريد معاشا!

أنا رجل يحب أن يدلع نفسه. ولذلك صحوت من النجمة يوم الأربعاء الماضي لكي أستمتع بحضور المسرحية السياسية الهزلية التـي يقـدمها مـسرح الدولة كل عام بمناسبة عيد العمال، تلك المـسرحية التـي تثبت كذب الإتهامات الموجهة للمسرح الخاص بأنـه يحتكر الهزل والضحك "السريخ"، كنت ستكتشف ذلك بنفسك لـو أتيحت لك مثلي مشاهدة عرض هذا العام الذي يسبق مسرحية الانـتخابات الرئاسـية بعدة أشهر والذي أثبت رئيس إتحاد العمال السيد راشد بإخراجه له أنه أجدع ألف مرة من المخرج المخضرم السيد راضي، بينما تفوق منتج العرض وزير القوى العاملة أحمد العمـاوي علـى كـل ماقدمه المنتج المسرحي أحمد الإبياري في تاريخـه الطـويل، أما فاكهة العرض فقد كان الراجل "العرض" المذيع الذي قدم للسهرة الصباحية والذي كان رئيس البلاد مبسوطا مـن أدائه خالص فقال له عند صعوده إلى المسرح كلمات هامسة جعلـت المذيـع يكاد يتدحرج من الفرحة على "الإستيدج"، لم نعلم ماالـذي قالـه الرئيس لمذيعه المحبب بالضبط لكن تشغيل الخيال قلـيلا يجعلـنا نستنتج أن الرئيس الذي يحب دائما تشجيع أولاده الـرواد أبناء الإعلام المصري الرائد، بالتأكيد قال سيادته للمذيع

"انا باشوفك كل يوم في نشرة ستة ونشرة تسعة.. خليك زي ماإنت.. إوعى أداءك يتغير".

برغم أن الأمر ليس سهلا على الإطلاق لكنني سأحاول والله المستعان أن أضعك في جو ماحدث في تلك السهرة الصباحية البهيجة التي بدأت عندما بدا رئيس إتحاد العمال السيد راشد يتثنى ملقيا كلمة العرض الإفتتاحية أمام الرئيس، وهي كلمة يصعب تلخيصها مثلما يصعب الإستماع إليها، طيلة الكلمة كان السؤال الذي يشغلني "هو الراجل ده عامل إيه بالضبط"، ستجيبني "ياراجل ماهو قدامك أهوه عامل صينية قرع بالكسكسي ماتلقاش زيها في ألبان المالكي"، تسرعت وفهمت قصدي خطئا، أنا أقصد بسؤالي متى كان هذا الرجل عاملا، ستقول لي "ماهو كان واقف قدام مصر كلها بيعمل "عملة" تقيله أهوه"، للأسف برضه إنت تحسبني هازلا، بينما أنا اسأل بجدية توبة قلبية، "الراجل ده كان عامل في إيه بالضبط، يعني مثلا خراط.. فني لحام.. عامل تضافة، ماهي المهنة الشريفة التي بدأ حياته بها لينتهي به الحال هكذا"، أسئلة لم أجد إجابة شافية لدى كل من أعرفهم فاكتفيت بتسكينه مهنيا بوصفه "عامل دماغ نفاق جامدة" لدرجة أنه لم يأخذ باله وهو يلقي كلمته التاريخية فقام بفضح المهزلة المتفق عليها مع المخبرين التلقائيين المزروعين في قلب القاعة والذين يقوم كل منهم بتلقائية كل خمس دقائق ليخرج ورقة تلقائية من جيبه ويقرأ كلمة تلقائية تمدح الرئيس وتقول له تلقائيا "حلفتك تقعد إلا إلأ.. والنبي ماتمشي إلا إلا". السيد راشد اتخنق من مقاطعة التلقائيين له

فقال لهم "يابني الوقت محسوب عليا .. لما الريس يتكلم قولوا له اللي انتو عايزينه"، وطبعا التلقائيون توقفوا بشكل تلقائي عن الكلمات التلقائية التي لم يكن لها علاقة بالتلقائية سوى أنها تلقيك على قفاك من فرط هزلها ونفاقها.

بالمناسبة يومها كاد صديقنا الأستاذ عبد اللطيف المناوي رئيس قطاع الأخبار بالتلفزيون المصري يميتني من الضحك وهو يجلس داخل الأستديو التحليلي المنعقد في قلب مبنى ماسبيرو لمناقشة مباراة النفاق المبثوثة على الهواء مباشرة، ليسأل زميله المذيع في قلب قاعة المؤتمرات بجدية لاتليق بهزل الموقف "محمد هل لك أن تصف لنا الهتافات والكلمات التي ألقيت في القاعة.. هل كانت هذه الكلمات مديرة أم كانت تلقائية"، أي والله، هكذا جاء سؤاله بالنص، لحظتها صعب عليا ياعيني الواد المذيع محمد، وشعرت به في داخله يقول لنفسه "ليه بس كده ياعبدو.. إحنا فينا من كده.. ليه الفخاخ اللي على الهوا دي"، دعاء الوالدين وحده جعله يرتجل لهذا السؤال الفخ إجابة لم أجد لها مثيلا في الذكاء "عبد اللطيف .. برغم أن البعض سيقول أن هذه الكلمات مدبرة إلا أنني أستطيع أن أؤكد لك أنني وأنا في قلب القاعة أنها تلقائية جدا لدرجة أنني قرأت يافطة في قلب القاعة تقول من يقود السفينة سواك يامبارك، وهذه عبارة لايمكن أن تصدر بشكل تلقائي".

ليسمح لي عبد اللطيف وليسمح لي محمد بكل المودة أن أقسم لهما كمشاهد قديم متعود على النفاق من خشونة أظافره بأن عيني اكتحلت منذ القدم برؤية تلك اليافطة التلقائية، ربما بالتحديد وأنا

طالع رابعة ابتدائي ذات عيد عمال مجيد حضره الرئيس مبارك "ماغيره" على رأى إخواننا الشوام، ومستعد أن أثبت صحة ماأقوله لو أتيح لي أن أذهب أنا ومحمد وعبد اللطيف بشكل تلقائي إلى القاعة التلقائية لنمسك باليافطة التلقائية ونقلبها تلقائيا لنجد لامحالة على ضهرها رقم تخزينها التلقائي في مخازن إتحاد العمال التلقائيين، أما إذا لم يسمح لنا بذلك كما هو أغلب الظن فالمنطق يقول لنا لو شغلناه أن يافطة مثل هذه مستحيل أن يكون ماكتب عليها صدر بشكل تلقائي من مواطن صالح يعيش معنا في هذا البلد بتلقائية لأنه لو كان كذلك لكتب على اليافطة عبارة تلقائية وحيدة هي "من سواك سيغرق السفينة".

لايتمتع عبد اللطيف المناوي بشكوك مرضية مثلي، ربما لأن نيته صافية وليست مثل نيتي، مناوي بقى، أوربما لأنه عاش بشكل تلقائي بعيدا عن مصر لسنوات طويلة، ولذلك فقد صدق على الفور زميله محمد وأخذ من تلقاء نفسه يتحاور مع ضيوفه الكرام بشكل تلقائي عن تحليل مضمون تلك اليافطة التلقائية وسائر الهتافات التلقائية التي ألقيت يومها، لم أكن محتاجا لنيل ماأوتوا جميعا من علم لكي أعتقد جازما أن الرئيس مبارك من خلال قراءتي لتعبيرات وجهه الكريم كان يستمع إلى تلك الهتافات بابتسامة ذات مغزى تجعله أول من يمتلك يقينا أن كل تلك الهتافات لاتلقائية ولاديالولو، بدليل إن كل شخص تلقائي تكلم كان يطلع فجأة من ركن من أركان القاعة مجهز بالصدفة بميكروفون، هنا دعني أسألك لماذا كانت الميكروفونات موجودة في أماكن

وقوف الهتيفة بالضبط، أرجوك لاتقل لي أن الميكروفونات هي كمان من فرحتها بالريس جاءت بشكل تلقائي لكي تبايعه وتتحايل عليه أن يقعد ويانا فترة رئاسية جديدة "عشان إحنا طلعنا من عنق الزجاجة بس للأسف رجعنا في بطنها تاني ولازم يفضل كمان ست سنين عشان يطلعنا عنق الزجاجة تاني".

كل هذا التشكيك الذي أنفثه في عُقدك لن ينجح أبدا في إلغاء حقيقة أن السيد راشد يومها كان فرحا للغاية بنفسه وهو يعلن لسيادة الرئيس رغبة الشعب كله "نافار نافار" في بقائه علينا اقصد معنا لفترة رئاسية جديدة، وهي الرغبة التي ماإن أعلنها السيد راشد حتى وقف كل من في القاعة تلقائيا على حيلهم برغم معاناة اغلبهم من مشاكل الغضروف واللومباجو، لكن كله يهون علشان أحلى عيون، عيون الوطن طبعا، والرئيس بدوره كان متأثرا بشدة بكل هذا الحب والحنان لأنه لم يكن يتوقع أن يكون بداخل الحاضرين كل هذه الكميات من التلقائية فأخذ يومئ إليهم بإشارات ثقة ترجمتها بلغة الإشارة "ماتخافوش ماشي حاضر خلاص هاشوف الموضوع ده فورا".

كان الموقف كله جللا. لدرجة أن المشاعر الأسرية الحميمة المتصاعدة منه ذكرتني بأبي عندما كان ذاهبا إلى المستشفى لكي يعمل عملية الفتاق وتركنا في البيت زغب الحواصل لاماء ولا شجر، وكلنا كنا نبتهل إلى الله أن يعيده إلينا بالسلامة لأننا لم ندفع مصاريف المدرسة بعد. كدت أبكي بفعل تصاعد مشاعر "الشكن" المنبعثة من المشهد، لولا أن قطع حبل مشاعري عامل تلقائي

وقف على حين غرة مخرجا ورقة تلقانية ليصرخ وهو يقرأ منها "مش كفاية مش كفاية .. معاك ياريس للنهاية"، طالبا بإشارة من يده من كل التلقانيين المجاورين أن يهتفوا معه، دعاهم للهتاف قليوا، بينما اكفهرت وجوه جميع المسئولين، الذين أزعم أن هناك بينهم من سأل فورا مرؤوسيه عن "الحيوان اللي كتب الهتاف ده وأدخل إسم حركة كفاية إلى محفل بهيج كهذا لكي يلوث نقاءه ويفسد صفاءه"، خرجت من شجني وفرحت لحركة كفاية التي لم تكن تتصور أن يكون لديها هذا التأثير الذي يجعلها تنط كعفريت العلبة في قلب قعدة حظ وفرفشة زي دي.

أخذت أتأمل ذلك العامل وهو يحزق بهتافه ظنا منه أنه سينال بفضل حزقه علاوة لعله سيعالج بها أحد أقاربه من ضحايا الأمراض المتوطنة المباركة، أو ربما سيخصص مبلغ العلاوة كاملا لإعطاء إبنته شيماء درسا في الكيمياء "عشان ماتسقطش في الأحياء"، أو ربما كان يخطط لنيل أسبوع زيادة في مصيف الشركة بجمصة، تعاطفي الحار معه جعلني على استعداد لأن أتفق معه على إنه مش كفاية، لكني كنت أريد أن اسأله سؤالا واحدا "بذمتك ياراجل هو في نهاية أكتر من كده".

سكت العامل أو أسكتوه، وذهب السيد راشد وطلع السيد العماوي، وعصفور النقاق صوصو صوصو. من جهته أحب السيد العماوي أن تكون له نكهه خاصة فرفض أن يتحدث بالعامية مع أنه عماوي، وطفق يتحدث بلسان عربي يليق ببرنامج "كتاب عربي علم العالم"، مما جعلني أفقد المود الهزلي الذي كان السيد

راشد قد حطني فيه، أحسست إن جسمي بدأ يقشعر إبان حديث العماوي عن أن القيادة السياسية لديها بوصلة خاصة لاتملكها أغلب قيادات العالم، أنا والله ماكنت أعرف، فالبوصلة الوحيدة التي شفتها في حياتي جابها لنا جوز خالتي في سجادة صلاة استقدمها ذات عمرة من السعودية، لم تكن يومها لدي معلومات مؤكدة ماإذا كان لدى جاك شيراك أو مهاتير محمد أو أردوغان أو لولا دي سيلفا أوغيرهم من زعماء العالم "بواصل" هم راخرين، أم أنهم يقودون بلادهم بمعرفة اتجاهات الشمس.

لم أكد أفيق من صدمة البوصلة حتى فاجأني السيد العماوي بمعلومة خطيرة وهي حسب نص كلامه "أن الرئيس مبارك زرع في قلب كل مواطن مزرعة ثقة في الرئيس مبارك"، الحق أنني انخضيت وقلت لنفسي " هو ده بقى سر النهجان اللي باحس بيه بقى لي فترة، أتاري جوايا مزرعة ثقة في الريس وأنا عمري ماياسقيها، أكيد الزرع مات وأدى الى ماأحس بيه من نهجان وكرشة نفس"، أخذت على الفور أفتش في صدري عن أي آثار لمزرعة الثقة لكي أزيلها على الفور وأشتري راحة صدري، لكنني توقفت عن ذلك بعد أن شعرت بنظرات حارقة صوبتها نحوي من المطبخ أم هند شغالة منزلنا العامر التي منعها عملها لدي من حضور إحتفالات الدولة بعيد العمال مفضلة أن تأتي يومها لممارسة عملها في بيتنا السعيد، توقفت عن العبث بصدري على الفور بعد نظرات أم هند الساخطة خوفا من أن تفهمني خطئا فتقول لزوجتي أنني كنت أتحسس صدري أمامها بشكل مثير

للريبة، وبالتأكيد لن تصدق زوجتي أبدا أنني كنت أتحسس صدري للبحث عن مزرعة الثقة، خاصة أن زوجتي ليس لديها مزرعة ثقة في أنا أساسا، توقفت عن البحث اليدوي مستبدلا إياه ببحث ذهني عن تاريخ اليوم الذي تم افتتاح هذه المزرعة بداخلي وكيف لم أشعر بها، وإذا كان بداخلي مزرعة ثقة فلماذا أشعر بكل هذا اليأس في إصلاح أحوال الوطن، هل أكل الجراد مزرعة ثقتي عندما جاء الى مصر، أم قتلتها مبيدات يوسف والي المحظورة والتي أتناولها ضمن الخضار الذي آكله، أم أن هذه الثقة التي بداخلي ثقة عميا مادام السيد العماوي هو الذي أعلن عن وجودها وهو على عماه.

لم أكن قد انتهيت من تفقدي الذهني لمزرعة ثقتي حتى كان العماوي قد انتهى من كلمته، ليقف مكانه المذيع القمور قائلا لنا أن الرئيس مبارك جعل كل مواطن يعيش في داخله بهجة التعمير، استغربت كيف سمحت له الرقابة بهذا التعبير الذي يلقي ظلالا "بذيئة" خبيثة في بلاد لم يجبها إلى الوراء سوى إنتشار بهجة التعمير بها أكثر من اللازم. حوقلت خارجا من أفكاري الخبيثة عندما أعلن المذيع بصوت مهيب أن "موعدنا الآن مع خير المقال"، استغربت ان الرئيس لن يلقي كلمته زهدا منه في الكلام، وأنهم سيختمون الحفل فجأة بآيات من الذكر الحكيم، أملت ألا يختاروا منها على طريقة سمير رجب الشهيرة الآية الكريمة "والله يعصمك من الناس"، لكنني فجأة وجدت المذيع يعلن عن كلمة السيد رئيس الجمهورية، فاستغفرت الله لي لأنني ظننت كغيري أن

خير المقال هو كلام الله عزوجل. بدأ الرئيس كلمته التاريخية بصعوبة غير متوقعة فقد انقض التلقائيون عليه بهتافاتهم تلقائيا تلو الآخر لدرجة أن علامات الغضب ظهرت عليه، حتى خشيت أن يقول لهم "والله لو ماسكتو لاكون مش مرشح نفسي خالص"، وطبعا لأنهم تلقائيون لم يلتقطوا غضب الرئيس أبدا بل رفضوا أن يستجيبوا له وأصروا على مقاطعته بهتافاتهم المحبة طيلة حديثه، حاولت أن أمارس عادتي المرذولة كمواطن غير صالح فأقوم بالتعليق بيني وبين نفسي على خطاب الرئيس لكن اكتشافي المباغت العماوي الذي غيرني للتو وهو أن بداخلي مزرعة ثقة في سيادته منعني لأول مرة من تلك العادة اللعينة.

أخذت استمع إليه بزرعي وثقتي، إلى أن وصل سيادته الى فقرة في خطابه أخذ يتكلم فيها عن خطته لتأمين المعاشات لكل مستحق من أبناء الوطن، وهنا وإذ فجأتن اندفعت الشغالة (بلاش، خليها مديرة المنزل كما تحب أن ندعوها) أم هند من المطبخ صارخة لتتجه إلى التلفزيون وتأخذ في الصراخ في وجه سيادته الذي يملأ جنبات التلزيون قائلة له بحرقة لم أعهد لها مثيلا "حرام عليكو.. بقى لي سنتين باجري ورا معاش مبارك اللي بيقولوا عليه .. مش عارفه أجيبه .. كل ماروح يقولوا لنا ماجاش..وهم ستين جنيه مش عارفه هنعمل بيهم إيه أساسا..".

أنتم لاتعرفون أم هند وأنا لست ساذجا لكي أقول لكم من هي أم هند، ولا إلى أي أب تنتسب إبنتها هند، لكي لايأتي التلقائيون بهند من قفاها فيقوموا بتركيب مزرعتي ثقة لها ولأمها وربما لأم

اللي جابت أمها، للعلم والتوثيق فقط أو بصراحة لكي يخرس المتشككون الذين يظنون أن أم هند اشتغالة من اشتغالاتي لمجرد أنهم تعودوا على أن الإسم الحركي للشغالة ينبغي أن يكون أم محمد أو أم عبده، على هؤلاء أن يعلموا أن أم هند ابنها الكبير اسمه محمد لكنها قررت أن تكون أم هند ليس لأنها 'بتعز هند قوي عشان هند نسخة تيبيكال منها"، بل لأن هند هي الوحيدة "اللي بترضى من بين إخواتها تقف مكاني" عند حدوث أي عطل فني في أم هند.

عملت أم هند شغالة لدينا أو مديرة لمنزلنا لكي لاتغضب منذ عامين ونيف، بدأ عملها في البيوت بعد رحيل زوجها قبل ثلاثة أعوام ونيف، لكي تصرف على أربعة أولاد وثلاث بنات وأزواجهن العاطلين عن العمل، كانت تفعل ذلك بكفاءة منقطعة النظير من وجهة نظرها مع إنها كلها على بعضها مجرد تلاتين كيلو، وحاجة واربعين سانتي، وحولاء كمان، لدرجة إنه من ظواهر بيتنا السعيد إنها كلما جاءت لتضع الحلل على نار البوتاجاز أوقعت الحلل في الأرض بسبب عدم ضبط المسافة بين عينها وعين البوتاجاز، وطبعا لإنها قصيرة فهي مابتطولش تمسح القزاز ولاتنفض الدواليب ولا تزعف الحيطة ولابتطول حبال الغسيل فهي تأخذ نص أجر لأننا نقوم عنها بكل هذه المهام الجسيمة.

لغاية إقتحامها المباغت لخطاب السيد الرئيس لم تكن أم هند قد تبادلت معي خلال عملها لدينا كلمتين على بعض لأنها تعلم

أنني "باشتغل في السينما"، ولذلك فقد سألت عني كثيرا قبل أن تعمل لأن المعروف أن الذين يعملون في السينما فلاتيه وهلاسين ولذلك فأم هند تخاف على نفسها من فتنتي برغم أن "عندها إتنين وستين سنة"، لكن من قال أن العمر يهم كثيرا مع سيدة عفيفة "زوجها ميت والست ماحيلتهاش غير سمعتها"، ولذلك فهي لاتحدثني إلا وهي تنظر في الأرض خوفا من سهم النظرة المسموم "برضه هتاكل مكرونة اسباكته ياستاذ.. الغيارات فين إنشاء الله.. ياه لحقوا يتوسخوا زيي".

لذلك ولذلك كله فقد كان حدثا حقيقيا بالنسبة لي أن اشهد بأم عيني مواجهة أم هند مع سيادة الرئيس في التلفزيون بشكل تلقائي وهي تقول له كأنه يراها فإن لم يكن يراها فإنها تراه " ده حتى جه الباحث الاجتماعي لقى عندنا تلفزيون وكاسيت قال لنا انتو مبسوطين مش محتاجين معاش.. قلت له ياعم الحاجات دي انا جايبها والراجل عايش .. ماصدقنيش.. رحت مرة عيطت لهم وقلت لهم الواحد لو قعد يشحت هياخد فلوس اكتر من المعاش بتاعكو.. ده هدير لوحدها بتاخد دروس بمية جنية وفي باقي المواد المدرسين مابيرضوش ياخدوا فلوس عشان ابوها ميت".

كانت تلك مفاجأتي التالية،أم هند لديها هدير كمان، المرحوم على مايبدو كان صاحب مزاج في اختيار اسماء بناته، المفاجأة الأولى لو كنت نسيت هي أنني أمتلك مزرعة ثقة في صدري للرئيس دون أن يخبرني أحد ببدء تشغيلها.

أخذ الرئيس يواصل حديثه عن إلتزام الدولة، دولته، بتقديم

العــون لمــن لايستطيع تأمين عيشه، وحمايتها لغير القادرين من أبناء الوطن، دون أن تعطيه أم هند فرصة لإكمال حديثه، مواصلة هلفطتها بكلام يؤكد أنه ليس في قلبها ذرة من إيمان بسيادته فضلا عــن وجــود مــزرعة ثقة فيه. كان جليا أن الدور لم يصبها في إفتــتاح مزرعة الثقة، هزني حماسها الباكي المفاجئ فقلت لها " لا والنبــي بــلاش تعيطــي ليه ياأم هند". فقالت لي وهي تنظر في الأرض كعادتهــا " وهــو عاد في دموع ياأستاذ .. ده البصل إبن الوسخة".

استدارت أم هند مباشرة لتواصل مواجهتها مع الرئيس وهي تلــوح له بسكينة صغيرة خرجت بها من المطبخ، حمدت الله لأن الــبث لــم يكــن تفاعليا لكي لاألبس أنا وأم هند قضية أمن دولة لاتحقــيق فيها ولامحاكمة، بل مشرحة على الفور، أخذت أم هند تقول ساخطة سخطا تلقائيا لم أر له مثيلا " معاش إيه بس.. ده أنا رحــت بــنك فيصل عشان آخد المعاش اللي بيدوه للفقرا قالت لي واحدة اقلعي الخاتم الدهب ده عشان هيقولوا عليكي مبسوطة قلت لهــا ده قــشرة بقــى له خمس سنين وهو اللي فاضل من ريحة المــرحوم .. قالــت لــي اقلعــيه وبس .. لقيت طوابير وستات بتــضرب مــن العساكر وزعيق وقلة أدب وتجرمة .. وياخدوا الورق من الناس ويرموه.. وكل ده عشان تلاتين جنيه آخدهم كل موســم .. وانا وحظي .. لقيت نفسي هاموت تحت الرجلين قلت بــلاش العــيال عايزيني. لا وإيه وعايزينك لما تروح تقدم تبقى لابــس مقطع وشبشب مقطع مش تروح نضيف، الحكومة عشان

تساعدك لازم تبقي معفن، رحت لبست لبس مقطع من ورا العيال ونــزلت، قالوا لي الباحث لسه ماجاش، ليه هو مسافر يعني، طب لاهدوم عدلة نافع ولا هدوم مقطعة نافع".

تــوقفت أم هــند فجأة عن الكلام المباح بعد أن بدا أنها قالت كلمــتها وصار واجبا أن تمشي كأي مواطن صالح، اتجهت نحو المطــبخ وقــد عادت إلى صمتها الأثير ثم قررت أن تقول كلمة أخيرة كانت واقفة في زورها، وتسألني سؤالا مباشرا لأول وربما آخــر مرة، "إنما إنت بتتفرج على الكلام ده ليه ياأستاذ"، قلت لها "عــشان عندي مزرعة"، قالت لي "مزرعة إيه"، قلت لها "مزرعة ثقــة.. هو إنتي ماعندكيش مزرعة ثقة"، قالت لي وهي تدلف إلى المطبخ "لأ .. بس من اسبوع كنت تعبانة شوية رحت المعمل بتاع مصطفى محمود الله يبارك له، وعملت مزرعة بول".

ســيادة الــرئيس.. أم هند تنتظر منكم أحد أمرين.. "ياتدوها معاش ياتركبوا لها مزرعة ثقة".

في وادي المصريين!

صـــباح اليوم التالي لإعلان الرئيس مبارك للتغيير الوزاري المحــدود الذي أطيح فيه بعدد قليل من الوزراء على رأسهم أقدم وأضـــخم وزراء مـــصر السيد كمال الشاذلي، سألني بتاع عربية الفــول المتلقحة أسفل بيتي سؤالا أعتبره أهم وأجرأ وأذكى تعليق سياسي على التغيير الوزاري " لامؤاخذة ياباشمهندس.. هو يعني كمـــال الشاذلي اللي كان خارب البلد؟"، ردي هو الآخر جاء على نفس المستوى من الذكاء والجرأة والأهمية "كتر الطحينة ياريس".

بعـــدها بدقائق قال لي بياع الجرائد بألمعية ليست غريبة على مهنـــته " عارف يابيه ياريتهم كانوا جابوا مرتضى منصور رئيس حكـــومة علـــى الأقـــل كـــنا نتسلى حبتين" قلت له "أنا سامع إنهم هـــيعملوا لـــه هو وكمال الشاذلي برنامج توك شوك في التلفزيون عـــشان الشعب مايحسش بالغربة بعد رحيل كمال الشاذلي"، وبينما نحـــن نتهاذر ونتهازر دخل إلى نطاق فرشة الجرائد موظف قديم في وزارة الصحة القريبة منا ليقوم بعادته اليومية وهي أخذ جميع الـــصحف اليومية السيارة على إختلاف ميولها السياسية لتصوير أبواب الكلمات المتقاطعة والقيام بحلها أثناء ساعات العمل، ضايقه انشغال بياع الجرايد بالحديث معي فقال له "والنبي بسرعة عشان

الإمضاء"، رد عليه البائع متهكما "ياعم مستعجل ليه ماشالوا الوزير خلاص"، قال له الموظف بقلق "والنبي بلاش هزار"، قال له البائع "زعلان ليه هو كان من بقية أهلك"، قال له الموظف "ياعم اتنيل هم دول بيشيلوا حد"، أشار له البائع إلى مانشيتات الصحف فجرى بعينيه باحثا عن إسم وزيره وهو يقلب رأسه حيرة، قال له البائع "يالله شد حيلك"، قال له "ياعم وأنا مالي هو يعني أنا كنت خدت منه حاجة عشان أزعل عليه.. بس ده مين ده الوزير اللي جابوه مكانه"، قلت له "ده دكتور إسمه حاتم الجبلي كان بيشتغل مدير دار الفؤاد كليفلاند كلينيك"، سرح الموظف قليلا ثم قال لي وهو يلوي شفتيه باشمئزاز "البلد خربت.. بقى يمسكوا وزارة الصحة لرئيس بنك"، هلكت من الضحك وسط دهشته هو وبائع الجرائد، سأل الموظف بائع الجرائد مشيرا إلي "وهو الأخ تبع أنهي وزارة"، قال له "ده مسكف تبع وزارة السكافة.. الوزير بتاعهم قاعد"، نظر الموظف لي نظرة غير بريئة فهمت مغزاها وابتعد وهو يبسمل ويحوقل، وبعد أن انصرف قال لي البائع "عارف ليه طلعوا الدكتور عوض تاج الدين من وزارة الصحة.. قلت له عشان البلد بقت بعافية قال لي لأ ماهي طول عمرها كده.. دول طلعوه من الوزارة عشان في المدة اللي قعد فيها في الوزارة طول حبتين وبقى أطول من نظيف وده مايصحش"، قلت له "بس غريبة مامشوش فاروق حسني عشان الثلاثين واحد اللي اتحرقوا"، قال لي "ماهم شالوا المسئول عن الدكاترة اللي ماعرفوش يطفوهم.. مش المهم اللي حرق ياباشا المهم اللي ماعرفش

يداوي". أعجبني منطقه فسألته "طيب والليثي وزير الزراعة ازاي يمشوه.. تفتكر عشان جاب سيرة الفساد بتاع يوسف والي ورجالته" قال لي "لأ يابيه.. طلعوه عشان الجراد فضحنا في الدنيا كلها عشان لما جه مصر مالقاش حاجة ياكلها"، سألته "طب تفتكر سابوا وزير الداخلية حبيب العادلي ليه"، لبس على الفور وجها خشبيا ناظرا إلي بحياد ولاكأننا كنا نتحدث على مدى نص ساعة قبل أن يشخط في وهو يمد المائة جنيه التي أعطيتها له منذ قليل "والنبي فك لي الميه دي من البنزينة.. يالله عشان نشوف أكل عيشنا يابيه"، قدرت ظروفه وضحكت ثم عبرت الشارع إلى بنزينة التعاون، باركت لعامل البنزينة على بقاء وزير البترول في منصبه فقال لي "بس على الله نادي إنبي يعمل حاجة السنة دي في الدوري".

عندما عدت إلى بائع الجرائد وجدته يقول لأمين شرطة "والله ماحد عرف يمسك البلد ديه ويشكم أهلها زي الباشا العادلي"، أخذ فلوسه متحاشيا أن تقع عينه في عيني. وأنا قدرت ظروفه، وعدت إلى البيت، في الطريق مررت على المكوجي فوجدته منتشيا للغاية سألته "إيه يااسطى شكلك فرحان إن في رجال أعمال جداد دخلوا الوزارة"، قال لي " لا الحمد لله ربنا أظهر الحق طلع التايير بتاع مدام سناء واقع في البلكونة اللي تحت.. كانوا متهميني فيه غلط.. ظهر الحق وزهق الباطل". وأنا أشتري الزبادي من محل ألبان عمر المجاور قال لي عامل المحل الحاصل على بكالوريوس تجارة "إيه كل الجرايد دي ياباشا.. إنت

مابتــزهقش"، قلــت لـــه "لا ده أنا جايبهم بمناسبة تغيير الحكومة أصـــلهم خـــلاص هيوفـــروا ٤ ملايين ونص فرصة عمل وربنا هيــتوب علــيك مـــن الغلب اللي إنت فيه"، قال لي بعد أن أصدر صــوتا غير قابل للكتابة ولو كان قابلا للكتابة لما كان قابلا للنشر ثــم أردف قـــائلا " والنبـــي ياباشا شوف لنا كاتبين إيه عن ماتش أوغــندا.. ده شكلنا هنتقطع في كأس الأمم.. عشان الكابتن حسن شــحاتة يفرح بإعلانات البيبسي.. طب ماكانوا خلوا اللعيبة بتوعنا عملوا إعلانات لكوكا كولا أحسن على الأقل يبقوا زملا مع نانسي عجرم دي وشها حلو وإنت فاهمني بقى.. طليك أهوه ياباشا". قلت لـــه وأنـــا أخرج من المحل مغيظا له بشعار حملة الأليان الشهير "ياأحمـــد صدقني صحتك في الحكومة دي"، وهو لم يتقبل الدعابة وواصل إطلاق الأصوات المستعصية على الكتابة.

عــندما وصــلت أسفل البيت ابتدرني أسعد البواب – إسمه أســعد مـــع أننـــي لم أر من هو أتعس منه – مطالبا بأجرة مسح الـــسلم، أعطيته عشرة جنيهات وانتظرت الباقي فقال لي "كل سنة وانـــت طيب.. حلاوة الحكومة الجديدة"، أثنيت على ذكر أهله بما لايلـــيق ثــم قلــت لـــه "حد قالك إني اتعينت فيها وزير"، قال لي بابتــسامة نظـــيفة "أيوه ياباشا بس يعني هتاكل على قفاها عيش.. ماإنـــتو يابـــتوع الكتوبة اللي بتستنفعوا من الحاجات دي"، أفحمني مـــنطقه فقلت له "طيب هات اتنين جنيه وهاديك باقي الحلاوة بعد حلف اليمين الوزاري".

بعـــدها بكام يوم وفور مجيئ أم هند "متيرة" المنزل لممارسة

عملهـــا في تخريب المنزل باركت لها بحرارة على رحيل وزيرة التأميـــنات التي داخت أم هند السبع دوخات فيها لكي تصرف من وزارتهـــا معـــاش الـــرئيس مبارك "اللي بيقولوا عليه"، قالت لي بذهول وقد صدمها الخبر الذي لم تكن قد سمعت به " يانهار اسود لايكونوا مشوا معاها الموظفين.. الورق معاهم؟"، قلت لها محترما ذكاءهـــا "ماتخافيش هم مشوا الوزيرة بس ولغوا الوزارة كمان.. فتحوها على وزارة التموين وسموها وزارة الضمان الإجتماعي"، أخذت تلطم وتبكي وتقول لي "ضاع المعاش ياولاد المفترية"، قلت لهـــا "ماتخافـــيش ورق المعاش اللي معاكي بإسم الريس والريس قاعـــد لـــسه ست سنين.. يعني حقك محفوظ"، حاولت أن تتماسك وتتمسك ببصيص الأمل الذي ألقيته إليها قبل أن تغرق في اليأس، واتجهت إلى المطبخ محاولة التماسك لكنها قبل أن تدخله استدارت وســـألتني سؤالا أخطر من سؤال بتاع الفول "ألا ياباشا هي وزارة الـــضمان الإجتماعي دي ضمانها كام سنة". قلت لها " ست سنين شـــاملة قطـــع الغـــيار والتوريث". ظننت أني أسخر منها وظهر الغـــضب على وجهها، حاولت ملاطفتها فقلت لها "كل سنة وإنتي طيـــبة ياأم هند.. النهارده عيد ميلاد الريس"، فخبطت جبينها بكفها بقوة وقالت "ياحول الله يارب.. نسيت أصوم".

"العاسيفة" التي ستأخذهم!

كلما حدث حدث جلل في مصر انتظر الكثيرون رأي الأستاذ محمد حسنين هيكل لكي يطل عليهم بتحليلاته الجامعة المانعة عبر شاشة قناة الجزيرة، عن نفسي أهتم كثيرا لأراء الأستاذ هيكل وأستضيئ بها لكنني أنتظر بشغف أكثر تحليلات أم هند شغالة منزلنا العامر أو مديرة منزلنا كما تحب أن تسمي نفسها بعد أن شاهدت تلك التسمية في مسلسل أصحاب المقام الرفيع الذي سامح الله كاتبه مفى نور الدين لأنها عبثت بعقل أم هند فجعلتها تصر على أن تخاطبني بلقب إكسلانس.. حتى لو كان ذلك اللقب لايتسق مع جمل من نوعية " أنا دعكت الحمام خليته زي الفل ياإكسلانس أو في غيارات وسخة للغسيل ياإكسلانس". وبرغم إعتراضي مرارا وتكرارا على ماإستحدثته أم هند في لغة الخطاب إلا أن أيا من هذه الإعتراضات لم يكن له أي جدوى، ليس فقط لأن زوجتي سعدت بتلك التغييرات التي اعتبرت أنها أوجدت "إسبيس" ضروريا بيننا وبين أم هند خاصة أن زوجتي ورثتها مكرهة من أيام عزوبيتي، وإنما لأن أم هند ترى أن الأصول تقضي أن تعاملنا بما نستحقه كأصحاب مقام رفيع لاينقصنا من وجهة نظري إلا امتلاك فازة ضخمة كالتي يمتلكها حسين فهمي في مسلسل

أصحاب المقام الرفيع والتي صارت لدي علامة على كون أي مسلسل به فازات ضخمة بالضرورة من تأليف مني نور الدين.

أنتم الآن تعلمون أن هناك ضديات سياسية باتت تربط أم هند بالرئيس مبارك الذي ترى أم هند أنه يتخذ منها موقفا شخصيا بسبب عدم حصولها حتى الآن على المعاش الذي وعد به شعبه منذ أكثر من عامين، ياما قلت لها أن الرئيس مبارك برئ مما جرى وأن اللوم يقع على الباحثين الإجتماعيين الأشرار الذين يعرقلون حصولها على معاش سيادة الرئيس لأنهم يرون أن أم هند غنية لأنها تملك تلفزيونا، بينما أم هند تحاججهم بقولها أنه "دا حتى الجرابيع عندهم تلفزيونات"، لم أهتم ولو لمرة أن أسأل أم هند: من هم الذين تقصدهم بالجرابيع وماهو المستوى الإجتماعي لهم، فأنا بحكم تاريخي ونشأتي ضليع في علوم الفقر، وأعرف عن ظهر فقر أن هناك حول أم هند من هم أفقر بكثير من أم هند ويعتبرونها هي وأمثالها من أهل الحظوة فهم على الأقل يأخذون من حياة العز لحسة، تماما كما تتعامل أم هند معي بوصفي من علية القوم لأنها رأتني في التلفزيون أكثر من مرة وهو ماأغراها أن تقول لي "ماتكلم لنا والنبي جمال باشا مبارك يخلص لنا موضوع المعاش الله يبارك لك.. قول له والله بادعي له ربنا ينوله اللي في باله"، لم أسألها عن الذي في بال جمال فأنا أعلمه، لكنني حاولت أن أقول لها ببساطة أنني لاأعرفه شخصيا، توقفت عن الكنس واعتدلت ناظرة إليّ بعينين هجرهما الحول الإختياري لتقول لي "عيب كده ياكسلانس.. ده أنا شايفاك في التلفزيون في

لوتانا سينما وإنت مع هالة سرحان وتامر حسني".. حاولت أن أشرح لها أن طبيعة البرنامج الفنية لم تتح لي أن أتثبت من صلات الإثنين بجمال مبارك، لكنها لم تستجب لشرحي وقالت لي بحدة "عيب الكلام ده ياأستاذ ماكلكو منفدين على بعض". ثم عادت لحولها وكنسها وتركتني غاضبة وهي تتمتم بما فهمت من طراطيشه أنه دعاء حار على الكفرة وأولاد الحرام الذين لم تحدد في الدعاء ماإذا كانت تراني منهم صراحة، وأنا بدوري لم أشأ التصعيد بسؤالها عما إذا كانت تعدني منهم لاسمح الله.

منذ تلك اللحظة وثمة شرخ في العلاقة بيني وبين أم هند، شرخ لم يزل بمحاولة التودد إليها بأكثر من وسيلة أو علاوة فقد حرصت من جهتها على تعميق "الإسبيس" القائم بيننا والذي يكون مستفزا أحيانا عندما يصبح تمتمة شبه مسموعة بالدعاء والشتائم المبطنة فضلا عن حكي قصص بصوت عال لزوجتي عن الزمن اللي بيغير الناس وبيظهر قلالات الأصل على حقيقتهم، وهو ماحاولت أن أحرص دائما على تجاهله باعتبار أن أي رد عليه سينزل بي إلى مستوى أم هند وسيخلع عني استحقاقي للقب الإكسلانس الذي أصبحت زوجتي نفسها تناديني به.

لكن كل ماجرى لم يمنع أبدا عني شغفي بمعرفة موقف أم هند السياسي إزاء كل المنعطفات التاريخية الكبرى التي تمر بها الوطن والتي يتصادف أن أم هند تنعطف علينا بالصدفة الحسنة إبان حدوث هذه المنعطفات. للأسف كنا أنا وأم هند في أوج خلافنا صبيحة خطاب الرئيس مبارك في مدرسة المساعي

المشكورة في مسقط رأسه بالمنوفية حيث أعلن من هناك عن رغبته في ترشيح نفسه رئيسا للبلاد لفترة رئاسية خامسة أو سادسة، والله ماعدت فاكر، يومها قلت لها "ماتيجي تتفرجي ياأم هند.. ده خطاب تاريخي بلاش يفوتك"، فقالت بشمم تعرفه من رفعة مناخيرها إلي السماء "أنا مش فاضية للكلام ده.. ده للناس الرايقة اللي ماوراهاش حاجة"، جرحني التعليق لكنني قررت أن أسعى لمصالحتها حثيثا قبل أن ينتهي موسم الإنتخابات الرئاسية الذي خشيت أن ينقضي وأنا محروم من العيش بدون آرائها السياسية التي لايجود الزمان بمثلها، توجهت إلى المطبخ مباشرة وأعطيتها خمسين جنيها مرة واحدة على أساس أنها علاوة قائلا لتوضيح دهشتها " معلهش بقى اعتبريني بديل عن مبارك الشهر ده وياديكي المعاش بتاعه". فقالت لي وهي تأخذ الفلوس ونبض عروقها كبرياء "بس هو أجدع منك هيديهم لي كل شهر". تجاهلت التعليق وقررت أن أصبر عليها حتى يمر موسم احتياجي لتحليلاتها وبعد كده تبقى تقابلني لو شافت هي ولا غيرها معاش مبارك أو علاوتي.

نيتي لم تكن صافية ولذلك يوم أن ألقى الرئيس مبارك خطاب حملته الإنتخابية من داخل الأزهر بارك كان الوقت مساء فلم تكن أم هند موجودة في بيتنا، وحرمت من سماع تحليلاتها. على العكس تماما يوم أن قام الرئيس مبارك بزيارته المفاجئة لخص أحد المواطنين في المنيا وشرب معه الشاي قبل أن يتضح أن المواطن مخبر مربوط على الدرجة الرابعة، كانت أم هند يومها

في بيتنا أثناء بث الزيارة مباشرة على الهواء، وكانت راضية عني ومنجلية على الآخر لكن ماقالته يومها لايصلح للنشر بتاتا.

هاهي أم هند اليوم في بيتنا بينما مصر تشهد أزهى أعراسها - بالسين طبعا - وتحتفل بأول إنتخابات رئاسية حرة في تاريخها الحديث، وتعيش قلق إمكانية خسارتها لرئيسها المبارك الذي حكمها منذ نعومة أظافرها. فور أن دخلت أم هند إلى البيت بادرتها بسؤالي: "إيه.. اتأخرتي ليه ياأم هند.. كنتي بتصوتي"، نظرت إلي مرتبكة وقالت لي " بسم الله الرحمن الرحيم.. عرفت إزاي يااكسلانس"، قلت لها دون أن أفهم ارتباكها " مش عايزه فكاكه يعني.. كل الناس المفروض تصوت النهارده"، فهدأت قليلا ثم قالت "آه والله ده الحارة كلها هرت نفسها صويط النهارده أصل البت انشراح دي كانت نوارة الحارة، ماحدش مصدق إنها ولعت في نفسها كده وعشان جوزها الواطي، قال إيه بيعرف واحدة عليها، طب ده حافي ماتسيبه يولع معاها ليه تموتي روحك عشان نجس زي ده".

غرقت في كريزة ضحك بينما هي تنظر إلى مستغربة، قالت لي وقد عاودها الإندهاش "إنت بتضحك ليه ياكسلانس هو إنت كنت تعرف انشراح"، قلت لها بحميمية "ياأم هند انشراح أخت عزيزة علينا كلنا وخسارتها كبيرة قوي بس أنا باتكلم عن التصويت في الإنتخابات الرئاسية". ظننت أنها لم تسمع عنها شيئا ربما لأن أم هند مركزة في البيزنس الذي أخذها من السياسة في الفترة الماضية. لكنها خيبت ظني وقالت لي بمرارة وهي

تمصمص شفاهها متجهة إلى المطبخ "إنتخابات إيه بس ياإكسلانس.. دول بيضحكوا على الناس.. كل واحد بيدور على مصلحته.. ولاد (...) دايرين على الناس في كل حتة اللي يقولك هاديكو شقة وعربية واللي يقولك هاديكو فلوس في ايديكو.. ده أنا دايخة بقى لي سنتين على المعاش بتاع مبارك من ساعة ماالراجل مات وكلهم خمسين جنيه لاراحو ولاجم ومش عارفه آخدهم.. هيديهم لي يعني دلوقتي". قلت لها وأنا أنكشها "بس هو الريس مش غلطان ياأم هند.. انتي اللي غلطانة.. يعني لو كان عندك خص كان الريس جالك فيه.. إنما إنتي ساكنة في شقة محندقة في امبابة إنتي نفسك مابتعرفيش تروحي لها". قالت بإستعلاء "وأنا ايه اللي يوديني أنا وبنتي وبناتها نقعد في خص وإحنا ولايا.. ليه هو إحنا شحاتين"، مرة أخرى تظهر أمارات الإستعلاء الطبقي التي تستفزني لدى أم هند فقلت لها "لا العفو ياأم هند هو إنتو وش ذلك.. بس لعلمك إنتو لو قعدتو في خص هتقابلوا الريس.. عارفه يعني إيه هتقابلي الريس يعني هتطلعي في نشرة ستة ونشرة تسعة ويمكن كمان في أحداث اربعة وعشرين ساعة ومش بعيد تطلعي في ملف خاص وحالة حوار" قالت لي وهي تشوح بيديها "ياسيدي يعني هيطلعوني أحج"، استغربت وقلت لها "هو إنتي عايزه معاش ولا عايزه تحجي.. ماتحددي طلباتك بالضبط"، قالت وهي تسحب تنهيدة عميقة "لأ.. نفسي أطلع أحج عشان أدعي ربنا ياخدني وأستريح من غلبي". قلت لها "طب ماتدعي ربنا ياخدك وانتي في مصر من غير ماتشحططي روحك.. على الأقل لما ربنا ياخدك

تبقي وسطينا"، قالت لي مخرجة حزنها الدفين الذي لايظهر بسهولة "ماأنا من يوم ماوعيت على الدنيا وأنا بادعي وربنا ياخدني مافيش فايدة".. ثم صمتت قليلا وعادت إلى عدوانيتها قائلة "هو يعني ربنا هيستجيب لي إزاي وسط النجاسة اللي إحنا فيها دي". قلت لها "الله يكرم أصلك ياأم هند".. بادرت مستدركة "والنبي ماتزعل ياإكسلانس ده انت مافيش زيك.. أنا قصدي النسوان العريانة اللي في التلفزيون والبانجو اللي العيال بتشربه في الشوارع والخمرة اللي بتتباع في الفنادق".. قلت لها "وإنتي مالك إنتي ومال الفنادق ياأم هند".. قالت لي "إزاي مش دي في بلدنا ويوم ماربنا يخفس بينا الأرض هياخدنا كلنا".

ياجلال الله.. هاأنا أكتشف أن أم هند تمتلك رؤية سياسية خاصة بها أعمق مما كنت أتصور، علامات الإهتمام التي ظهرت على وجهي جعلتها تواصل بإخلاص تحذيري مما أنا غافل عنه قائلة "انت فاكر إن ربنا هيسيبنا كده.. ده إحنا رايحين كلنا في داهية قريب قوي"، قلت لها "إحنا قصدك يعني أنا وإنتي والمدام واللي زينا ولا اللي مرشحين نفسهم في الإنتخابات"، فقالت لي بود ظاهر "لا إنتو ناس أمرا أنا قصدي على الظلمة اللي ياكلوا مال النبي إن شاء الله ربنا هياخدهم كلهم وهيجيب لهم عاسيفة تاخدهم". والعاسيفة التي تتحدث عنها أم هند لمن لايعلم مفردات قاموس أم هند اللغوي تعني في لغتنا الجميلة العاصفة أو الإعصار، وهي كانت تتحدث تحديدا عن الإعصار الذي اجتاح أيامها بعض الولايات الأمريكية والذي كانت النشرة تعرض وقتها

مشاهد لآثاره المدمرة. قلت لأم هند محاولا أن أعيدها إلى جادة الصواب " لكن العاسيفة دي يأم هند يوم ماتيجي هتاخدنا كلنا معاها وإنتي أولنا، ده إنتي أساسا قصيرة مش هتاخدي غلوة في العاسيفة". قالت لي بثقة شديدة "ماهو ربنا هيرحم اللي زينا ومش هيموتوا في العاسيفة هنبقى ضحايا بس وساعتها هيدونا مساعدات ويمكن نطلع بأي مصلحة.. شوية دوا حبة أكل حبة بطاطين". ثم تنهدت بعمق وواصلت قولها " إنت عارف ده بيقولوا اللي اتحرقوا في المسرح بتاع بني سويف ياعيني الله يرحمهم إدوا كل واحد فيهم عشرين ألف جنيه .. عشان إحنا في موسم انتخابات.. إنما اللي اتحرقوا في قطر الصعيد ادوهم خمستلاف بس عشان ماكانش في انتخابات.. ماتعرفليش حتة أتحرق فيها اليومين دول والنبي عشان أنفع الولاد".

اعتصر كلامها قلبي فقلت لها "أعوذ بالله إنتي بتتكلمي جد يأم هند.. هو في حاجة تعوض الإنسان عن حياته أو تعوض ولاده عنه"، قالت لي بمرارة "الكلام ده للناس اللي زيك بالإكسلانس.. طب ماعندك انشراح أهي اتحرقت ببلاش وكل يوم في كتير زيها بيتحرقوا وهم عايشين.. طب انت إتسيل بهند بنتي كده وقولها إنك هنديها خمستلاف جنيه.. خليهم عشرة.. وهي هتولع لك فيا وفي روحها، إحنا مش عايشين بالإكسلانس.. إحنا مدفونين بالحيا".

حاولت الخروج من كآبة حديثها مسرعا فقلت لها "بس أنا عايزك تطمني خالص.. أهوه الريس مبارك بينجح أهوه في

الإنتخابات.. شايفاه بينجح أهوه قدامك وساعتها هيوفي بوعوده وهيدي الناس كلها فلوس ومش هيخلي حد إلا لما يديله اللي في نفسه"، نظرت نحوي بتشكك، وربما لأن علامات الجدية لم تكن قد فارقتني ولذلك صدقتني فقالت مباغتة لي بموقفها البراجماتي " والله الراجل ده أصيل وقلبي انفتح له من ساعة مامسك البلد ده حتى بيفكرني بالمرحوم جوزي.. كان عشري كده ولسانه حلو وإبن بلد"، قلت لها "يعني هتخلصي الشغل وتروحي تنتخبيه يأم هند"، فصمتت برهة ثم قالت لي بدهاء "أنتخبه المرة الجاية.. لما أشوف هيديني الخمسين جنيه ولا إيه في سنتنا اللي مش فايته دي"، قلت لها "ماهو احتمال مايبقاش في مرة جاية واحتمال مايبقاش في خمسين جنيه".

كان ماقلته اختبارا لموقف أم هند المباركي الذي لم يتماسك أمام ماقلته فغرقت في حيرة بانت جلية في تخبطها في أرجاء الشقة، قبل أن تعود لتقول لي بصوت يملؤه العشم "باقولك ايه باكسلانس.. إنت شايفني أهوه نضافة وأمانة ودين.. مش هاشكر في نفسي يعني"، لأول وهلة ظننت أن أم هند تريد أن ترشح نفسها في الإنتخابات القادمة فهي تتحدث عن نفسها كأنها مرشح عابر للمستقبل، لكنها كالعادة خيبت ظني وقالت لي "ماتشوفليش مكان أشتغل فيه تاني غير عندك، أصل انت بصراحة بغزالة، وكل شوية تأجل مجيتي لعندكو وتقولي بلاش النهارده أصلي باكتب، طب ماتكتب وأنا باشتغل هو أنا يعني هاغش اللي بتكتبه"، قلت لها "لأ يأم هند ماتفهمنيش غلط أصل الكتابة دي مود

ومأحبش حد يطلعني منه"، قالت لي "ماحنا طالع عين اللي خلقونا في العيشة أهوه وعايشين، فبيا إيه لما تطلع منه شوية عشان إحنا نعرف نعيش.. ماتشوف لي حد أشتغل عنده مايبقاش عنده اللي بتقول عليه ده، الموض".

كانت قناة الجزيرة تذيع تنويهات عن لقائها الخاص مع الأستاذ هيكل مساء اليوم فقلت لأم هند مداعبا "طيب هاشوف لك الأستاذ هيكل لو محتاج حد يشتغل عنده"، قالت لي "أقولك عيالي تعبانين تقولي هيكل هي ناقصة عضم.. نفسنا في الزفر شوية"، قلت لها "ياعبيطة وهو إنتي تطولي تشتغلي عنده.. ده اللي بيشتغلوا عنده بيلبسوا بابيونات وفساتين سهرة"، قالت لي "ياسيدي ألبس بالونات بس يشغلني ويديني فلوس كتيرة"، قلت لها "والله بمنظرك ده صعب يشغلك عنده غير في البيت الصيفي في برقاش"، قالت لي بإباء "لأ أنا مابابانش عند حد"، فقلت لها "لا إنتي بتقفليها على روحك.. ماتزعليش مني يعني شحات ومشارط". نظرت لي بقرف وقالت لي " طبعا ياالكسلانس ليك حق تذلنا بالقرشين اللي بتديهم لنا.. ربنا يتوب علينا من خدمة البيوت". ابتعدت عني بعودها القصير وهي تتمتم بما أنا متأكد أنه دعوات حارة صريحة على بأن يشملني الله ضمن الذين ستأخذهم "عاسيفة" أم هند. اللهم لاتستجب.

وهكذا سقطت أم هند!

سألني عامل الكاشير في محل لعب الأطفال: "هي أم هند حقيقية"؟، فاجأني السؤال ففكرت في الإجابة للحظات، ثم قلت له: مش عارف إستنى لما أسألها وأرد عليك. امتعض الشاب الجميل المكافح الذي يقرأ ماأكتبه في صحيفة الدستور "شركة" مع زملائه في المحل، ظن أنني أسخر منه، عز علي زعله فحاولت أن اشرح له "هي أم هند موجودة فعلا لكن حقيقية دي فيها كلام فأنا أميل إلى أنها شخصية أسطورية"، توقفت عن الشرح عندما بدأ إمتعاضه من كلامي يتحول إلى إحتقار.

بعدها بكم يوم سألت أم هند "ألا ياأم هند هو إنتي حقيقية؟"، نظرت لي بعينها السليمة نظرة ذات مغزى مريض وقالت لي "اللي تشوفه ياسعادة البيه"، عندما تكون أم هند غاضبة مني تناديني بهذا اللقب الكريه، أما عندما تكون راضية عني تناديني ياإكسلانس أو ياأستاذ، ولأنني لست قد غضب أم هند التي يمكن ببساطة أن تتف في حلة البامية أو تضع إفرازا أنفيا وسط المكرونة القواقع أو تكوم التراب تحت الكنب أو توقع أثمن قطعة غسيل عند الجار الذي أكرهه أو ماإلى ذلك من وسائل الإنتقام التي لاقبل لي بدرئها حتى لو كنت أمتلك قمرا صناعيا يراقبها في

قلب الشقة. لذلك بادرت فورا لمصالحة أم هند قائلا لها "أصل أنا لما بافكر في قصة كفاحك باحس إن إنتي عاملة زي ماتكوني حكاية بطولية لازم يتعمل عنها مسلسل أو سيرة شعبية زي الأميرة زينا وناعسة وعلية العيوطي"، أضاء وجهها الأسمر بابتسامة وخفت مؤقتا من حولها وقالت لي "طب البركة فيك ماتشد حيلك وتكتب كصة حياتي مسلسلة بس فلوسها تبقى أبو قسم"، قلت لها "من عينيا ياأم هند وهاخلي عبلة كامل تعمله كمان"، قالت لي بألاطة وكأنها تقف في مكتب رئيس شركة صوت القاهرة تتفق على عقد المسلسل "هي عبلة حبيبتي بس ياريت تخلي يسرا هي اللي تعمله عشان بعرضوه في الكناة الأولى"، حبك الإفيه قلت لها " تفتكري يسرا توافق تعمل عملية تجميل عشان تقرب منك في الشكل"، فنظرت إلي شزرا من جديد، وبعد أن سمعت سيل اعتذاراتي قالت لي "إنت ماشفتنيش قبل ماأخلف هند.. كنت فرسة.. هو أبو هند مات من شوية"، لو كنت أستمع إلى أم هند في التليفون لصدقتها لكن المشكلة أنني كنت أشاهدها وهي تقول هذا الكلام وهو ماجعلني لامحالة أدرك أنها تقصد أنها كانت فرس النبي قبل أن تنجب هند؛ لاأعيب على خلقة الله لكن محمد هنيدي يعتبر عملاقا مقارنة بأم هند، هذا من حيث البنية الجسدية أما من حيث الجمال فالفنانة عائشة الكيلاني تعتبر جريتا جاربو لو قارنتها بأم هند، لكن أم هند ربك والحق تمتلك كعائشة الكيلاني وجريتا جاربو أيضا إبتسامة تملأ وجهها بنور رباني ليس له حل.

إذن ياسادة هكذا فشلت محاولة الإجابة على السؤال العلمي

الذي طرحه صديقنا الكاشيرجي "هل أم هند حقيقية". لكنني لم أعرف أنني سأجد إجابة هذا السؤال بعد أسابيع من محاولة طرحه على أم هند. وياليتني ماعرفت.

آآآه. أم هند حقيقية أيها الناس. ليست أسطورة كما ظننتها. فالأسطورة لاتصاب بالشلل. الأسطورة لاتطق من جنابها وتقع من طولها بعد أن تعبت من شيل الهم وحمل الأحزان وخدمة البيوت، الأسطورة لاتفقد القدرة على تحريك جنبها الأيمن. أم هند حقيقية، ترقد في مستشفى الهرم طريحة الفراش، في عينيها بكاء محبوس تحاول أن ترسم ابتسامة تعلن فيها أنها كانت يوما ما فرسة، كانت يوما ما سيدة تحلم بأن تتستت وتتدلع على زوجها وتشخط في ولادها وتفرح بهداياهم في عيد الأم ويتقطم وسطها من شغل البيت، بيتها هي، لاالخمسة بيوت التي تعمل فيها لكي تصرف على أولادها اليتامى وبناتها وأزواجهن العاطلين. "ليه ياأم هند.. حصل ده من إيه"، ترفع إصبعها السبابة إلى السماء وهي تبتسم إبتسامة رضاء أستغفر الله العظيم ياأم هند، رضينا بقضاء الله، تقول لي إبنتها "حملها تقيل ياأستاذ"، أعرف، رأيت رجالا بشنبات وطول وعرض لايحتملون ربع ماإحتملته، خروا وسقطوا وتدهولوا ومشوا في الشوارع مهلهلين بسبب أزمة عاطفية أو معاش مبكر أو خذلان عائلي أو فقدان ثقة في الحياة، أعرف الحمل التقيل ياهند، لكنني ظننت أمك تعايشت معه، وعرفت كيف تعض عليه بالنواجذ كأي ست مصرية جدعة تسير في ذات مدينة أو ذات قرية حاملة على رأسها مايفوق وزنها بمعلمة لأنها تعرف

كـيف تحمـل حملها ومن أين تحمله حتى لو لم تكن تعرف متى ستضعه.

يـدخل الدكتور إلى العنبر الذي ترقد فيه أم هند ليقول كلاما يغم النفس عن حالة أم هند وماتتطلبه، تقول له هند أنهم ماقدروش يلمـوا فلـوس "الرنيم المغناطيسي والسونار"، هكذا تقولها فأفهم الرسـالة، أقول لأم هند "ماتحمليش هم"، لكن نظرتها إلى أحفادها المتحلقين حولها بذهول حملت لي الرد البليغ. إزاي ماأحملش هم.

سـقطت أم هند في نفس اليوم الذي غرقت فيه العبارة السلام ٩٨ فـي عـرض البحـر الأحمر الذي لايكف عن إبتلاع فقراء المصريين، كما سقطت أم هند سقطت العبارة حاملة معها آباء هند وأمهـات هـند كثيرين ليستقروا في قاع البحر وبطون الأسماك الـضارية، حاملين معهم أحلامهم بهداوة السر وراحة البال وشقة محـندقة ولمة العيال وعدم الحوجة للناس، كان يمكن أن تكون أم هـند معهم فقد سافرت على عبارة كهذه في العام الماضي وذهبت إلـى العمرة بعد أن ظلت تحوش ثمنها لمدة عشر سنوات، يومها دخلـت إلـى مقـام حضرة النبي واستقتلت حتى تضع يدها على شـباكه كما قالت، دون أن أعرف هل كان هذا ماحدث لها أم أنها كانت تروي حلمها الذي لم يتحقق، "قلت له يارسول الله إنت داري بحالـنا.. إحـنا متمرمطين ياسيدنا النبي.. والنبي خلي ولاد بنتي يلاقوا شغل عشان أنا تعبت.. ونفسي أرتاح.. وحياة غلاوتك ياأبو سـتنا فاطمة أنا مابافوت ركعة.. بادعي دايما إن ربنا يريح سري ويـتوب علـيا مـن خدمة البيوت بس ربنا لسه مش كاتبها لي..

والنبي يارب إكتبها لي"، وأنا أنظر إليها وهي راقدة على سريرها تذكرت حكايتها فمنعت نفسي من البكاء بصعوبة، "مكتوبه لك ياأم هند أهي الراحة من خدمة البيوت بس غصبا عنك"، تقول هند أنها مـستعدة لكـي تسد مكان أمها، تحرك أم هند يدها بعصبية كأنها تـرفض أن تنـزلق إبنـتها إلى المصير الأسود الذي عاشت فيه عمرها كله.

أنظر إلى صورة الرئيس المعلقة على أحد جدران المستشفى، أتذكـر الـيوم الـذي اندفعت فيه أم هند خارجة من المطبخ وهو يخطـب فـي إحتفال عيد العمال وأخذت تصرخ في وجهه وهي تـشوح بـسكين المطـبخ الـصغيرة وهي لاتكاد تطول ارتفاع التلفـزيون "حرام عليك.. حرام عليك"، وأخذت تحكي له معاناتها مـن أجل الحصول على معاشه الموعود الذي لم يأت حتى تاريخ سقوطها مشلولة عاجزة عن تحريك جنبها الأيمن الذي أثقله المسح والكـنس والتـسييق والتنفيض والغسيل والنشر والعصر والمرش والتلمـيع والتطويق، كان سيادته يوم دخول أم هند إلى المستشفى مشغولا بزيارة أبنائه أبطال المنتخب القومي أشاوس مصر وأسود أفـريقيا الـذين تقـول الـصحافة أنهم أدخلوا الفرحة على قلوب الملايـين، الملايـين الـذين لم يكن من بينهم بالتأكيد أم هند ولا أسـرتها ولا الآلاف أمـثالها مـن نزلاء المستشفيات ولا الآلاف أمـثالها من أهالي ضحايا العبارات الغارقة وأهالي ضحايا الطرق المميـتة والقطـارات المحروقة وضحايا الفقر المستديم وضحايا الفكر الجديد، هؤلاء لايسعدهم استقتال أحمد حسن في الملعب ولا

يوسفهم تطاول ميدو على حسن شحاتة، هؤلاء في دنيا غير الدنيا، هؤلاء لا "بواكي" تصرف لهم ولا بواكي تذرفن الدمع عليهم، هؤلاء عندما يمرضون أو يحرقون أو يغرقون أو يروحون في ستين داهية لايعلن أحد عليهم الحداد الوطني، ولايستحقون أن تتوقف الأغاني الراقصة من أجلهم، لاتصمت الجماهير حزنا عليهم، ولايضع اللاعبون شارات حداد عليهم، لانتذكرهم جميعا، نكتفي بأن نقول لهم الله. ونعم بالله.

يخرجني صوت همهمة أم هند من أفكاري الحزينة، لازالت ترفع سبابة يدها اليسرى إلى السماء، أنظر إلى السيدات الطاهرات الطيبات الحزينات المباركات الراقدات على السراير المجاورة، أتذكر ذلك اليوم الذي رقدت فيه أمي في سرير كئيب في عنبر مقبض من عنابر معهد الأورام، لم أكن أمتلك ثمن علاجها، ولولا الواسطة لما قدرت على إدخالها إلى هذا العنبر، (جميل سأظل مدينا به للفنان صلاح السعدني ماحييت)، أتذكر أمي يومها وهي ترقد على سريرها واهنة طاهرة منكسرة ترفع سبابتها إلى السماء تماما كأم هند، فمها يلهج بذكر الله، كلما دخل ممرض إلى العنبر أخذت تتأكد من أن شعرها مغطى، تنظر إلي وتبتسم، أهرب إلى البلكونة الكئيبة المطلة على شارع القصر العيني، وأبكي متحاشيا النظر إلى السماء، لأنني لم أكن يومها مؤمنا بالله حق إيمانه، لم أكن صابرا على قضائه، أدخل إلى العنبر ثانية خوفا من أن تكون بحاجة إلي، تطلب مني أن أدنو إليها، تشير إلى الأسرة المجاورة لها وتقول لي "إحمد ربنا.. أنا فين والناس دي

كلها فين.. أنا في نعمة يابني"، أنظر حيث تشير فأعرف ماذا تقصد، أحمد الله وأسأله لها الشفاء.

لاأدري كيف قرأت أم هند ماجال بخاطري وأنا أنظر إلى رفيقاتها في العنبر، باست يدها اليسرى وجها وظهرا ثم رفعتها إلى السماء شاكرة حامدة راضية. ياااارب. يااارب. عبادك الغلابة يارب تعبانين، إرحمهم يارب، خفف عنهم، هؤلاء الناس لاظهر لهم ياالله، كرمتهم وخلقتهم في أحسن صورة، لكن الأراذل من عبادك داسوا عليهم، دهسوهم، امتهنوهم، سرقوهم، انتهكوهم، حكمتك يارب، لك حكمة في تأخير الفرج وإمهال الظالم دون إهماله، يارب إسق العطاش تكرما، فالعقل طاش من الظمأ، يارب عبادك الغلابة مطروحون على أسرة المستشفيات إن وجدوها وربما لايجدون فيها العناية ولايصادفون فيها الشفاء، عبادك جثثهم ملقاة على وش المالح لأيام لايجدون من ينتشلهم، عبادك كواهم الغلاء والعيا والشقاء والقهر، عبادك مرميون في المعتقلات لاتعرف أمهاتهم لهم طريق جرة، عبادك مواطنون درجة ثانية في بلادهم، لاحق لهم في التغيير أو الإعتراض أو البكاء أو الشكوى، ربما لهذا لاتستجيب دعائهم لأنهم لم يغيروا مابأنفسهم، لكنك أرحم بهم من أنفسهم، هب لهم نسمة من نسمات رضاك، فرج عنهم ماهم فيه، يارب أم هند من يبكي على حالها ومن يجري على أحفادها ومن يصادر حق أزواج بناتها في العمل، من يجعل أحفادها يعتادون طعم اللحمة والجبنة واللبن والفراخ والسمك، من يكفل لهم حق التعليم والعلاج والأمن والعيش الكريم، يارب إرحم هذه

السيدة التي انحنى ظهرها من أجل أن تكفل لمن تعولهم عيشا على الكفاف، يارب أنصر عبادك المكروبين في مستشفيات الحكومة وأخرجهم منها على خير. ياااااارب.

تعذبني إبتسامة أم هند التي تغتصبها من بين آلامها، أتذكر حكاياتها التي تروي فخرها بأنها فقدت كل شيئ حتى جمالها وقوامها، لكنها لم تفقد كرامتها، كيف أنها عملت عند مذيعة تلفزيونية بمرتب مغري، لكنها تركتها لأن زوج المذيعة اتهمها في يوم عيد بأنها فتحت علبة الشيكولاتة وأخذت منه شكولاتاية، "وهي يعني الشكولاتاية دي كانت هتعمل لي إيه.. هتشبعني ولاهتشبع عيال بناتي.. ربنا يحرقهم بجاز وسخ.. هيذلوني بفلوسهم.. من يومها وهي كلما تطلع في التلفزيون اتف على وشها.. العيال يقولوا لي حاسبي هتحرقي التلفزيون الحيلة".

أتذكر يقينها بأن الله سيرسل "عاسيفة" ستأخذ دون شك "الكفار والفسقة ونزلاء الأوتيلات الذين يشربون الخمرة في القناني والممثلات اللي بيعروا لحمهم والشباب اللي مابيصلوش والموظفين اللي مغلبينها في التأمينات"، ولعلها الآن تضم إلى قائمتها الخاصة لضحايا "العاسيفة" دكاترة المستشفى وبتوع الرنيم والسومار والممرضات، وياليتها تضم كل من تولى أمر هذه الأمة فأفسد ولم يصلح. تذكرت سيدنا عمر بن الخطاب الذي كان يخشى أن يسأله الله عن بغلة عثرت في العراق، وقارنته بالبغال الذين لايخشون أن يسألهم الله عن ملايين البشر الذين ساسوهم فزادوهم رهقا، رفعت سبابتي إلى السماء فشاركتني أم هند وهي تهمهم بما

أظنه حمدا لله، أخذت أدعو الله على الظالم والمفتري وأنا أصنع قائمتي الخاصة لضحايا "العاسيفة" المرجوة.

إدعوا لأم هند الحقيقية بالشفاء رحمة بأحفادها وبناتها وأزواجهن العاطلين وبمنزلي الذي يفتقد بشدة فشلها في تنظيفه.

ياأهل الله ياللي فوق!

بصفتي "مشجع درجة ثالثة قديم" استفزني وأحزنني كثيرا مانشر في جميع الصحف والمجلات التي غطت بطولة كأس الأمم الأفريقية ٢٠٠٦ التي أقيمت بالقاهرة، والتي أجمعت الصحف والمجلات قاطبة على أنها شهدت ارتفاعا وتحسنا في مستوى مشجعي المنتخب المصري، حيث غزت البنات الجميلات الراقيات مدرجات إستاد القاهرة بدلا من المشجعين الإعتياديين الذين اعتبرت الصحافة أن المدرجات استراحت من شكلهم الوحش وريحتهم الوحشة وأخلاقهم الوحشة وكلامهم اللي مش حلو، لدرجة أن صحيفة محترمة كالمصري اليوم نشرت صورة لشباب قمرات وبنات مزات يظهر عليهم وعليهن آثار العز وأكل الوز، ثم وضعت على الصورة عنوانا موحيا "هي دي مصر"، وهو عنوان تكرر معناه في كتابات وتعليقات الكثيرين الذين قالوها بملء الفم "أيوه هو ده الجمهور المصري الحقيقي".

بالطبع كنت أتمنى أن يكون هذا الجمهور هو الجمهور المصري الحقيقي وتكون هي دي مصر فعلا، فهذا مانصبو إليه جميعا، حد يكره النضافة والوجاهة، لكن الحقيقة المرة التي لانحتاج لكي تدركها سوى أن تسير في تسعين في المائة من

شـــوارع مصر، هي أن مصر ليست كذلك وأبناؤها ليسوا كذلك، فقـد جعلهـم الفساد والظلم شعثا غبرا عليهم وعثاء السفر والفقر والقهر ولايعرفهم منا أحد.

فـي الحقـيقة لـم أكن أعرف أن رؤية هؤلاء الفقراء في مـدرجات الإستاد أمر قاس على النفس إلى هذا الحد بحيث يحدث غـيابهم كل هذه الفرحة لدى الكتاب والمذيعين الذين لم يستفز أيا مـنهم أبدا أن يحرم آلاف الغلابة من عشقهم للتشجيع لأن اللجنة المـنظمة للبطولة قررت أن ترفع سعر تذكرة الدرجة الثالثة إلى خمسين جنيها ده إن لقيتها أساسا، وعلى الفقير أن يخبط دماغه في الحـيط ويتفرج في وصلة بيتهم المقرصنة أو على القهوة مع اللي زيـه ومن مستواه، فالمستقبل الآن للناس الشيك المؤدبة المهذبة، والـذي يـريد أن يكـون وسطيهم عليه أن يتعلم الأدب والشياكة والنضافة قبل أن يذهب إلى الإستاد، ليس مهما كيف يحصل على الفلـوس اللازمـة لعمل كل هذا ولا كيف يتمكن بمفرده من عمل إنتعاشـة طبقـية مفاجئة دون أن يسرق أو ينصب أو يخرج على القانون، وإذا لم يتمكن من عمل هذا فعليه أن يرضى بما قسم الله لـه ويـضع حـذاءا في فمه ولايحتج عندما يشاهد صور الناس المـستريحة تمـلأ الإستاد دون أن يفكر أحد في أن يوفر له مكانا وسـطهم، وعليه أن يطنش خالص مايقال ويكتب عن أن الإستاد أصـبح مكانـا محتـرما يليق بالأسر والعائلات والناس النضيفة، فـنحن فـي زمـن تـرفع الحكـومة فـيه شعار "اللي مامعوش مايلزموش"، وإذا كانت الدولة ترفع أيديها شيئا فشيئا عن المواطن

محـدود الـدخل فـي الصحة والتعليم والتأمينات والمعاشات فهل ستفكر في متعته الكروية أساسا.

بالمناسبة ولكي لايفهمني أحد خطئا أنا فرحان للغاية بظاهرة ذهـاب الأسـر والعـائلات إلى الإستاد، فبالتأكيد مشاهدة فتيات جمـيلات يرسـمن أعلام مصر على خدودهن الحمراء أمر يفتح الـنفس، لكـن الذي يسد النفس هو أن نستمر جميعا في التضييق علـى السكان الأصليين لمصر الذين كان حضور الإستاد للتشجيع واحـدا مـن مـنافذ فرحتهم المحدودة، وإذا كان شكلهم لايعجبنا وكلامهـم وهتافاتهم لاتريحنا فهم لم يولدوا جاهلين بأصول اللبس أو بـآداب الكـلام، بل أصبحوا كذلك بسبب سياسات حكام مصر المتعاقبين الذين نهبوا خيرات البلاد وجعلوا العيش فيها متاحا فقط لمن يدفع أكثر.

أعـرف أن ماكـتب أو قـيل عن هذا الموضوع تم من قبل الكثيـرين بحـسن نية، لكنه لسوء الحظ كشف عن ظاهرة مؤسفة أتمنى أن نناقشها جميعا، هي ظاهرة الإستعلاء الموجود لدى أهل الله اللـي فـوق علـى حد تعبير عدوية من أبناء الطبقتين العليا والوسطى تجاه أهل الله اللي تحت من أبناء الطبقة المسحوقة الذين يـشكلون الغالبية العظمى من أبناء مصر، حاول أن تواجه نفسك بصراحة وتتذكر كيف تتعامل معهم على أساس أنهم قدر مفروض تحـاول أن تتحاشـاه طـيلة الوقت، نصفهم بأنهم بيئة أو أخلاقهم زبالـة أو بلـدي أو تـصرفاتهم غريبة، يزعجنا صوتهم العالي وتـصرفاتهم الفطـرية، نـسخر مـن طريقتهم في اللبس والأكل

والصوت الذي يحدثونه أثناء الشرب، ونرفض ذوقهم في الغناء والفن والبناء والعفش، لانفهم لماذا يلجأون للبذاءة كسلاح لفش الغل، ولا لماذا يتخذون من الصوت العالي والتطجين والتريقة عمال على بطال وسائل لإثبات الوجود، لاندرك أن تضييق الخناق عليهم شيئا فشيئا يمكن أن يودي بهذه البلاد والعياذ بالله إلى جحيم لايمكن تصور لهيبه. أعلم أن كل ذلك لم يخطر ببال السيد العبقري الذي رفع أسعار التذاكر إلى هذا الحد الجنوني، تماما كما لايخطر ببال أي منا نحن السكان المنتفعين بمصر سواء من ولد منهم هكذا أو كان مثلي واحدا من السكان الأصليين وعدى ليصبح منتفعا بمصر كغيره، الطيب فينا هو الذي يتعامل معهم بوصفهم مستحقين للصدقة أو الشفقة، لاأحد يتحدث باسمهم ولايبكي عليهم ولايسأل فيهم. هنا يحضرني استشهاد مؤلم ومهم للمكترث الأكبر الأديب الكبير أستاذي علاء الديب – في تذييله لروايته البديعة "أيام وردية" – يكشف عن روح شفافة تكترث بآلام الآخرين،يقول عم علاء "يحصل الواحد منا نحن أبناء الطبقة المتوسطة على أكثر من حقه، أنظر إلى الكادحين العارقين حولك، هل تعرف كم يقبضون في آخر النهار، وكيف ينامون، وكيف تنام أنت، فكر في المزايا المجانية الجسيمة التي تحصل عليها بجهد قليل أو بلا جهد على الإطلاق، شعور ساذج بالذنب مستمر ولكنه يكفي لكي يثير دائما نقاشا نظريا لم يحسم عن دور الطبقة المتوسطة في بلادنا وماذا أخذت وماذا أعطت وعن مصيرها الذي انتهت إليه... وكيف تكون هي الوحيدة التي تملك القدرة

على التواصل والتعبير، لكنها هي نفسها مضطربة متناقضة تعطي اشارات متباينة لاتزيد حياة الناس إلا ارتباكا. على من يبحث عن هوية لمصر أو عن فن لمصر أن يبحث عنه خارج نطاق الطبقة المتوسطة بكل الأشكال التي أخذتها سابقا وحتى الآن".

الآن وهنا، أرجو أن يكون كلام عم علاء ردا مبدئيا على من يظن أنني محبكها، مع إعترافي بأنني أشعر بذنب أكبر لأنني انتقلت من هذه الطبقة بحكم النجاح المهني والمادي الذي تحقق – ويالسخرية الأقدار– بسبب تعبيري عن هذه الطبقة، وربما كان هذا الإحساس كما قلت قبلا هو الذي دفعني لكتابة مشروع السكان الأصليون لمصر لأروي فيه ماشهدته وعشته عن هؤلاء البشر الذين لايكترث بهم أحد، البشر الذين يجمعون بين كل متناقضات الدنيا ويعيشون على أمل مصير أفضل في الآخرة، البشر الذين فرحنا كثيرا لأنهم لم يعودوا يقدرون على الذهاب إلى الإستاد فيجرحوا مشاعرنا ويخدشوا حياءنا، البشر الذين نتناسى أنهم لو لم يصيروا الشغل الشاغل لكل منا فقل على هذه البلد يارحمن يارحيم.

يارحمن يارحيم.

فرختين وشوية مكرونة!

كنت أجلس على مقهى بالكيت كات أرفو جورب الوقت، عندما شدني حديث بعض الجالسين خلفي، فرميت على الفور ودنا لهم بحكم المهنة وياليتني مارميت.

كان أحدهم يحدث أصدقاءه زاعما ظهور حالات كثيرة لأنفلونزا الطيور في منطقة إمبابة يحاول مسئولو مستشفى الحميات أن يتكتموا عليها ويخفوها عن عيون الصحفيين ووسائل الإعلام، على الفور إتهمه صديقه بالمبالغة قائلا له أن الحكومة ليس لها مصلحة في إنكار وجود أنفلونزا الطيور لأنها ليست مسئولة عنه بدليل أنه ظهر في أكثر دول العالم تقدما، أصدر صديق ثالث صوتا غير مستحب ردا على صديقه العقلاني ثم قال له أن حكومتنا – وصفها بلفظ خادش لحياء الحكومة – دونا عن كل حكومات الأرض هي السبب في كل البلاوي التي أصابتنا وتصيبنا، ففي كل بلاد الدنيا يصاب الإنسان بأنفلونزا الطيور لأن ربنا كاتبها له، إلا في مصر يصاب المواطن بأنفلونزا الطيور بسبب الفقر الدكر الذي كتبته عليه الحكومة المباركة، هممت أن أسأله توضيحا لوجهة نظره لكي لايكون ماقاله مجرد نفثات مصدور حاقد، لكنه كفاني مؤونة ذلك فاندفع يحكي – والعهدة

عليه هو ومن أيده في تلك الجلسة - كيف أن عددا من أصحاب مزارع الدواجن في محافظات مختلفة قاموا بإخفاء آلاف من الدجاجات المصابة بالأنفلونزا بعيدا عن أعين جهات الضبط أو بعد أن قام والله أعلم بتحلية أعينها لكي لاترى الرشح ينساب من مناقير الفراخ، ثم تم تهريب هذه الفراخ بين المحافظات بالمخالفة لكل القرارات الوزارية خاصة وقد بات المواطن للمواطن كالبنيان المرصوص يرشي بعضه بعضا، وعندما وصلت الفراخ الداخل عليها دور البرد إلى الأحياء الفقيرة تم بيع الفرخة منها بأسعار تتراوح بين جنيهين وثلاث جنيهات فتخاطفتها أيدي الفقراء الذين لطالما وقفت عليهم الفرخة المعضمة السليمة بعشرة والتاشر جنيه، قال أحد الجالسين حالفا بالله أن الموضوع تحول إلى سبوبة مضمونة الربح طيلة الأسابيع الماضية خاصة أن البعض كان يشتري كمية من الفراخ أم اتنين جنيه الفرخة ويبيعها في أحياء شعبية بسعر ستة جنيه للفرخة، وعلى عينك ياتاجر وسلامات يأجهزة رقابية والعواف ياصحة المواطن محدود الدخل الذي تضعه الدولة نصب أعينها بفتح النون طبعا.

بالطبع كان الغلابة يضحكون على أنفسهم وهم يشترون الفراخ المشبوهة بدعوى أن الحكومة ذات نفسها قالت لهم أن يأكلوا الفراخ هنيئا مريئا طالما تم طهيها أو غليها في درجة حرارة سبعين مئوية، إذن فلنشتري الفراخ ونهريها سوا وندلق الشوربة ونغسل أيدينا قبل الغلي وبعده، وعلى رأي السيد المعارض طلعت السادات نسمي وناكل، خاصة وأن الذي جعلنا

قبل ذلك نأكل الطيور الجارحة والطيور الفاسدة والطيور المهاجرة وحمامة السلام وطيور الظلام وطير الوروار سيعيننا على أكل طيور عندها شوية رشح. لكن المأساة في أن المتاجرين بالفراخ المشبوهة كانوا يبيعونها حية غير متحملين مسئولية ذبحها تاركين ذلك للناس كل على مسئوليته، والله أعلم هل راعى أولئك الذين ذبحوا الإشتراطات الصحية أم لا، هذا إذا كانوا قد راعوا في حياتهم البائسة التي يمشون فيها بالزق أي اشتراطات من أي نوع، لذلك ولذلك كله لم يستبعد جميع الحاضرين على المقهى وأنا معهم بتبعية رمي الودان أن يكون ماذكره صديقهم عن تزايد حالات المرض في عدد من الأحياء الشعبية صحيحا، قد يكون ماأضافه عن محاولة التعتيم على حالات المرض أمرا حقيقيا وقد يكون من بنات أفكاره، لكنك لايمكن أن تعزوه إلى توظيف لخيال خصب أو موقف عدائي من الحكومة الشفافة أو رغبة في الإرجاف في الأرض عمال على بطال، بقدر مايمكن أن تعزوه إلى إيمانهم بأن " اللي اتلسع من الريادة ينفخ في الشفافية".

عن نفسي سأصدق الحكومة إذا أقسمت أنها لن تكتم حالة إصابة بشرية مهما حدث، لأنه لم يعد شيئ يستخبا، لكنني أصدق أيضا أن الناس أكلت فراخا فاسدة، لاشك عندي في ذلك، حكى لي سائق أحد أصدقائي حكاية مريرة أبكتني وأبكت من سمعها من الذين يعرفون فيه الصدق والأمانة وطيبة القلب، كان صاحبنا المواطن المبتلى بالعيش في أزهى عصور الإنجازات قد شاهد وهو عائد إلى بيته في الحي الفقير الذي يسكن فيه عربية نقل تبيع

فراخا بسعر خمسة جنيه للفرخة، تذكر أن أولاده لم يذوقوا الزفر منذ مدة، ليس لموقف من الزفر، بل لأنهم يتكاسلون عن الذهاب إلى مترو أو ألفا ماركت لشراء اللحمة الفريش، في لحظة تجلي قرر أن يشتري فرختين ويخلي العيال تاكل، عاد إلى أم العيال التي كتمت الزغرودة بالعافية خوفا من حسد أم حسين ساكنة الشقة "الملازقة" فقامت في صمت بعمل الفراخ صينية عقبال أمالتك بالبصل والطماطم والفلفل الأخضر وسائر البهارات، تغاضى الجميع عن أي ألوان ظاهرة في الفراخ أثناء ذبحها وتقطيعها مستحرمين السؤال عنها لكي لاتبد لهم فتسوءهم، عملت الأم مكرونة معتبرة وسلطة مية مية، وجلس الجميع ينتظرون طلوع الصينية من ثنيات الفرن، كان ثمة صراع شرس يدور في خاطر الأب وهو يرى أولاده يتندرون ويضحكون بانتظار إلتهام الفراخ، أخذ يتساءل ماالذي يمكن أن يحدث لو أكل أولاده الفراخ وكان بها شيئ ضار، قرر حسم الصراع قبل أن تستوي الفرختان، فانقض عليهما ليرميهما في صفيحة الزبالة، طالبا من أولاده أن يقنعوا بالمكرونة والسلطة، فلازالا مضمونين حتى الآن، بعد بكاء هذا وصخب ذاك وقلم على وش تلك، رضي الجميع بالأمر الواقع، تحلقوا حول الطبلية في المطبخ، ليس لأنهم لايحبون الأكل في أودة السفرة بل لأن الشقة أودتين بمضارهم - فهم لم يتسلموا المنافع مع الشقة - .. أخذ صديقنا يصف وهو يمنع نفسه من البكاء كيف رأى أولاده يأكلون المكرونة والسلطة وأعينهم متعلقة بصفيحة الزبالة حيث تستقر الفرختان اللتين كانتا

حلما لم يكتب له أن يتحقق، فجأة بكت إبنته وقالت له "ربنا هيحاسبنا عشان بنبطر بالنعمة وبنرمي الفراخ في الزبالة وفي ناس مش لاقيينها"، أخذ الجميع بما فيهم زوجته يؤيدونها ويؤكدون حرصهم على أكل الفراخ ليس حبا لها ولكن خوفا من عذاب الله، شعر صديقنا أن الله قد يعذبه ليس لأنه رمى الفراخ في الزبالة بل لأنه كسر بخاطر أولاده، فقرر أن يخرج الفرختين من حيث استقرتا، قامت الأم بإعادة طهييهما حتى اتهرا لحمهما وأصبحتا بلغة المطاعم الراقية " فيري ويل دون" حرصا على قتل الفيروسات الكامنة، خرجت الصينية موهوجة من الفرن إلى الطبلية، تحلق الجميع حولها وقرأوا الفاتحة وآية الكرسي والمعوذتين ودعت الإبنة الكبرى بدعاء حفظته في المدرسة "بسم الله الذي لايضر مع إسمه شيئ في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم"، وأكل الجميع الفرختين فلم يغادرا منهما نسيرة أو زلمكة، وبعد أن حبسوا بالشاي ناموا ليلتها سعداء لأن الله لن يعذبهم على بطرهم بنعمته. وأنا يقيني بالله أنه لن يعذبهم أبدا فرحمته موفورة بالغلابة والمساكين لكن يقيني أن عذابه جد واقع على الذين أكلوا هذه البلاد "ويل دان".

وإنت طيب ياسيدي!

صديقي اللبناني الذي جاء هذا العام ليقضي شهر رمضان في مصر بعد أن سمع كثيرا عن خصوصية شهر رمضان في مصر، غضب مني بشدة لأنه قال لي "كل سنة وانت طيب" فرددت عليه بشكل لاإرادي "ربنا يسهل لك".

حاولت أن أقنعه أنني كنت أمزح لكنه لم يقتنع مدعيا أن وجهي كان جادا وأنا أرد عليه بذلك الرد المهين. اضطررت لأن أشرح له موقفي دون أن أسيئ إلى سمعة مصر في نفس الوقت، وأعتقد أنني لم أوفق في ذلك. فلم يكن من اللائق أن أشرح للرجل ماسيشاهده بنفسه بمجرد نزوله إلى الشارع، علي الأقل ماتجيش مني. أعتقد أنك عزيزي القارئ تفهم موقفي جيدا إن لم تكن قد تعرضت له، بعد أن دخلت جملة (كل سنة وانت طيب) في عداد الجمل سيئة السمعة بفضل الحكومة المباركة التي تحول التسول في عهدها إلى الصناعة القومية الأكثر انتشارا وربحا في مصر، بل الأدهى أنه صار بمباركة الدولة وبتنظيمها وعلى عينها وقلبهازى العسل.

وقبل أن يتقافز أحد من أنصار حزب (مصريتنا وطنيتنا حماها الله) ليتهمني بالإساءة إلى سمعة مصر أو بأني ثري حاقد

أعماه ثراؤه عن التعاطف مع الناس، أتمنى أن لاتتاح له أو لكم الفرصة لكي تذهبوا قبل الإفطار إلى أحد شوارع المهندسين أو الدقي أو المعادي أو مصر الجديدة أو الزمالك فتشاهدوا ذلك الجيش الجرار من عمال النضافة الذين لايتضقعون شيئا سوى جيوب المارة، يقف الواحد منهم مرتديا اليونيفورم المتسخ ممسكا بالمقشة وحاملا في يده كيس نايلون، لايفعل شيئا سوى إلقاء التهنئات الطيبات على الراكبين والمترجلين، يتفرس في ملامح الزبون الذي يستحق أن يلقي عليه تهنئته بشهر رمضان أو بأي عيد من الأعياد الدينية أو الوطنية أو حتى تهنئته في المطلق بدون حاجة لأي مناسبة لعل اليوم يكون بالصدفة عيد ميلاده، أو ربما لأنه مصري يعيش في عهد الرئيس مبارك الذي جعل أيامنا كلها أعيادا. وربما لو كنت حديث عهد بطقس التهنئة هذا لرددتها بأفضل منها ظنا منك أن حالة من السمو الروحي قد عمت أفراد الشعب غنيهم وفقيرهم فأدركوا خطأ ماكانوا عليه من جفاء في السلوك وتقطع في الصلات. وعندها ستجتاز التصفيات الأولى وتدخل مع المهنئ إلى المرحلة الثانية التي تتمثل بوقوفه أمامك أو إلى جوار شباك سيارتك مصدرا جنته وإبتسامته لك مكررا التهنئة ومائلا نحوك ميل من ينتظر ماهو أكثر من رد التهنئة بأحسن منها. عندها إما أن ترق لحاله فتعطيه مما أعطاك الله، وإما أن تدرك أنك كنت أمام طقس مقنع من طقوس التسول فتصعر خدك له معرضا عنه وأنت تعجب كيف يلجأ للتسول من كان مثله غالبا صحيح البدن به قوة تكفي لحرث حقل كامل بمفرده أو أحيانا به

ضعف نابع من سوء التغذية يعاني منه الملايين في مصر لكنه ليس مبررا للتسول وأحيانا به قوة يتصنع لها ضعفا يرسمه على وجهه بجدارة تليق بممثل تلفزيوني عتيد. لكن إعراضك هذا لن يمنعه عن مطاردتك ممعنا في التذلل فيظهر لمن لايعرف حقيقة الأمر أنك من الذين قست قلوبهم فهي كالحجارة، بل وربما حدثتك نفسك لائمة لك كيف تستكثر على من هو أفقر منك يضع جنيهات يقمن صلبه حتى لو كان صلبه قائما أمامك يخزي العين، المهم أن تعطي أو تمنع من غير أن تحدثك نفسك بتغيير المنكر الذي يرتكبه ذلك الشحط وزملاؤه في حق بلادهم وحق أنفسهم، لأنك لو فكرت أن تفعل ذلك ولو حتى بتوجيه نظرة استنكار ساخطة إليه لوجدت نظرة المسكنة قد اختفت من عينيه وحلت مكانها نظرة شر تكشف عن قدرة على الفتك بك لو سيحتك وعملت فيها حامي سمعة مصر، أو فكرت أن تلقي عليه درسا في الأخلاق تتهمه فيه بأنه شذ عن أعراف الشخصية المصرية التي تقبل العصى ولاتقبل مد اليد، وأنه يمكن له أن يبحث عن أي شغلانة شريفة حتى لو كان الوطن من حولها مليئا بالكاسبين بغير ماشرف أو شغل. وكأن فساد حال البلاد مبرر لكي يفقد المواطن المصري آخر مابقي لديه من شرف كان يفتخر بأنه ماحيلتوش غيره.

كان المألوف حتى سنوات قليلة مضت أن يتجمع عمال النضافة حول من يرغب من المحسنين في توزيع حسنة قليلة أو كثيرة، كما كان من المألوف أن يقوم أصحاب الدكاكين والمحلات والبيوت بإعطاء مبلغ رمزي شهري للعمال الذين يقومون

بتنضيف الشارع، ولم يكن على ذلك أي غبار، بل على العكس كان دليلا على قوة التكافل الإجتماعي بين المصريين، لكن مايحدث الآن لاعلاقة له بالتكافل الإجتماعي من قريب أو من بعيد بل له علاقة بتربية جيش جرار من المتسولين الذين يرتدون زيا رسميا، جيش سيدمن الحصول على المال السهل الذي لو منع عنه لكان جاهزا للفتك من أجل الحصول عليه لكي لايعود ثانية لبذل مجهود من أجل الرزق.

الخطير وهو ماعلمته من أحد هؤلاء العمال الذين لاحظت أنه يقف ليتسول بيتما لايمتلك مقشة أساسا، أعطيته عشرة جنيهات مرة واحدة وقبل أن يقول لي كل سنة وانت طيب عشر مرات، قلت له أنني أقوم بعمل فيلم سينمائي بطله عامل نضافة وأريد أن أعرف منه الصعوبات التي تواجهه في عمله لكي أقوم بتخليد مهنته على الشاشة، ضحك وسألني عن صدر أحد الممثلات هل هو طبيعي ولامعمول زي مابيقولوا، فاستغربت سعة مداركه، وقلت له "مش هاجاوبك إلا لما تحكي لي ليه مش شايل مقشة"، عندها أفضى به التباسط لإذاعة سره الخطير وهو أنه لبس عامل نضافة أساسا، بل إنه يقوم بتأجير البدلة من صاحبها الذي يعمل في هيئة نظافة القاهرة مقابل عشرين جنيها في اليوم يأخذها صاحب البدلة دون أن يطمع فيما يناله المؤجر حتى لو جمع آلاف الجنيهات، ولكي يبرهن لي على أن لديه ضميرا قال لي أنه عندما تزيد غلته أحيانا ويبارك الله له في الرزق يقوم بزيادة صاحب البدلة قليلا عشان ربنا يبارك له فيها، وقال لي أن صاحب البدلة

غلبان ومعذور لأن "الحكومة موظفاه بمية جنيه بس ولما هو وزمايله قالوا للحكومة إن مية جنيه شوية قالوا لهم انتو وشطارتكو.. اللي تاخدوه من الناس حلال عليكم" – أقسم بالله أنني أنقل هذا الكلام حرفيا دون تدخل مني – . سألته هل يفعل ذلك الكثير من زملائه فقال لي "بص لما تلاقي حد ماشي لابس البدلة دي – لاحظ أنه يسميها البدلة – وماسك في إيده كيس إعرف إنه زي حالاتي، عشان الكيس بيبقى جواه هدومه اللي بيلبسها أول مايرجع البدلة ويحاسب صاحبها"، حاولت السيطرة على دهشتي خاصة بعد أن فهمت سر الكيس الذي كان يثير دهشتي دائما. أخرجني سؤاله من ذهولي "هه قول ياباشا صدرها طبيعي ولا معمول"، قلت له "لا صدرها ده زي البدلة بتاعتك.. مأجراه".

أخيرا عزيزي القارئ كنت سأقول لك كل سنة وأنت طيب ومبارك، لكنني لاأريد أن ترد عليّ ردا لاإراديا فنخسر بعض.

مما شكّ فيه!

مما شك فيه أن يكون انتشار رائحة البول المشهورة شعبيا بإسم "الصنان" في الكثير من شوارع مدن بلادنا والتي تعد للأسف من أقذر شوارع العالم أمرا مرتبطا بالإنفجار السكاني وأخلاقيات الزحام كما يدعي دائما أهل الحكم ومن لف لفهم من الكتاب والباحثين، بدليل أن الصين أم المنفجرين سكانيا في العالم لايوجد بها مايوجد في بلادنا من مناظر مؤسفة لاتسر الناظرين.

في الأسبوع الماضي قابلت صحفيا صينيا جاء في مهمة صحفية للقاهرة، ولمد حبل الود سألته عن إنطباعه عن القاهرة التي اتضح أنه مقيم فيها منذ عدة أسابيع، لم يكن لدى الرجل مايجبره على النفاق أو المجاملة، قالها بدون مواربة "كان يمكن لبلدكم أن تكون جميلة لكني لاحظت أن عمال النظافة لايريدون تنظيف الشوارع، هل هم في حالة إضراب؟" قلت له " لا هم في حالة إستنطاع"، لم يفهم قصدي وأضاف أنه لاحظ أنهم يطلبون نقودا من المارة بكثرة، قلت له ساخرا وأنا لاأدري كيف أقول له الحقيقة "هؤلاء ليسوا عمال نظافة بل هم متسولون قررت الحكومة أن تقوم بعمل يونيفورم رسمي لهم لكي يتمكن المواطن والسائح من تحديدهم"، قال لي " لكن هناك آخرين يتسولون بدون أن

يرتدوا اليونيفورم"، قلت له " هؤلاء لم يحصلوا على تراخيص بالتسول وهو مايعرضهم لعقوبات قاسية". هز رأسه كأنه معجب بالفكرة ثم قال " لكن لابد أن تبحثوا عن أحد ينظف القاهرة خصوصا أن كثيرا من الشوارع الجانبية التي دخلتها تفوح منها رائحة البول"، لم أعرف كيف أرد، فكرت أن أمضي في سخريتي فأقول له أن تلك عادة مصرية قديمة لزيادة الإرتباط بالأرض، وأن الأبحاث أثبتت أن تبولنا في أرضنا يغني تربتنا بالأملاح فيزيد من تماسكها ويحمينا شر التجريف والإنهيارات الأرضية الشائعة في الصين، لكنني اتخنقت من رائحة الشوارع التي ذكرني بها كلامه فتمنيت له إقامة طيبة في القاهرة ونصحته بأن يركز خلال الفترة الباقية مع الشوارع الرئيسية.

تركت أخانا الصيني ذا الأنف الحساس وخواطر كثيرة تتصارع في ذهني، أهمها أن من السهل بعد محادثة كهذه أن تلقي باللوم على الساكن الأصلي لمصر الذي يجيب لبلده الكلام بإدمانه الطرطرة على أرضها، لكن معرفتك الوثيقة بالسكان الأصليين لمصر لايجب أن توقعك في حكم خاطئ كهذا، فأنت تعلم أن الناس في بلادنا يفعلون ذلك لأنهم لم يجدوا من يحترم آدميتهم وينشئ لهم مراحيض عامة في كل مكان، كما يوجد في كل بلاد الدنيا المتحضرة، فلايمكن أن أتصور أن هناك مواطنا مهما بلغ فقره أو ازدادت وطايته سيقف ليتبول تحت كوبري بينما يمكن أن يكون إلى جواره مرحاض عام نظيف ومتاح له ولغيره مجانا أو بسعر رمزي كما هو الحال في كل بلاد الدنيا المتحضرة.

ببساطة هذا المواطن الذي تلقي على عاتقه مسئولية رائحة شوارعنا الكريهة، لم يفكر أحد من حكام مصر في كيف سيقضي حاجته فانشغلوا بالتسابق لإفتتاح الكباري والأنفاق دون تزويدها بأهم المرافق الصحية، ولذلك فقد قرر أن يحتفل معهم بتلك الكباري والأنفاق على طريقته ليقوم بتحويلها إلى مراحيض عامة تعبق بأحط روائح الصنان.

مما شك فيه يأقوم أن المواطن المصري يوسخ بلاده لأنه يشعر باستبداد حكامها وفسادهم، فثمة بلاد عربية كثيرة تحفل بالإستبداد والفساد، وشوارعها من أنظف مايمكن ولايمكن أن تجد فيها أحدا يتبول في الشارع، سوريا على سبيل المثال أو حتى الصين نفسها، فوطأة الإستبداد في تلك الدول جعلت للدولة سلطانا يخشاه من يريد مخالفة القانون أو تشويهه، العكس تماما ستجده في الدول المتحضرة حيث يشعر المواطن بروح المسئولية عن بلاد هو شريك في صنع تقدمها وهي لاتحرمه من خير ذلك التقدم، أما في بلادنا فقد فكت الحكومة الإرتباط بينها وبين المواطن، ولذلك فهي تتركه يفعل مايريد مقابل أن يطرمخ على فعلها بالبلاد ماتريد، لم تعد معنية بحل مشاكل المواطن لا في الأكل ولا في تصريف الأكل، وصار مطلوبا منه أن يسلك نفسه ويتصرف بمعرفته، المهم أن يحدث ذلك بعيدا عن عينها، محاولة أن تغمض عينها وتتجاهل رائحة الصنان التي تتعالى يوما بعد يوم في أرجاء الوطن.

هنا أتذكر أنني قرأت قصة للكاتب التركي الساخر مظفر

أوزغو في مجموعته طاقم البالندو عنوانها 'من يتبول هنا فهو حمار" كانت تعالج مشكلة تبول المواطنين على الحوائط وكيف حاول صاحب إحدى الحوائط أن يغير ذلك بكتابة عبارة من يتبول هنا فهو حمار فأدى ذلك إلى استفزاز الناس ودفعهم لإغاظته أكثر ليس بإدمان التبول على حائطه بل وبكتابة عبارات مستفزة له وإضافة كلمة لا إلى الجملة التي كتبها لتصبح 'من لايتبول هنا فهو حمار'، قرر الرجل أن يشتكي إلى المحافظة ففوجئ بها تغرمه مائة ليرة لأنه لايحافظ على الصحة العامة وفتح مبولة دون ترخيص، وبعد أن وجد أن الأمر لن يجدي قرر الرجل أن يقف إلى جوار الحائط ويبيع مناديل للراغبين في التبول مقابل أجر، فتمكن من القضاء على المشكلة تماما. ولأنني كنت قد قرأت قبل قصة أوزغو قصة للكاتب الكبير عزيز نيسين عن نفس الموضوع وبمعالجة قريبة جدا، فقد ظننت أنني سأرى في شوارع إستانبول وأحيائها الشعبية وتحت كباريها ماأجده في مصر تماما، لكنني لم أجد ذلك أبدا عند زيارتي لها، لماذا، ليس لأن مظفر أزغو ومن قبله عزيز نيسين كانا يتبليان على بلدهما، بل لأن بلادهما تغيرت وصار بها حرية سياسية إلى حد كبير، وحدثت بها تحولات إقتصادية وإجتماعية جعلت المواطن التركي يشعر أنه شريك في بناء بلده وأيقظ كل ذلك الروح القومية التي لطالما اشتهر بها الأتراك، وبرغم وجود مشاكل إقتصادية كبيرة في البلاد وعدم قضاء الحكومات المتعاقبة على البطالة والتضخم والفساد، إلا أن شيوع مناخ التغيير في البلاد انعكس على سلوك أهلها فعادت

بلادهم لتصبح جنة حقيقية تحتل المركز السادس في العالم من حيث الجذب السياحي، وهو درس ينبغي أن نتعلم منه أن 'صنائعنا" ليس قدرا مفروضا علينا، بل هو نتيجة طبيعية لسياسة ترك المواطنين يصارعون أمواج الحياة دون أن يشعروا أن هناك من هو يكترث بهم أو يأسى عليهم. ومما شك فيه أن يتغير هذا الحال المزري طالما ظل السكان الأصليون لمصر يرفعون ذلك الشعار الذي قالته لي جدتي رحمها الله وأنا ذاهب إلى الجامعة "ياابني البلد بلدهم ويعملوا مايبدا ليهم"، وهو شعار تجد فيه وحده تفسيرا لظاهرة عمل المواطنين مابدالهم تحت كباري بلدهم.

لماذا أكره موائد الرحمن؟

صُعقت المذيعة البلهاء عندما قلت لها على بلاطة أنني أكره موائد الرحمن.

هي طلبت الإجابة صريحة وأنا كنت سأجيب بصراحة حتى لو لم يكن هناك بلاطة.

أنا فعلا لاأحب موائد الرحمن. لاتتعجل الحكم علي وتتهمني بقسوة القلب وإنعدام الضمير وكراهية الخير لفقراء الناس. فأنا أكره موائد الرحمن لأني لاأطيق أبدا وتحت أي ظروف وفي ظل أي محسنات بديعية حقيقة أن يكون هناك في بلد هي في رأيي من أغنى بلاد العالم فقراء يضطرون لإنتظار شهر رمضان من السنة إلى السنة لكي يكون بمقدورهم شم رائحة اللحمة وهم موقنون أن بعضا منها سينزل لهم على طبق من رز ليأكلوا حتى الإمتلاء دون أن يكون ذهنهم مشغولا ولو للحظة بدفع الحساب أو التفكير في الهروب من دفع الحساب بمعنى أصح. سامحوني فأنا أجد من المخزي أن نفرح بأن لدينا مئات الآلاف من البشر لايأكلون الفراخ كل يوم إلا لمدة شهر واحد في العام وهم يعيشون في بلد الطيور الأول في القارة، قلت للمذيعة مستطردا أنني أتحدث عن الفراخ بمعناها الحقيقي صدر وورك وجناح وليست الفراخ

المبذولة لفقراء مصر من رقاب ورجلين ومناقير ومالى ذلك من فرش الفرخة التي لم يعد ينجو منها لدى فقرائنا إلا الريش بعد أن فشلت حتى الآن كل محاولات توظيفه كنوع من الحلويات أو المحاشي، وطلبت منها أن نبادر بزيارة أي سوق للفقراء في أي منطقة عشوائية لترى كيف يتهافت الناس على شراء سقط متاع الفراخ فتفهم حقيقة سخطي.

كل هذا قلته للمذيعة التي بدأت عيناها تنهمر في بكاء اضطرنا لوقف التسجيل حتى تتمالك نفسها، قلت لها وقد صعبت عليّ أنني آسف لأنني طسست وجهها بالحقيقة المرة، قالت لي بعد تنهيدة عميقة أنها تبكي لأن هذه الحلقة لن تذاع بسبب ماأقوله وسيكون واجبا عليها أن تبحث عن ضيف جديد للتسجيل معه قبل الوقفة، نظرت إلى معد البرنامج ابن دفعتي في الكلية شزرا ثم نهضت غاضبا وأنا أبرطم بالدعاء على تلك المذيعة أن تلقى يوما مصير الدكتورة عبلة بطلة مسلسل قضية رأي عام على يد مغتصبها سيد شكمان، لكنه ابتلع غضبي عندما وضع يده على رأسه مقلدا طريقة صديقنا الممثل أشرف مصيلحي في المسلسل وقائلا لي " على راسي ياباشا"، ضحكت من قلبي، فاستغل زميلي ضحكي ليوجه لي جملة أكثر من شتيمة حارقة تذكرني بالذي مضى دون أن يفقد أصله ويذكرني به تفصيلا، ربما لأن منظرنا كان سيكون وحشا جدا لو ذكرني صراحة أمام الناس أنني تعرفت على البفتيك والتجرسكو والجمبري الجامبو في بيتهم وعلى يد المرحومة والدته.

طعم أكل والدته الساحر تفجر في ريقي كأنه نبع شلال فرقق قلبي عليه وعلى المذيعة البلهاء، لممت نفسي وعدت إلى التسجيل محاولا تسنيد كبريائي على حيله بالدمدمة بعبارات من نوعية " لما إنتو مش قد الكلام الجرئ جبتوني ليه.. مااللي ممكن يقولوا كلام يبسطكو كتير.. عموما لو عايزين نقلبها هجايص وماله.. اتفضلي ياأستاذة إسألي السؤال تاني"، أخذت نفسا عميقا لأهدأ تماما متشجعا بفعل نظرات الإمتنان المنبعثة من عيني صديقي والتي عكّرها دون قصد تأثير واضح منبعث من جملة " الله يرحم زمانك ياواطي" التي سمعتها تتردد في وجدانه بقوة الآن، أو إن جئت للحق منذ اتصل بي لحضور الحلقة وتحججت بضيق الوقت.

هي أعادت سؤال عن رأيي في مشهد موائد الرحمن المنتشرة في شوارع مصر وأنا انطلقت كتوك توك يطوي الفلا طيّا، "الحقيقة إن العين لتدمع والقلب ليحزن وإنا على فراق رمضان محزونون لأنه سيحرمنا من مشهد موائد الرحمن الفظيع، إنتي عارفه سيادتك إني بأنزل ساعة الفطار مخصوص وأسيب بيتنا ومابه من أكل يسر الناظرين لكي أستلذ بالنظر إلى أيدي أبناء مصر المعطاءة وهي تتسابق على خطف أطباق الرز بالشعرية الذي تزينه حتة لحمة أو حتة ونص في أحسن الأحوال، ياسلام إيه العظمة دي، في بلد في الدنيا فيها الكم ده من الناس اللي ماعندهاش بيوت تفطر فيها، الله، ده شيئ بجد يفرح، فعلا مصر بخير طالما فيها كل الفقراء دول اللي بيزيدوا يوم عن يوم، أصل الفقراء ملح الأرض زي ماإحنا عارفين، وأنا خايف على مصر

عشان كده يقى ملحها زيادة وده ممكن يرفع لها الضغط لاسمح الله.. طبعا إحنا عارفين الفقراء موجودين في كل العالم زي مإحنا عارفين وده شيئ مايعيبناش، حتى البلاد الصناعية الكبرى فيها متشردين في الشوارع وفقراء مدقعين، لكن هناك لإن في صقيع يسود القلوب الحكومة بتديهم إعانة فقر، إنما حكومتنا بتديهم على قفاهم عشان مايدمنوش المعونة، بس قلبها بيرق عليهم في رمضان فتسيبهم يطحنوا بعض بالبواني والكميات عشان يلحقوا معونات المحسنين.. وبتوفر للمحسنين الكرام قطع الأرض اللازمة لرص الكراسي والترابيزات والغرف في الأطباق والكوبايات.. دون أن تفرض على هؤلاء الفقراء رسوم ولا غرامات ولا ضرائب لأنهم على عكس المفترض في مجتمع لم يعد اشتراكيا بعد تعديل الدستور يأكلون بدون أي مجهود".

حال المذيعة أثناء كلامي كان يصعب على الكافر، فقد كانت مضطرة للتفكير ألف مرة بين نزع الإبتسامة البلهاء من على وجهها واستبدالها بتقطيبة عدم فهم، لكن زغرات زميلي المعد لها من وراء الكاميرا وإشارته بإصبعه إشارة كادت تكون بذيئة بأن تنتقل إلى سؤال آخر، نظرت إلى الورقة مرتبكة ثم قالت لي " عايزه أسألك - شالت كلمة حضرتك من ساعة ماأعدنا التسجيل.. عادي - مشهد موائد الرحمن الجميل اللي بيفكرنا بإن الدنيا لسه بخير مش ممكن يوحي لك كسيناريست بفكرة فيلم ؟"، كدت للحظات أواصل نهجي التهجيصي حتى يعدي البرنامج على خير، لكن سؤالها الأبله كان وسبحان العاطي الوهاب، كمستصغر

الشرر الذي يوقد معظم النار، فجأة انتابتني موجة عارمة من الشجن بعد أن أعادني سؤالها إلى يوم رمضاني لم يكن مباركا بالنسبة لي مع أنه كان كذلك على العالم أجمع، فهمت صمتي خطئا فقالت لي " مش لازم فكرة فيلم كامل يعني.. ممكن حتى فكرة مشهد درامي لو حبيت"، فجأة وجدتني أقول لها وأنا أغالب رغبة عارمة في البكاء "الحقيقة أنا مضطر أصارحك باني مش هاقدر أبدا أكتب مشهد زي ده لإني في الحقيقة علي المستوى الشخصي باكره موائد الرحمن.. أنا عارف إنها شيء عظيم ورائع وبيدل على قد إيه بلدنا في خير.. بس أنا باكرهها لسبب شخصي جدا.. أصلها مرتبطة بموقف حصل معايا سنة ٩٢ يعني من بيجي خمستاشر ستاشر سنة"، كادت توقف التسجيل من إرتباكها لولا أن أشار إليها صديقي بإصبعه السبابة والوسطى لكي تكمل التسجيل منتظرا حكاية حراقة تملأ فراغ الكلام الذي قلته آنفا والذي يعلم بخبرته أنه لن يذاع أبدا.

" أيامها كنت ساكن في غرفة حقيرة في شقة أحقر في شارع ليس حقيرا متفرع من شارع المحطة في الجيزة.. كنت طالبا في سنة تانية من كلية إعلام يكره شهور السنة الدراسية كلها لكنه يخص شهر رمضان والعياذ بالله بكراهية عميقة لأن جلوسه وحيدا فقيرا غريبا ساعة الإفطار كان يهشم قلبه تهشيما.. كان ساكن معايا شيف ستدوتشات من الفيوم بس كان المحظوظ بيفطر في المطعم اللي بيشتغل فيه في وسط البلد وساعات يسافر لبلدهم القريبة من الجيزة.. أنا بقى ماكنتش أقدر أسافر اسكندرية غير

يومين في الأسبوع.. وميزانية السفر كانت بتبهدل الدنيا فكان الامر بينتهي بيا.. متنيل على عيني في الأودة الحقيرة في الشقة الأحقر.. مجبرا بحكم قانون ألا يزيد ماأصرفه في اليوم عن أربعة جنيهات على أن يكون مينيو الأكل متنوعا مابين الفول والبيض والطعمية والزبادي وشوية بطاطس ومخلل وبتنجان مع تغيير البيض يومين في الأسبوع بعلبتين تونة مفتتة لأن علبة التونة القطعة الواحدة أغلى.. تخيلي كانت الأربعة جنيهات تجيب كل ده ساعتها.. كنت باحاول أدلع نفسي بإضافة القوطة والبصل والخضرة إلى الفول عشان يبقى فول بالخلطة وإلى البيض عشان يبقى شكشوكة.. كان كل ده بيخلي الأكل محتمل ولذيذ خصوصا مع برامج إذاعتي البرنامج العام والشرق الأوسط اللي كانت في إعتقادي هي اللي بتبلع الأكل وساعات بتحليه وبتعمل مع كوباية الشاي الكشري العظيمة تفاعل كيميائي يحدث نفس مفعول الخارج توا من مطعم أبو شقرة فرع مصطفى محمود.. هتقولي لي وايه اللي يخليك تفطر لوحدك أساسا.. بصراحة عمري ماكنت باقتنع بفكرة إني أروح موائد الرحمن عشان آكل أكل سخن.. إذا كنت بارفض عزومات صحابي أساسا عشان عندي عقدة فقر بتخليني أحس إن الكون كله حاسس بفقري وبإنه عايز يبقشش عليا أو يهين كرامتي اللي ماحيلتيش غيرها.. في اليوم اللي باحكي لك عنه أنبوبة البوتاجاز خلصت فجأة.. قعدت مذلول ساعتين في مايفترض أنه بلكونة.. إن أي حد يعدي من بتوع الأنابيب اللي بيصحوني كل يوم برزعهم وخبطهم.. مافيش فايدة.. فجأة كبس

عليا الفطار.. إستحالة آكل الأكل ساقع كده.. بدأت أحاول منع نفسي من البكا.. فجأة خدت قرار ثوري إني النهارده مش هاكل لوحدي واضطر آكل أكل ساقع.. أنا النهارده هاكل أكل سخن علي مائدة رحمن واللي يحصل يحصل.. العشر دقايق اللي كانت فاضلة كانت يادوبك تكفي إني آخد الشوارع قزح لغاية ماأوصل جامع الجمعية الشرعية اللي في ميدان الجيزة.. لإني ياما سمعت من أصدقاء رفيق سكني الفيومي سمع خير عن أكل مائدة الرحمن الفاخرة التي تقيمها الجمعية.. زائد إن ميزتها إنها بتتعمل جوه الجامع.. يعني لن أكون مضطرا لمكابدة مشاعر أحمد زكي في أنا لاأكذب ولكني أتجمل أو تمثل آلام سعاد حسني في خلي بالك من زوزو لو مر أحد زملائي وشاهدني أجلس مع العامة والدهماء في مائدة رحمن.. ألا يكفي ماأكابده من تعليقات على مظهري الرث وملابسي المبهدلة غير المتناسقة ورائحتي التي تفوح أحيانا بفعل إنقطاع المياه المتكرر.. قبل آذان المغرب بدقائق وصلت وإلى جامع الجمعية الشرعية الكبير دخلت.. اخترت موقعا استراتيجيا قريبا من الباب الذي علقت عليه لافتة بخط أنيق كتب عليها (مائدة الرحمن ترحب بضيوف الرحمن الكرام)، ياه يارب.. قد إيه هزتني فكرة إني النهارده من ضيوف الرحمن.. كل اللي كان جوايا من مشاعر تتأرجح بين الإهانة والحرج راح وحسيت بدفء فظيع وقعدت الدقائق الفاضلة لحد معاد إنطلاق مدفع الإفطار استغبي نفسي وأتهمها بأنها معقدة ومليانة كلاكيع.. وإنها حرمتني من خيرات الرحمن اللي أنعم بيها على ضيوفه..

الحقيقة روائح الأكل الخلابة الفاتنة التي كانت مختلطة بزفر حقيقي من الذي افتقدته منذ سنوات.. خلتني أقسى على نفسي أكثر وأكثر لدرجة أنني بدأت أشتمها بصوت عال.. لكني توقفت لما حسيت من نظرات بعض الإخوة المشايخ اللي جنبي إنهم ممكن يفتكروني ملبوس وساعتها ممكن يطرحوني أرضا.. ويتف أحدهم في ودني ويصرخ فيها لغاية مايفقع طبلة ودني "أخرج ياعدو الله".. سألت الله لنفسي الهداية وأن يجعلني أدرك حقا لاصدقا أن الفقر ليس عيبا خصوصا لو كان من أجل تحقيق هدف وغاية.. فجأة اختفى كل مابي من ذلة وانكسار وأصبحت أشعر كأني عفاف شعيب تقف بكل صلابة الدنيا في مواجهة يوسف شعبان في الشهد والدموع مسلسل الفقراء الأكثر تفضيلا في تاريخ مصر.. أدركني أذان المغرب فحمدت الله أن قرب البعيد.. دار علينا غلمان غير مخلدون من أبناء الجمعية الشرعية بتمرات يقمن صلبنا وأكواب مية وتمر هندي من النوع الفاخر.. كنت حاسس إني باشرب من نهر من أنهار الجنة من شدة عطشي المادي والروحي في نفس الوقت.. كنت أظن أن الصلاة ستقام على الفور بعد إنتهاء الأذان لكي يتمكن الجميع من المسارعة إلى الإفطار.. لكني اكتشفت أن الجميع قام لأداء صلاة سنة المغرب.. بيني وبينك كنت هفتان جدا.. فكرت إني أريح شوية وأطلب كوباية تمر هندي تانية.. لكن خبطة تلقيتها في رجلي من رجل رَجُل ملتحي سبقني للقيام ألغت الفكرة.. قاومت بصلابة مقاتل من حزب الله تأثير قصف الروائح المنبعثة من مؤخرة المسجد وأنهيت

ركعتي السنة وأنا أحاول ألا تزهق روحي الجائعة ثقتي في حرص أهل الجمعية على السنة المطهرة.. أعطاني أملا أن صلاة المغرب هتخلص قوام قوام كما أوصى سيدنا النبي في حديثه إذا أمّ أحدكم الناس فليخفف فإن منهم الضعيف والمريض وذا الحاجة، لكني لم أكن أعلم أن إمام الجامع يومها لم يكن قد سمع على مايبدو بهذا الحديث أو ربما قال له أحد إنه حديث ضعيف، ولذلك فقد صلى بنا صلاة مودع حتى كدنا نودع فعلا من فرط الجوع، الحقيقة أنا صليت قبل كده وأنا باحاول أقاوم النوم، وصليت قبل كده وأنا باحاول أقاوم الإستماع إلى كاسيت بيذيع أغاني باحبها وأنا باصلي، وصليت قبل كده وأنا باغض البصر وإحنا بنصلي في الشارع في إسكندرية، لكن كانت أول مرة أصلي وأنا باحاول أغض الشم، لدرجة أني كنت في الركعة الأولى باصلي وأنا باسد مناخيري عشان ماأشمش روائح الأكل، لولا إني رفعت أصابعي عن أنفي بعد زغدة من جاري الذي ربما تخيل أني غير معجب برائحة المسك التي "دهنن" بها إيدي قسرا قبل الصلاة، لاأعتقد أبدا إن ربنا قبل صلاتي في ذلك اليوم الكئيب لإني بجد كنت عايز أشق الصفوف وأنقض على الإمام وأنهال عليه ضربا لإنه بجد فاهم الإسلام غلط.. الإسلام دين الرحمة ومش من الرحمة بتاتا إنك تذل كذا مائة جائع من ضيوف الرحمن يقفون خلفك بعد أن أكلوا لحم بطونهم من شدة الجوع.. مش عايز أقول كل الأفكار اللي كانت في خيالي وقتها عشان ماحدش يفهمني غلط.. مع إن ربنا أرحم بي من عبيده وعارف بحالي وقتها.. المهم وبعد طول

إنتظار وبعد بلاد تشيلنا وبلاد تحطنا.. وصلنا أخيرا إلى التشهد الذي أعتقد أن الإمام قرأه سبع مرات.. ده التفسير الوحيد للمدة الطويلة اللي استغرقها وهو بيقرا.. لدرجة إن صباعي اتلوح من كتر التلويح بيه أثناء التشهد.. المهم وصلنا إلى لحظة الحقيقة وسلم الإمام.. لم يكد يكمل السلام عليكم الثانية حتى كنت وأغلب من في المسجد قد وثبنا من أماكننا كنمور أفريقية جائعة تتدافع بإتجاه باب مائدة مضيفنا الذي هو بالتأكيد أرحم بنا من هذا الإمام الجائر.. فجأة وجدت يدا تمسك بي بغلظة لتعيدني إلى مكاني.. وهو أمر مش سهل لو أدركت أنني وقتها كنت أتخن من دلوقتي مرتين.. كانت تلك اليد تخص جاري الزاغد لي مرتين.. مرة برجله لكي أصلي السنة ومرة بيده لكي أرفع يدي من على متاخيري.. قال لي والشرر يطق من عينيه "ياأخي اتق الله واختم صلاتك لكي لاتفقد الأجر"، قلت له باستغراب "مانا مصلي معاك تلات ركعات وخاتم الصلاة.. مش المغرب تلات ركعات"، تحول الشرر في عينيه إلى لهب وقال لي "إنت هتهزر في بيت الله.. مش كفاية صباعك اللي عمال تلف بيه وخايلتنا طول التشهد.. ياأخي دي بدعة مستفزة مش عارف خدتوها منين"، كنت أستمع إليه وأنا أرى باب مائدة ضيوف الرحمن وقد سدته الكتل البشرية حتى أصبح لايكاد يبين من الزحام، قبلت رأسه وقلت له "أوعدك لو ربنا جمعنا وصلينا جنب بعض سوا .. لو شفت صباعي بيتحرك بعد كده في التشهد اكسره ولا تثريب عليك"، ثم اندفعت جاريا لألتحم بالكتلة البشرية الزاحفة دون وعي نحو باب المائدة

الذي لايكفي لدخول ربع المتدافعين عليه بأي حال من الأحوال.. فجأة وبدون أي مقدمات طلع علينا من ثنيات المسجد وجنباته عشرة من الشحوطة.. لولا ملابسهم الناصعة البياض لظننتهم عساكر أمن مركزي مخضرمين.. في يد كل منهم عصاية مكنسة لاتخطئ غلظتها العين.. وابتدوا ينهالوا ضربا علينا نحن ضيوف الرحمن.. ربك والحق أنا للحظات تجمدت مش من الرعب والهلع.. لا من عدم الفهم.. سألت نفسي.. هو أنا فين بالضبط.. هل أنا في مائدة فيفي عبده اللي كانت سمعتها وقتها إنها مائدة فيها سيكيوريتي.. ولا أنا واقف على باب سينما يوم العيد وباتضرب بإحزمة العساكر.. ولا أنا في مظاهرة بتهتف باحرية فينك وفينك أمن الدولة بيننا وبينك.. فوقني على حقيقة إني في جامع.. في بيت من بيوت الله.. صوت الإمام في الميكروفون وهو بيهتف يإخواني النظام لو سمحتم عشان كده مش هينفع.. اتقوا الله في أنفسكم.. كنت فاهم إن الضرب هيوقف بعد طلبه بتقوى الله لكن اتضح أنه زاد شراسة لأنه طلع بيطلب التقوى من الجعانين اللي بيتضربوا مش من اللي بيضربوا.. بصيت في عينين اللي حواليا شفت تعاسة وبؤس وإستسلام مرير خلوني أحس إني على كل ماأظن أنني فيه أعتبر محمد الفايد بعد خمس دقائق من تسجيله محلات هارودز بإسمه في شهر لندن العقاري.. فجأة لقيتني بأعيط عياط هستيري.. عياط عمري ماعيطته في حياتي لا قبل ولا بعد.. كرهت العلم والأحلام والطموح والمجد المتخيل.. لو كنت قعدت ثواني أكتر.. كنت كرهت نفسي كمان.. وأنا عمري

ماكرهت نفسي.. ابتديت أزق بايديا زي المجنون في كل حتة وأنا باصرخ صرخات هستيرية مش مفهومة يمكن لإني ماكنتش لاقي كلام يتقال.. ضربة عصاية نزلت على كوعي شعللت ناري أكتر وطلعت من جوايا طاقة مجنونة خلتني أطيح في كل اللي حواليا.. وأنـا شـايف قدامـي باب الجامع من بعيد وباحلم إني أوصل له بسرعة وأخرج من بيت الرحمن اللي استولى عليه البشر بغلظتهم وقسوتهم.. كـل اللي كنت عايزه يحصل وقتها إني أرجع عيل صـغير بيتزاحم مع إخواته على الطبلية وأمي بتوزع علينا حتت اللحمـة المعـدودة سـلفا.. وبتشخط فينا إن كل واحد ياكل مثايه وبس.. لولا الملامة كنت وقفت في ميدان الجيزة اللي كان ساعتها فاضـي قوي وموحش قوي زي قلبي، وصرخت بجنون "أنا عايز أروح لأمـي.. روحوني لأمي أبوس إيديكو".. ساعتها حسيت إن كـل الحاجـات اللـي كنت فاكر نفسي متأكد منها ساعتها شكيت فـيها.. ساعتها بس فهمت ليه سيدنا علي كان بيقول لو كان الفقر رجـلا لقتلـته.. أنـا بيني وبينك كنت عملت فيه حاجة ألعن من القـتل.. مش هينفع أقولها.. يمكن الشيء الوحيد اللي خرجني من حزنـي وسـكت بكايا هو صوت ترزيع بتاع أنابيب على أنبوبته جـنب البيت الذي وصلت إليه بعد ساعتين من المشي هائما على وجهـي مع إنه زي ماقلت لايبعد أكتر من عشر دقايق عن ميدان الجيـزة.. هو صوت ترزيع بتاع أنابيب.. كان بالنسبة لي صوت الأمـل يعـيد إلـى من جديد إحساس أنني يمكن أن أعيش شبعانا ومحـتفظا بكرامتي في نفس الوقت.. ومن يومها وأنا أكره موائد

الرحمن كراهية العمى.. تفتكري ممكن الرقابة تعدي المشهد ده".

فجـأة أخذت بالي أن المذيعة منهمرة في بكاء كاد يتحول إلى نشيج حاد، وأن التسجيل توقف على مايبدو منذ فترة دون أن آخذ بالي، لأن صديقي المعد كان داخل الكادر يحاول تهدئة المذيعة، لم أفهـم ماالذي حدث، هل كانت حكايتي ثقيلة الوطأة عليهم إلى هذا الحـد؟، كنت على وشك أن أبدأ في الحلفان لصديقي أنني لم أكن أقصد أن أنكد على أحد وأن تداعي الحديث هو الذي جعلني ذاهلا عن نفسي وعما حولي، لكنني فوجئت به يقول لي مبتسما إبتسامة ظفر لم أفهمها أبدا وهو يقول " حلو قوي ياقمر بس هنضطر نعيد تانـي عـشان نحـذف حتة في النص عشان الحكاية الفظيعة دي تتذاع.. إنت إزاي عمرك ماحكيتها لنا ياأخي.. إوعى تكون مألفها علـى الهـوا"، فجـأة علا صوت المذيعة وهي تقول باكية " مش معقـول يعني كل ده هيتعاد.. هاستحمل الكلام ده كله من تاني.. ماكنـتو توقفـونا مـن بدري"، زاغت نظراتي حائرة بين المذيعة والمعد الذي محوته للتو من قائمة أصدقائي وإلى الأبد، ظننت أن ذكـر إسـم الجمعـية الشرعية هو الذي يمكن أن يثير المتاعب للبـرنامج، فقلـت بحمـاس " ذيعوا الكلام ده على مسئوليتي وأنا مـستعد إنـي أحلـف ميت يمين إن كل اللي باحكيه ده حصل.. وبعـدين مش معنى إنه حصل في جامع تابع ليهم إنهم كلهم بيقوا وحـشين.. إحـنا ممكـن نزود الجملة دي عشان مانظلمش الكل معانا"، فوجئت بصديقي يبتسم إبتسامة من لقى التايهة قائلا " حلو قـوي.. الله ينور عليك.. لحقتنا.. ولو إننا كنا عايزين نعيد لسبب

تانـــي.. عايـــزين نشيل الجملة اللي اتكلمت فيها عن ابو شقرة.. عشان ده يعتبر إعلان".

فـــي السابع من إبريل عام ٢٠٠٨ تناقلت وكالات الأنباء صورا حزينة التقطها مـــصور جـــريدة الـــبديل المستقلة لشباب من مدينة المحلة الكبرى تعرضـــوا للإصابة خلال المظاهرات التي اندلعت في المحلة يوم السادس من إبريل الذي كانت القوى المعارضة قد دعت لإعلانه يوم إضراب عن العمل.. رأى العالم بأسره في الصور المفزعة كيف يرقد الشباب المصاب على أسرة المستشفيات مغمى عليه من الإعياء والفزع والأسى.. وبرغم ذلك كان أولئك الـــشباب وياللعجب مقيدين بكلابشات إلى الأسرة كأنهم من عتاة المجرمين.. هزتنـــي الـــصور من الأعماق فكتبت من وحيها هذا الخطاب الإفتراضي من مـــواطن محـــلاوي كلبش حب الوطن في قلبه وكلابشات الوطني في يده إلى رئيس البلاد وحاكم العباد:

سيـــادة الرئيس ..

أريد أن أهرش

سيادة الرئيس..

أكتب لسيادتك بالقلم الرصاص.. عنوان المحبة والإخلاص.

الكــذب خيــبة سيادتك. صحيح أن هذه الرسالة مكتوبة بقلم رصـــاص دفعنا رشوة لعم حسنين عامل النضافة لكي يدخله إلينا من ورا ضهر الحراسة، لكن الحقيقة أنني لست أنا الذي أكتب، بل أنـــا أملــي هذه الرسالة على مريض يزاملنا في العنبر طلب عدم ذكر إسمه، برغم أن الدكاترة قالوا أن أمامه بالكثير أسبوعين لكي يــريح ويستريح، أي أنه ليس لديه مايخشاه، لكنه يخشى أن يطلع تــشخيص الدكاتــرة خطــئا ويكتب له عمر جديد فيكمل جلسات العلاج في السجن. والحقيقة أيضا أن حكاية القلم الرصاص كانت من بنات أفكاره هو ليس استرخاصا وإنما لأنه يرى أن ذلك يسهل التخلص مما كتبناه إذا حدثت كبسة على العنبر.

كــنت أتمنـــى أن أخط لسيادتك هذه الرسالة بيدي لكي تشعر بنــبض مشاعري مباشرة، كان نفسي والله، لكن المشكلة أن يدي اليمنـــى غــرزوا فيها إبرة المحلول الذي تقطمني الممرضة بأنه خــسارة فـــي جتتـــي كلما قامت بتغييره، ويدي اليسرى كما تعلم ســيادتك قــيدوها بالكلابش إلى ضهر السرير المعدني، أنا آسف

لأنني افترضت أن سيادتك تعلم بأن هذا حدث، فقلبي يحدثني أنك لاتعلم بأن هذا يحدث لأحد أبنائك، لكن لساني لم يطاوعني أن أقول أنك لاتعلم، لأن المفروض أن سيادتك تعلم بكل كبيرة وصغيرة في هذا الوطن، الحقيقة أن لساني طاوعني، لكن زميلي الذي يكتب ماأمليه عليه هو الذي نصحني بألا أفترض أن سيادتك لاتعلم بهذه الحال، لأن ذلك من الممكن أن يوقعني تحت طائلة القانون، وأنا اللي فيا مكفيني.

زملاؤنا المرضى الذين لم يحدد لهم الأطباء بعد موعدا لمغادرة الحياة، يقولون لي أنهم سمعوا طبيبا شابا إبن حلال يقول لزملائه الذين ليسوا كذلك أن صورتي وأنا نائم ويدي مقيدة في السرير تمكن مصور صحفي ماكر من إلتقاطها ونشرت في كل أنحاء الدنيا، ومع أنني فرحت عندما سمعت ذلك لأن صورتي وأنا متبهدل كل هذه البهدلة ستصل إلى سيادتك وستأمر بمعاقبة الذين كانوا وراء هذه البهدلة، إلا أن زميلي الكئيب الذي يستعد لمغادرة عهد سيادتكم إلى رحاب الله قال لي أن هذه الصورة ستجر لي مزيدا من الخراب والبهدلة، وأنه مش بعيد أن يقيدوا يدي الأخرى إلى الناحية الأخرى من ضهر السرير، فضلا عن تقييد قدمي الإثنين إلى رجل السرير، وذلك لأنني تعاونت في صناعة صورة كهذه يمكن أن تظهر عهد سيادتكم على غير حقيقته، عهد يقيد المرضى إلى أسرتهم كما لم يحدث من قبل في العالم كله، هكذا قال زميلي الكئيب محذرا إياي، فجعل الخوف يكاد يجعلني أفعلها على روحي، لكنني امتنعت عندما تذكرت

مايمكن أن تفعله بي الممرضات لو حدث ذلك، أخذت أحلف بالله لسيادتك كأنك أمامي أنني لم أر جنس مصور منذ دخلت إلى هنا، وأنني كنت رايح في سبعين نومة لأن جسمي كله كان بينفح عليا من كتر الضرب، ظللت أرتجف من الخوف وأسح في الدموع حتى صعبت على كل من معي في العنبر، ولم يجعلني أتوقف عن الإرتجاف والبكاء سوى نزيل آخر طلب ذكر إسمه هو الحاج عبد البديع الذي دخل ليكشف على الكلى فاكتشف أن لديه كلية واحدة فقط والأخرى سرقت عندما دخل إلى المستشفى منذ سنتين لكي يستأصل المرارة، الدكاترة قالوا له أن كليته لم تسرق بل ذابت، وعندما اعترض قالوا له أن الله قادر على كل شيئ، فخاف أن يعترض لكي لاتطلع عليه سمعة أنه دانماركي مسيئ للإسلام، عم عبد البديع طمأنني قائلا أن ظهوري في الصورة نائما يمكن أن يطلعني من القضية صاغ سليم، فإذا كان الله عز وجل يسامح الذي يترك صلاة الجمعة إذا كان نائما، فكيف يؤاخذ عباده من كان نائما على تصويره أثناء النوم، زميلنا الكئيب سكت ممتعضا وهو ينظر إلى وأنا أحتضن عم عبد البديع وأدعو له الله أن يخرج من المستشفى ببقية أعضائه سالمة، وقاطع فرحتنا بقوله " طيب لو طلعت من قضية التصوير.. هتطلع إزاي من قضية الشغب ياخفيف"، عدت لأرتجف وأبكي فيما انقض عم عبد البديع عليه وطلب منه أن يعود ليتلقح في سريره متطوعا بمواصلة كتابة هذه الرسالة، ومقررا أن ينتقم من زميلنا الكئيب بذكر إسمه صراحة في هذا الخطاب لكي ينال جزاءه العادل، لكنني استحرمت وطلبت

منه أن يتركه يموت في سلام على رجاء القيامة.

سيدي الرئيس.. أنا آسف لأنني لم أنقل لك تحيات عم عبد البديع وكل المرضى المجاورين لنا في العنبر، وعددهم عشرة فشل كلوي واتناشر فشل كبد وأربعتاشر أورام متفرقة، جميعهم حملوني أنا وعم عبد البديع السلام أمانة لسيادتك، وجميعهم ينقلون لسيادتك رغباتهم الحارة في أن تنظر إلى بعين العطف والحنان الذين تعودوه دائما كمواطنين في عهد سيادتك الذي نشأوا وترعرعوا وشبوا ومرضوا في ظله.

سأفترض أن سيادتك شاهدت الصورة التي يقولون أنها التقطت لي وأنا نائم، وعهد الله كنت نائما، وسأسأل سيادتك، أستغفر الله العظيم، تخيل سيادتك أن الشيطان وسوس لي أن أقول لسعادتك أن تضع نفسك مكاني وأنا في هذا الحال، بل ووسوس لعم عبد البديع أن يكتب ماقلته، والله سيادتك لو كانت يدي حرة طليقة لنهضت من فوري وضربت نفسي وعم عبد البديع والشيطان بالحذاء لكي لاينفث في العقد بخيالات مريضة مثل هذه، لكن يدي مقيدة ويد عم عبد البديع مشغولة بالكتابة، ولذلك اكتفيت أنا وعم عبد البديع بأن استعذنا بالله من الوسواس الخناس، فنحن لانحب أبدا أن نتصور سيادتك مكاننا أبدا، متعك الله بالصحة والعافية لأن مصر تحتاجك، أما نحن فلديها منا الكثير.

المشكلة أن الشيطان يجري فينا مجرى فيروس سي في الدم، ولذلك نعلم أنه سيعود إلينا طالبا أن نسأل سيادتك هل يرضيك أن يتعرض لما أتعرض له أحد أبنائك أو أقاربك، لو لاقدر الله دخل

المستشفى ذات يوم، لذلك لكي لايدخل الشيطان بيننا أبدا، قررنا أن نسأل سيادتك السؤال بشكل غير مباشر، هل يمكن أن يتعرض لما أنا فيه الآن من كلبشة في ضهر السرير إبن أحد الوزراء أو الكبراء أو اللواءات أو المحافظين أو رجال الأعمال؟.

كنا فرحين أنا وعم عبد البديع بهذه الصيغة للسؤال التي تخرجنا من أي مساءلة قانونية، وتوصل في نفس الوقت لسيادتك مانريد أن نقوله، لولا أن جاءنا من آخر العنبر صوت الكئيب إبن الكئيبة لكي يقول لنا " وهو في حد من دول ولا ولادهم ولا قرايبهم هيتعالج في مصر أساسا.. دول بيطلعوا من بره بره يتعالجوا بره.. وبره مافيش كلابشات أساسا في الإقسام عشان يبقى في كلابشات في المستشفيات". لم نستطع أن نرد عليه الصراحة، ولذلك قررنا أن نبلغ عن إسمه، سيادتك إسمه عدلي عبد الشهيد، زملاؤنا المسيحيون يقولون أنه مسلم، ونحن نقول أنه مسيحي، وعندما نجتمع سويا نقول أنه زي الفقر مالوش ملة.

عم عبد البديع يرى أن لانضيع وقت سيادتك في أي مقدمات عبثية وأن ندخل في الموضوع مباشرة، بعيدا عن محاولة تقريب صورة ماأنا فيه لسيادتك، لأنه متأكد أن سيادتك لو شاهدت صورتي أو سمعت عنها لن يرضيك أبدا ماحدث لي وستأمر فورا بمحاسبة المسئول عنه. الحقيقة أن عم عبد البديع متفائل بطبعه، بدليل أنه صدق أن كليته ذابت ونزلت وهو يقضي الحاجة، عندما لمته قال لي " يابني العيشة اللي إحنا عايشينها دي تدوب الصخر مش هتدوب كليتي".

أنا لست عبد البديع، طموحاتي بسيطة، أنا لاأريد أن أحاسب أحدا، لا الذين اعتقلوني ولا الذين ضربوني بالرصاص المطاطي ولا الذين ضربوني على قفايا ولا الذين سبوني بالأب والأم ولا الذين قيدوني إلى ضهر السرير كأنني خطر داهم على هذا الوطن، خطر لايحتمل حتى حراسة إضافية بل يتطلب تقييدي كذبيحة، لاأريد أن أحاسب الذين حكموا علي قبل أن يحاكموني، ولا حتى الذين يأتون إلي كل يوم ليطلبوا مني بحزم أن أشد حيلي عشان يطلعوا عين أهلي لما أخرج.

سيدي. أنا لدي مشكلتان لاثالث لهما، الأولى مع الذباب الشرس الحقير الغتيت الذي يحاصرني في هذه المستشفى الكئيبة، ذباب واعي ساقل يتعمد أن يحط على الجهة اليسرى من وجهي كأنه يعلم أنني لن أتمكن من هشه بيدي المقيدة، والله العظيم ياسيدي أنا مستعد أن أدلي باعترافات تفصيلية عن دوري المزعوم في المؤامرة التخريبية كما وصفها الضباط الذين عكشوني، مقابل أن يفكوا الكلابش فقط لكي أهش الذباب المتوحش عني.

مشكلتي الثانية هي أنني أشعر بأكلان فظيع في ضهري، لاأدري هل سببه الحشرات التي يقسم زملائي أنها أقدم في المستشفى من بهيرة كبيرة الممرضات، أم سببه رقودي على السرير على وضع واحد كل هذا الوقت، مع أن التغيير سنة الحياة، نبهني عم عبد البديع إلى التباس الجملة الأخيرة وكونها يمكن أن تسوء موقفي في القضية، لكنني أقسم لسيادتك أنني

لاأقصد منها شيئا سوى أنني فعلا أريد أن أمارس حقي الدستوري في الهرش وتغيير وضع رقودي على السرير، فأنا لست دولة تستحمل أن تعيش ربع قرن على وضع واحد دون أي تغيير، أنا بشر ضعيف خلقت من تراب وسقفت التراب ويلزمني بين الحين والآخر أن أتقلب على الجنبين، فهل هذا كثير عليّ سيادتك.

سيدي الرئيس. والله العظيم وليس لسيادتك علي شعبك حلفان، هل تعلم أنني أحلم كثيرا بأن كل ماأنا فيه سينتهي فجأة عندما تدخل سيادتك علينا فجأة في زيارة مفاجئة، لكي تقول لنا أنه لايرضيك أبدا أن يعامل مواطن في عهدك هكذا، حتى لو كان مخطئا أو مشتبها في خطئه، وأن سيادتك تؤمن بأن المتهم برئ حتى تثبت إدانته عندها فقط تصح كلبشته.

عارف سيادتك. طيلة عمري كنت أحلم بأن أصاب يوما ما بكسور ورضوض في حادثة قطار أو أصاب بحروق من الدرجة الأولى في حريق مسرح أو أنجو من الغرق في عبارة أو أتعرض لجروح قطعية في إنقلاب بيجو سبعة راكب، فقط لكي أحظى بذلك المشهد المهيب الذي حظي به الآلاف قبلي، أعني مشهد دخول سيادتك إلى عنبر المستشفى لكي تتفقد المصابين، وتنحني عليهم ودودا حنونا تلاطفهم وتطمئن عليهم وتطبطب عليهم وتوصيهم بأن يبطلوا دلع ويشدوا حيلهم، ياالله، هل من الممكن أن أحظى بشرف كهذا، وأرى صورتي مع سيادتك في الجرنان وأنت تمسك بمفتاح الكلابش وتفكه بيدك الكريمة وقد كتب تحت الصورة "سيادة الرئيس الأب يتفقد أحد أبنائه المصابين".

أنا آسف سيادتك. عدلي مش ناوي يجيبها لبر. من جديد أخرجني صوته من أحلامي، عم عبد البديع نفسه كان قد بدأ يحلم بأن يتصور مع سيادتك وأنت تعده بأن كليته الباقية لن تذوب بأي شكل، "هو إنت فاكر نفسك ناجي من الغرق أو الحريق أو الموت.. إنت ياابني ممسوك في قضية شغب.. فكيف تحظى بشرف كهذا لاينالة إلا المغدور بهم أو المصابون بشرف".

خرجت في المظاهرات.. نعم.. أعترف سيادتك.

لن ألف ولن أدور. لن أحلف بالله كذبا أنني كنت رايح درس أو جاي من مجموعة.. لن أقول أنني خرجت لكي أتفرج وفوجئت بأنني ممسوك.. عم عبد البديع يطلب مني أن أمسح كل ماقلته الآن.. لكنني عاهدت نفسي أن أكون صادقا وأنا أكتب إليك.. قد أكون مخطئا لأنني خرجت في المظاهرة. بلاش أنا فعلا أخطأت.. لكن ماذا أفعل وأنا على آخري ككل الذين أعرفهم.. خرجنا لكي نفش غلنا ونصرخ لعل أصواتنا تصل إلى سيادتك فترحمنا من الغلاء والكواء والخواء والبلاء والغش حتى في الدواء.. خرجنا لكي نسأل سيادتك كيف يمكن لأهالينا أن يضمنوا لنا حياة كريمة بمرتبات لئيمة.. كيف يمكن لنا أن نحلم بالمستقبل ونحن ندرس في مدارس وجامعات لانتعلم منها شيئا ينفعنا في الدنيا أو الآخرة.. نعم ياسيدي خرجت في المظاهرات كغيري.. لكن لاأنا ولا أحد من الذين أعرفهم أحرقنا مدرسة أو نهبنا محلا أو اقتحمنا مطعما أو كسرنا جهاز كمبيوتر.. سمعت أنهم أحرقوا المدرسة فحزنت.. صحيح أنني لم أتعلم فيها شيئا ذا بال لكنني حزنت

لأنني قضيت فيها أياما جميلة وضحكت فيها من قلبي أنا وزملائي كما لم أضحك من قبل وكما لن أضحك من بعد.

سيدي الرئيس.. أنا حزين على كل طوبة رميت بوجه عسكري أمن مركزي أمروه أن يقمعنا فقمعنا وهو يرتعد خوفا.. حزين على كل شجرة أحرقت فوق شريط القطار.. حزين على كل محل نهبوه.. على كل مطعم لم يأكلوا فيه فأكلوه.. على كل فصل اقتحموه وأشعلوا فيه النار.. حزين على أن نصل جميعا إلى هذه الحال.. لكنني حزين أيضا على حياتي وحياة كل الذين أعرفهم.. هل تتصور سيادتك أننا نعشق التظاهر ونهوى الإضراب وندمن الوقفات الإحتجاجية.. هل تظن سيادتك أننا كنا سنخرج من بيوتنا أساسا لو كنا نشعر بالرضا عن اليوم أو الأمل في بكره.. أعلم أنه لايوجد أبدا مايبرر خروجنا لكي نولع في مدينتنا.. في شوارعنا.. في مدارسنا.. لكن ماذا نفعل إذا كانت الحياة في بلادنا جعلتنا نرغب في أن نولع في أنفسنا.

سيدي الرئيس أنا جاهز لكي أتحمل المسئولية عن كل ماينسب إلي.. مستعد لكي أمثل أمام القضاء.. مستعد لأن تقيد كل أطرافي إلى جميع أرجاء السرير.. لكن فقط بعد أن تثبت إدانتي.. مستعد لأن أحاكم ولكن بعد أن يحاكم معي كل الذين سرقوا مني الأمل وحرموني من أن أحلم بغد أقل سوءا.. بعد أن يحاكم معي كل الذين غرفوا من خيرات هذه البلاد دون أن يعطونا منابنا.. بعد أن يحاكم معي كل الذين أشعلوا النيران في آدميتنا وانتمائنا وحبنا لهذه البلاد التي عشنا فيها سنين راضيين بقليلنا لأننا نؤمن

أن القليل من الحبيب كثير.

سيدي.. أنا مضطر أن أتوقف الآن لكي أترك عم عبد البديع يرتاح من نوبة البكاء التي أصابته.. لكي أطمئن على عدلي الذي أعطانا ضهره وأخذ يرتجف.. لكي أطلب من الجميع أن يكفوا عن النشيج الحاد لكي ننجو من غضب الحراس الذين اقترب موعد تفتيشهم المفاجئ لنا.

سيدي الرئيس.. أنا الآن أعرف ماأريد

أنا لم أعد أريد لاحيا ولاحنانا .. ولاحلا..

لم أعد أريد لا الخبز ولا الحرية..

لم أعد أريد لا الحراك السياسي ولا العدالة الإجتماعية.. لم أعد أريد تكافؤ الفرص ولا فرص التكافؤ.. لا التنمية الشاملة ولا الخروج من عنق الزجاجة.

كل ماأريده أن تأمرهم سيادتك بأن يفكوا قيودي.. فأنا حقا أريد أن أهرش.

قاطعوا الحصبة الألمانية!

لايمكنك أبدا أن تفهم كيف يفكر بعض الناس.

عندما سمعنا نبأ المصاب الذي ألم بإبن عم شافعي القهوجي ذهبنا على الفور لمواساته خلف النصبة، لنفاجأ بالرجل العاقل الكامل أو الذي كان كذلك يندفع صارخا في وجوهنا "عاجبك ياباشا اللي بيحصل لنا في البلد دي اللي مايعلم بيها إلا ربنا.. يعني يوم ماحاجة مستوردة تخش بيتي تبقى الحصبة الألماني".

حاولنا استيعاب الموقف فذكره الشيخ سيد السباك بأن الله تعالى إذا أحب عبدا ابتلاه، لكن عم شافعي لم يستقبل كلام الشيخ سيد على النحو الأمثل، ربما لأنه فكر أنه بعد انضمام إبنه إلى قائمة المرضى التي تملأ البيت " إتنين كلى وواحد كبد وواحدة داخله في مرارة" يكون شافعي قد وصل إلى درجة تؤهله لمنافسة رابعة العدوية شهيدة العشق الإلهي.

حاولت لم النظرات الحائرة التي صوبها شافعي إلى الشيخ سيد لكي لايدخل الشيطان بينهما فسألت عم شافعي مغيرا الموضوع " إنت خدته لدكتور بيفهم كويس في الحصبة الألماني"، تنهد الرجل قائلا " مش عارف والله ياباشا بس الراجل كشفه غالي.. أكيد بيفهم في العيا الألماني"، فجأة انفجر الموقف عندما

سأل عم أنور فجأة "هو مين واخد توكيل الحصبة الألماني في مصر"، بصعوبة منعنا عم شافعي من دلق براد المية المغلي على رأسه بعد أن ذكرناه بأنه لايمكن أن يقصد الإستهزاء بمعاناته خاصة وهو راجل حاج وشايل القرنية.

عندما جاءت الجرائد وقرأنا أنباء التقرير الذي نشره موقع سي إن إن عن أحوال الصحة في مصر وعودة أمراض قديمة كانت الحكومة قد أعلنت القضاء عليها مثل الحصبة والسل، دوى صوت الأستاذ كامل مدرس أول عربي وهو يترحم بصوت عال على العبقري مصطفى لطفي المنفلوطي، شاركناه الترحم ثم سألنا عن المناسبة فقال أن الأيام أثبتت نظرته المبدعية وخلود رواياته التي كان يترجمها عن روايات القرن الثامن عشر والتي تموت البطلة فيها بالسل قبل أن يغتصبها حبيبها. لم يضحك أحد عندما قلت ساخرا أن الرئيس مبارك رجل يتميز بالأصالة والعراقة بدليل أن حكمه المبارك أعاد إلينا السل والحصبة من جديد، وأنه لن تنقضي فترته السادسة قبل أن نشهد عودة مرض الفالج الذي كنا نقرأ عنه في كتب التاريخ.

لما كح عم أنور كحة ختمها بصوت يشبه كركرة الديك، هرع الكل طالبا الحساب بعد أن خيم شبح السعال الديكي على القهوة. بعدها وعند ركوبي التاكسي كان الراديو يذيع أغنية تتر البرنامج الشهير "عشانك يامصر"، بعد إنقضاء التيتر بدأ المذيع جهير الصوت في إستضافة دكتور كبير يدير مشروعا قال أنه مجاني لعلاج الفقراء من مرضى القلب، فجأة أصدر السائق

صوتا لايليق بجلال البرنامج، وأغلق الراديو قائلا لي " معلهش مش هاقدر أستحمل الـ (..) دي"، قلت له مواصلا حديث المرض – الحديث الأكثر شعبية في مصر مبارك بعد إلغاء برنامج حديث الروح – " شكلك مبقوق ياأسطى من مستشفيات الحكومة"، قال لي وهو يشير بإصبع غير مستحب إلى الراديو " اللي عمال يتكلم عن علاج القلب ببلاش نفسي أقوله ياريت تعالجوا اللي بتكسروا الأول ببلاش.. تصدق من يومين ركب معايا واحد رجله مكسورة بعد نص الليل وقالي أوديه القصر العيني.. عالسواد اللي شافه هناك.. صحينا الدكتور بالعافية شخط فينا وقال إن العيان لازم يطلع يعمل أشعة.. مشينا ممر أطول من نفق الشهيد أحمد حمدي والراجل مكسور ومافيش كرسي.. ظبطنا بتاع الأشعة عشان مايرجعناش نقطع تذكرة.. وفي الآخر بعتوه يشتري رباط من بره على حسابه.. من ساعتها كلما حد يركب معايا ويقولي القصر العيني أنصحه يعدي على الأجزاخانه الأول يجيب حاجته.. بس الشهادة لله في دكاترة ولاد ناس.. تصدق إن في دكتور الأسبوع اللي فات عالجني من الكوليرا على حسابه".

"على جنب ياأسطى.. أنا خلاص وصلت".

إشي خيال ياناس!

تراجع الإقبال على السيرك القومي عندما تحولت مصر كلها إلـــى ســـيرك قومي، وتكررت الشكوى من فقر الخيال لدى كتاب الأدب والدراما لأن الواقع المصري في عصر مبارك أصبح يفوق الخـــيال. لـــو ظهـــر بـــين ظهرانينا اليوم أديب يقوم بنقل أخبار صـــفحات الحوادث، مجرد نقل لايضيف إليه شيئا ثم تمت ترجمة كـــتابه لاعتبر العالم كتابه فتحا جديدا في الواقعية السحرية يفوق ماكتـــبه ماركيز وإخوانه اللاتينيون الذين يكتبون الواقعية السحرية أدبا بينما نحن نعيشها قلة أدب.

تطمـــئن علـــى حال الخيال في مصر عندما تقرأ أن ضباط الأمـــن فـــي إحـــدى المحافظـــات قاموا بتخدير مرشح للإخوان المـــسلمين حـــضر إليهم لتقديم أوراق ترشيحه لإنتخابات مجلس الـــشورى فوضـــعوا لـــه حاجة أصفرة في كوباية الشاي، وصحا الـــرجل لـــيجد نفـــسه الله أكبر على قارعة الطريق، بملابسه ولله الحمـــد، وقـــد فاته موعد الترشيح. للأسف لم تتعب الصحف في شـــغلها فتعطينا فرصة لزيارة عقل رجل الأمن العبقري الذي قام بتوظـــيف جديـــد لحيلة استهلكها كتاب السينما المصرية والهندية معـــا، ولـــم تقل لنا الصحف هل تنوي الداخلية تعميم التجربة في

الإنتخابات القادمة بدلا من اللجوء إلى البلطجة والتزوير وضرب القضاة وغيرها من الحلول المكلفة، وكيف نتقي في حالات كهذه شر ضعاف النفوس والمكبوتين من العساكر فلايصحو المرشح على آلام مروعة أسفل البطن وصوت يقول له "مبروك جبت سوسن وعبد الرحمن".

هناك خيال جديد يسري في البلاد ولامحالة. بين حكامها وأهاليها معا. الحكومة تسرب أهالي قلعة الكبش في الصحراء حتى تهدم بيوتهم. بينما سائق في هيئة الصرف الصحي يسرق سيارة مديره ويحولها إلى تاكسي يعمل عليه ٣ سنوات ثم يكتشف صدفة بعد أن خانه الميكانيكي، وربما ركب المدير التاكسي مرارا دون أن يأخذ باله. جنايني إسمه عم قناوي يزرع البانجو لسنوات داخل حديقة المستشفى التي يعمل بها فنفهم أخيرا لماذا كان المرضى يرفضون الخروج من المستشفى. مسافر زاده الخيال يحاول تهريب ٣٠٠ ثعبان حي على خطوط مصر للطيران اللي مش ناقصة بينما صناع فيلم ثعابين على الطائرة "سنيكس أون ذي بلين" في هوليود يتصورون أنهم جابوا التايهة. تتكرر حوادث القطارات بعد ظهور تنظيم غيرمعلن لأطفال الحجارة يستهدف كبائن سائقي القطارات، أحدهم قتل سائق قطار بحجر محكم التصويب ثم قال للمحققين " قتلته عشان صوت القطر بتاعه بيضايقني"، لو اهتدى تنظيم القاعدة إلى تكتيك كهذا لعاث في قطارات أوروبا وأمريكا فسادا وبدون اللجوء إلى مواويل خطف الطائرات التي لم تعد تجيب همها. تقبض الشرطة على مسجل

خطر دأب على سرقة عين القط من الطرق السريعة والإقيه أنه يسرقه من سنين وماحدش واخد باله، الصحف لاتقول لمن كان يبيع عين القط، مما يكشف أن هناك سوقا سريا قد ظهر لمسروقات الطرق السريعة فقط. النيابة تحول مسئولين بكلية زراعة الأزهر قاموا بسرقة جديدة من نوعها هي سرقة أشجار الكافور في الكلية وبيعها بـ ٢٣ ألف جنيه والمدهش أن أحدا لم يأخذ باله أبدا من اختفاء الشجر بل اكتشفت السرقة بعد إختلاف الشركاء على الحصيلة. الأعلى في دنيا الخيال الجديد تلك الحادثة التي جرت في هيئة النقل النهري عندما قام موظفان بالإبلاغ عن غرق الأتوبيس النهري الذي يعملان عليه ثم اتضح أنهما باعاه خردة ولسان حالهما يقول "ماحدش هينزل النيل يدور على أتوبيس نهري أو حتى بري، لو يهمهم كانوا نزلوا يدوروا على العبارة الغرقانة، تعال نبيع أم الأتوبيس إحنا أولى بفلوسه".

هل أنا غيور من هذا الخيال الذي يهدد مهنتي ككاتب سيناريو؟ حاشا لله، أنا فقط خائف على مصر لأن الخيال يعدي، ولا أنا ولاأنت تحب أن نرى الحرامية الكبار وقد قرروا سرقة مصر مرة واحدة بدلا من فكها على حتت ثم يذهبوا إلى الأمم المتحدة لتحرير محضر بإختفاء مصر. أو لاقدر الله نصحو كشعب من النوم فنجد أنفسنا مرميين في الصحراء نعاني من آلام مروعة أسفل البطن وعندما نذهب إلى القسم لعمل محضر نجد صورة الرئيس جمال مبارك معلقة خلف مكتب الضابط.

القراءة للجميع.. أما الكتابة فللي معاه فلوس

كنا نجلس أمام الرائي نحتسي كئوس البهجة التي قدمها لنا أبو تريكة ورفاقه أشاوس الأهلي في الشوط الأول من مباراة كأس مصر المظفرة أمام الإسماعيلي اللدود، فجأة ارتجت الكنبة والشقة والعمارة والمنتثة كلها بدوي انفجارات أطارت أحلام النصر من رؤوسنا.

إلى الشبابيك هرعنا فزاد من روعنا تواصل الإنفجارات التي صاحبها فجأة صوت رزع على الباب، بادرت لإنقاذ الباب فوجدت جاري محمود يتصبب عرقا وقلقا ويسألني "سمعت أصوات الإنفجارات"، قلت بجفاء يليق بجارين لم يتحابا في الله أبدا " اللي خلاني أسمع صوت ترزيع الباب أكيد هيخليني أسمع الإنفجارات"، التفت إلى باب شقته الموارب ثم قال هامسا "معلهش أصل المدام والعيال مارضيوش يغيروا الماتش ويجيبوا الجزيرة عشان أشوف حكاية الإنفجارات.. أصلهم أهلاوية زبال.. قصدي أهلاوية زيك وفاكريني عايز أقل فرحتهم عشان زملكاوي.. قلت آجي لك.. ماأنا عارف إن المدام مش هنا وعندك صحابك"، دوي إنفجار جديد منعني من إلقاء محاضرتي المعتادة عن حرمانية التجسس على الجيران، في ثوان كان محمود

يتوسطنا على حافة البلكونة محلقا في السماء ليستطلع مصدر الإنفجار، قبل أن يندفع إلى الداخل فيسبقني إلى الريموت جاريا الجزيرة التي كانت تذيع صور ضحايا إنفجار معتاد في الرمادي بالعراق، قلوبنا انقبضت من الفال الوحش فسارعنا بتغيير القناة إلى قناة ميلودي لكي تهدأ أعصابنا قليلا، وجدناها مغلقة لوفاة والد مالكها بعد دفعه من شرفة لندنية، كدنا نحول إلى مزيكا أطال الله عمر أهلها، لكن صوت إنفجار جديد ذكرنا بالله، فاستجبنا لإقتراح أحدنا أن نحول على القناتين الأولى أو الثانية لنختبر الريادة الإعلامية في حدث جلل كهذا، فجأة وجدنا أمامنا ليل القاهرة تضيئه الألعاب النارية والشاشة مكتوب عليها " إحتفالات إنطلاق الحملة القومية لمهرجان القراءة للجميع".

لولا أنني صاحب التلفزيون لكنا كسرنا التلفزيون على صاحبه، المذيعة قالت لنا ولعموم أبناء الشعب أن الإحتفال مقام بدار الأوبرا القريبة من منطقتنا ففسرت لنا قوة صوت ماظنناه إنفجارات، ثم قالت لنا أيضا أن المهرجان أتم اليوم سبعة عشر سنة، صديقنا شوقي لم يفرح للمهرجان كما هو مفترض فقال برخامة " هانت بكره يبلغ ويطلع باسبور ويهج من البلد"، تركنا المذيعة وهي تحاول تضخيم صوتها ليليق بجلال الحدث، وعدنا إلى الماتش الذي كاد يلفظ أنفاسه الأخيرة على يد المعلق الغتيت، الأستاذ محمود أطلق كعادته ملاحظة ثاقبة هي أن ثمة معارضا مندسا في إدارة مهرجان القراءة للجميع الذي تشمله السيدة الأولى بعين رعايتها، بحيث اختار إطلاق المهرجان في نفس توقيت

إذاعة ماتش الأهلي والإسماعيلي لكي لايشاهد وقائع إطلاقه أحد سواها والوفد المرافق لها في دار الأوبرا فيغيب فضل سيادتها عن عموم جميع الشعب المحب لها وللقراءة، على الفور طلبت منه أن ينجر على بيته داعيا الله ألا يكون لدى أحد من علية القوم دماغه السم فيضارُ الغلبان الذي اختار التوقيت لأن أحدا لن يصدق أنه مالوش في الكورة.

نزلنا بعد الماتش لكي نستمتع بتحليله سويا على القهوة بعيدا عن سخافة الأستديوهات التحليلية التي صارت على قفا من يذيع، على ناصية شارعنا امتدت إلينا يد المتسولة التي تؤجر الناصية من رمضان زنجر البلطجي، أحب صديقنا رضا أن يستظرف فأخرج كتابا من شنطته ووضعه في يدها قائلا لها " كل سنة وإنت طيبة.. النهارده عيد ميلاد مهرجان القراءة للجميع"، ماأستطيع أن أنشره من رد فعلها قولها وهي تلوح بنسخة الكتاب " قربوا عليك ساعة وسكتوا ياإبن النسخة".

على طول طريقنا إلى القهوة رأينا بشرا أكثر من الهم على القلب ولم نلمح أحدهم يحمل سوى همه، لاوجود لكتاب مع أي أحد أيا كان جنس جلدته، سألنا بعضنا "طب آدي الجميع .. أمال فين القراءة".

في القهوة كان "الجميع" منشغلا بقراءة أوراق الدمنة والكوتشينة وزهر الطاولة بينما مافتئ خبير ثقافي في التلفزيون يحكي كيف تغيرت حياة المصريين في عهد مبارك بفضل مهرجان القراءة للجميع، كلامه كان مؤثرا لدرجة أن المصريين

الذين في القهوة غيروا القناة.

وأنـــا عائد إلى البيت انبعث من راديو التاكسي صوت مذيعة تستضيف رئيس "تحرير" احتل منصبه قريبا، كان يتحدث بحماس عـــن الـــثورة الثقافية التي تشهدها مصر على يد الرئيس مبارك، وأن الكـــتاب في عهده تمكن من هزيمة كل وسائل الإعلام وتربع علـــى العـــرش، انـــبعث صوت مريب من حنجرة السائق، ظننته صـــوت الكاربراتيـــر، فقلـــت متثبتا " إيه رأيك ياأسطى في كلام الـــراجل ده.. إنـــت فعـــلا شايف إن الكتاب تربع على العرش؟"، أجابنـــي بهدوء شديد "مش عارف بس أنا حاسس من كلام الراجل ده إنه فعلا عرش".

لقاء في شارع الثورة!

• مــساء الخيــر عزيزي المواطن.. تحب حضرتك تشترك معانا في البرنامج

- على حسب الإشتراك بكام؟

• آه ده شكله عسل وهيتعبنا.. يافندم أنا قصدي تشترك معانا برأيك؟

- والله يافندم أنا لو كان عندي رأي أحب أحتفظ بيه لنفسي.

• حــضرتك مكبر الموضوع ليه.. ده برنامج إذاعي بنحتفل فيه بذكرى الثورة

- يافرج الله.. هي الثورة قامت؟.. والله ماحد قال لي

• لاحول الله يارب.. عزيزي المواطن إحنا بنتكلم عن ثورة يوليو بتاعة الزعيم جمال عبد الناصر

- أيوه عارفه.. جمال عبد الناصر مبارك.. شاب أمير وربنا هينصره علينا إنشاء الله

• لا مــش هيــنفع كــده خــالص.. شوفوا لنا مواطن تاني والنبي.. عشان اليوم المجيد ده بعدي

المعد: باقولك إيه ياهانم.. ده المواطن المتاح دلوقتي.. مشي حالك بيه لحد مانلاقي غيره

- يافندم حضرتك متعصبة ليه.. أنا باهزر معاكي.. حد مايعرفش ثورة يوليو.. مش دي اللي ثورة أطلقها جمال.. وإحنا حفرنا القنال وبعدين حررناه وبنفكر نبيعه دلوقتي.. أنا راكب معاكي في البرنامج.. اتفضلي

• الصبر من عندك يارب.. حضرتك ممكن نبتدي نسجل بس أستسمحك الإجابة تبقى على قد السؤال

- والنبي البرنامج ده هيبقى عسل.. إنتي بس شوطي وربنا هيكرمنا

• أعزائي المشاهدين كل عام وأنتم بخير.. في هذا اليوم المجيد نزلنا إلى شارع الثورة لننقل فرحة المواطنين بهذا اليوم التاريخي الذي غير وجه مصر.. التقينا بأحد المواطنين وسألناه عن رأيه في مبادئ ثورة يوليو؟

- هي ثورة يوليو عندها مبادئ. والله ماكنت أعرف.

• أيوه يافندم ثورة يوليو عندها ست مبادئ

- ياعيني.. ده الواحد مننا بيبقى عنده مبدأ بيطلع عينه في الزمن ده وهي عندها ستة.. الله يكون في عونها.

• إيه اللي حصل للناس بس يارب. ياسيد يامحترم مبادئ يعني أهداف

- والله.. يعني الثورة عندها ست أهداف زي الأهلي كده.. وجابتهم في مين؟

• ماهو ده السؤال يافندم؟ في رأيك كاين من أبناء مصر بعد مرور ٥٥ عاما على الثورة ماالذي تحقق من أهداف ثورة يوليو؟

- إنتي مش بتقولي إنها جابت ست أهداف خلاص.

• يابني آدم إفهم الثورات غير الماتشات.. الثورة بتيجي بأهداف وبعد كده بتحققها. فهمت؟

- أيوه فهمت.. يعني في الماتش بنلعب عشان نحط الهدف.. في الثورة بنحط الهدف وبعد كده بنلعب فيه.. والنبي ماتتنرفزي ياست هانم.. أصل أنا والله أول مرة أسمع حكاية أهداف الثورة دي.. حضرتك قولي لي الهدف وأنا أعلق لك عليه بعون الله

• معقول برضه.. بص ياسيدي أول هدف من أهداف الثورة القضاء على الإستعمار وأعوانه، إيه رأي حضرتك في هذا الهدف؟

- ارجوكي أعذريني أنا ماأحبش أجيب سيرة الإستعمار

• ليه إنشاء الله؟

- عشان أعوانه هيزعلوا.. وزعلهم أوحش من زعل الإستعمار ذات نفسه

• إنت غريب قوي على فكرة.. بلاش الإستعمار.. عندك مثلا من أهم أهداف الثورة كان القضاء على الإحتكار وسيطرة رأس المال على الحكم

- من فضلك أنا وافقت أسجل على أساس إن ده برنامج تاريخي.. ومش هتجيبوا سيرة أحمد باشا عز وحديد عز .. أنا عندي عيال وعايز أعالجهم

• إيه علاقة أحمد باشا عز وحديده بالموضوع يا أخينا

- مش بتقولي إحتكار.. عايزه تخليني أقول الكلام اللي

بيقولوه عليه بتوع المعارضة إنه محتكر الحديد عشان هو صاحب جمـــال مبارك وأمين تنظيم الحزب الوطني.. بصي بقى أنا شاكك فيكو بصراحة.. إنتو من قناة إيه.. معاكو كارنيهات

• بيه ده هيقلب دماغنا.. بلاش ياسيدي الهدف ده.. خلينا في هدف غيره.. عندك مثلا هدف القضاء على الإقطاع

– حضرتك بتتكلمي عن الثورة الفرنساوية ولا ثورة يوليو.. ممكن توريني كده الورقة اللي بتقري منها

• من فضلك ممكن تعلق على الهدف وإنت ساكت

– إزاي يعني.. أعلق وأنا ساكت إزاي

• قصدي تتكلم في صلب الموضوع

– ماهــو معلهــش ياست هانم.. إنتي عماله تقولي لي قضاء على الإقطاع وتحقيق العدالة الإجتماعية بين طبقات الشعب.. إنتي مش عايشه معانا في البلد.. أنا حاسس إنك بتتبلي على ثورة يوليو وبتلزقــي لها أهداف من وراها.. أصل يعني لو ثورة يوليو كانت بتهدف للكلام ده ماكانتش هتقعد ٥٥ سنة من غير ماتحققه.

• طــب خــلاص خــلاص أنا هاختار لك هدف تاني وقول تعليقك بأدب لو سمحت.. وبلاش ألفاظ تلزقي وتتبلي والكلام ده.. تهــدف ثورة يوليو إلى إقامة حياة دستورية وديمقراطية سليمة.. حضرتك بتضحك ليه؟

– أصلي افتكرت إنها سليمة سليمة.. فاكره لما الكافر في فيلم فجر الإسلام قال شلت يدي وبعدين ضحك عليهم وقال إنها سليمة سليمة.. آه ياكفرة.. إنها سليمة قال

• طــيب نكتفــي بهــذا القدر مع المواطن الكريم لكي نتيح الفرصـــة لعــشرات المواطنين الذين يتسابقون خلف الكاميرا على إبــداء رأيهم في أهداف ثورة يوليو. كفاية كده أنا مش مكملة مع الــراجل ده.. أبقى ست مش كويسة ويارب أتنقل القناة التامنة لو كملت معاه

– المعــد: طيب خلاص هدي نفسكي ياهانم.. هنمشيه.. بس إنتي إهدي والنبي

• إيــه ده.. مــش ممكــن.. ده لسه واقف هنا.. إنت ياأخينا ماتتوكل على الله وتمشي من هنا.. ماخلصنا التسجيل.. إنت واقف هنا ليه؟

– مستني إعادة "الأهداف".

إن لله جنودا من قش!

كـان الأخ النجل جمال مبارك يقف أمامنا في القهوة منتصبا قرب النصبة، يلف ويدور يمينا وشمالا على منصة المؤتمر العام للحـزب الوطني الحاكم مصدقا نفسه أنه قدها وقدود وغير منتظر أن تـصدقه، ومـتحدثا بـثقة تـشي أنه أخذ في الأشهر الماضية كورسات مكثفة في الإلقاء والأداء المسرحي والفوناتيكس وفنيات الـتخاطب، إلـى جواره جلس "الأونكلان" صفوت الشريف وعلي الدين هلال ينظران بفخر إلى عمايل أيديهما، ويلهجان بالدعاء لله أن يكـون سـيادة الـرئيس مبسوطا من الشغل اللي إتعمل، بينما القاعـة تـشغي بأناس يبدو عليهم أنهم منبهرون بما يسمعونه من إنجـازات بيـنما المفـروض أنهـم يعلمون سلفا بهذه الإنجازات ولايفاجـأون بهـا معنا، كلما مرت الكاميرا على أحدهم أخذ يهز رأسـه بقـوة لا لكي يدخل الكلام دماغه بل ليثبت أن الكلام خبط شـغاف قلبه فأفقده القدرة على التحكم في أعصابه، بينما البعض الآخر يستمع صامتا كأنه يفكر بعمق في مايسمعه بينما الحقيقة أنه يفكر في اللحظة المناسبة لبدء التصفيق.

كنت أجلس على القهوة ألاعب صديقي دور دمنة.. عادة، بعد أن توقفـنا عن لعب الدمنة الأمريكاني لكي لانلقى مصير الدكتور

سعد الدين إبراهيم، قلت لصديقي وأنا أنظر إلى شاشة التلفزيون ثم أحاوره "تفتكر مصر فين دلوقتي؟". السؤال سمّع في القهوة التي لايصح أن ينفرد الإنسان فيها بحديث، تلقيت عليه إجابات عديدة بوخت السؤال "مصر عند دكتور الأنف والأذن بعيد عنك.. مش عارفه تاخد نفسها من السحابة السودا.. مصر بتاخد العزا في ولادها اللي غرقوا.. تاخد عزا مين ياعم إنت.. مصر مربطة مع سمسار عشان تسافر إيطاليا وتستريح من الغلب اللي شايفاه.. والنبي سيبوا مصر في حالها.. إحترموا مشاعرها.. ألا صحيح هنجيب لمصر هدية إيه في عيد الأم؟".

صديقي الموضوعي الذي لم يعجبه ذاك الهزل في موضع الجد قال لي بعمق مشيرا إلى التلفزيون "بس ماتقدرش تنكر إن أداءه تطور؟"، تجاهلنا أنا وهو أصواتا مريبة جاءت من الخلف والجناب والونجين متعاملين معها بحسن نية لامناص منها حفاظا على وحدة الجبهة الداخلية للقهوة؛ حاولت أن أكون موضوعيا أنا الآخر فقلت له بهدوء وبالنحوي لكي لاأنجرف وراء إغراءات العامية التي لاتخفى عليك "طيب ياعمنا عقبال مالبلد نفسها تتطور.. ياسيدي لو كانت البلاد تحكم بالأداء لكان هتلر أعظم حاكم شهدته البشرية.. هل أصبح غاية مانتمناه كل عام أن ننتظر مؤتمر الحزب الوطني لكي نرى أن السيد جمال أصبح قد ثقة بابا فيه".

فجأة قطع حديثنا صراخ إمام القهوجي الذي لم نعد نعلم من فرط إنفراد بصناعة القرار في القهوة هل هو مجرد كبير صبيانها

أم أنه مشارك فيها كما يقول أحيانا في غياب صاحبها المعلم أبو النجا، كان إمام القهوجي ساخطا لأن أغلب زبائن القهوة قرروا مقاطعة الشيشة تماما مكتفين بما خف ثمنه من المشاريب ومستلقين على كراسي القهوة لإستنشاق السحابة السوداء التي تحقق لهم نفس مفعول الشيشة دون أن يكونوا مضطرين للتذلل لإمام لكي يغير الحجر أو يأتي بالولعة.

لم يجد صراخ إمام نفعا مع زبائن القهوة الذين ارتموا على الكراسي كأنهم خشب مسندة مشرعين مناخيرهم إلى السماء، سائلين الله ألا يرزق البلاد بمطر يبوظ ماعملوه من دماغ، استدار إمام إلى التلفزيون وأخذ يصيح في وجهه، وجه التلفزيون طبعا، فأنا لن أبلغ عن إمام فهو أخ عزيز علينا كلنا، "حرام عليكو بطلوا بقى.. وقفتوا حالنا.. لما إنتو مش قادرين على السحابة السودا هتقدروا على الغلا والكوا إزاي"، تستطيع أن تقول أن هذه الجملة هي تلخيص منهجي لما قاله إمام لأن إمام عندما يكون غاضبا يفقد منهجيته بحيث لايمكنه السيطرة على لغة خطابه الذي يتحول حينها إلى خليط غير متجانس من الحروف المنطوقة وأصوات الإنسان الأول ولغة الجسد مع لجوئه أحيانا لوضع إصبعه.. على المشكلة.

لم يكن إمام أهوجا كما قد تظنه، بدليل أنه عندما قام عم حسيني – أكبر زبائن القهوة سنا وأكثرهم إحتراما لأنه عاطل منذ سنة ٨٢ وبالتحديد عقب إختتام فعاليات المؤتمر الإقتصادي الأول والأخير – بتنبيه إمام إلى أن يواصل إفراغ غضبه في إتجاه آخر

غير التلفزيون "عشان ماتتمسكش متلبس وتودينا كلنا في داهية ياإبن الـ..."، قال له إمام مطمئنا أنه يعرف مايفعله جيدا، فالمخبرون كلهم هذه الأيام في قاعة المؤتمرات وماحولها في مدينة نصر لتأمين مؤتمر الحزب الوطني، لم يكد إمام يكمل جملته حتى كان عم حسيتي قد انقض على التلفزيون فاعلا ما لايليق بشخص قضى كل هذه السنين مع البطالة.

أنا وصديقي نحب الجلوس مع الغوغاء لكننا لسنا غوغائيين، نحن أناس موضوعيين، لذلك ظللنا نتأمل كيف أن لله جنودا من قش الرز، أفسدت كل ماصرفه قادة الحزب الوطني من ملايين لكي يقنعوا الناس بأنهم قادرون على أن يشيلوا مصر من وحلتها التي لايعرف أحد من بالضبط هو الذي رماها في هذه الوحلة، نحن موضوعيون لانربط الشأن الخاص بالعام، ولذلك تركنا الشأن العام واكتفينا بالخاص، صديقي سألني عن إبنتي الكبرى التي لاتكاد الكحة تغادرها بفضل سحابات الحزب الوطني السوداء، فرددت له المجاملة بأن سألته عن خالته التي لم تعد تستطيع العيش بدون بتاع الأنابيب، أنابيب الأكسجين، فجأة اقتحم علينا ود مجاملاتنا الشاب جابر الذي تخرج من معهد الخدمة الإجتماعية قبل أن يصبح المعهد كلية وقبل أن تخدم أم جابر في البيوت لتصرف على تعليم جابر، مد جابر يده لنا بصفحة المحافظات في جورنال الأهرام، وقال لنا بصوت جهوري لايليق بفرق السن بيننا وبينه "تسمعوا إيه ده ياأساتذة يامثقفين يا..."، تجاهلنا الشتيمة الأخيرة ونظرنا إلى الصفحة التي قصها جابر من جورنال

الأهرام، كلنا كان يعرف أن جابر تربطه علاقة خاصة بالأهرام، فهو يقرأها دون غيرها من صحف الحكومة لأن لديه دائما أمل كبير في وربنا ان يعدل حاله فيصبح لديه سيولة تكفي لأن ينشر نعيه في الأهرام، "عشان أحس لما أموت إني بقيت بني آدم"، المشكلة أن جابر يشتري الأهرام كل يوم ولايقرأ العدد الذي يشتريه إلا بعد شهر كامل من تاريخ صدوره، مبررا ذلك بقوله "عشان أحس إن البلد لسه بخير"، إصبع جابر وجهتنا إلى حيث يجب أن ننظر، خبر يتصدر صفحة المحافظات عنوانه (رغم الإجراءات.. بدأ مسلسل حرق قش الأرز)، تحته مباشرة خبر عنوانه (للقضاء على السحابة السوداء قبل ظهورها: محافظ الشرقية يقود رؤساء المدن لمواجهة الحرائق)، لم يدع لنا جابر فرصة لنتأمل الخبرين مليا، أشار إلى الخبرين بإصبعه ثم أشار بإصبع آخر إلي حيث تتجه أصابع إمام وعم حسيتي ثم قال لنا بصوت أكثر جهورية وأشد عدوانية "الناس دي عايزه مننا إيه.. إزاي الحرايق إبتدت وإزاي المحافظ بيقضي عليها قبل ماتظهر.. يعني أبطل الأهرام وأرجع تاني أشتري الشعب وأنفع حزب العمل"، لم نرد أن نصدمه بأنه لم يعد هناك عمل ولا شعب أساسا، هب فينا مجددا "ساكتين ليه ياأساتذة يامتنورين يامتعلمين.. أنا مش عايز أعرف مين اللي حرق قش الرز.. أنا عايز أعرف مين اللي نشر الخبرين دول فوق بعض.. وعايزك تعرف لي ده حالا"، صديقي الموضوعي زاد الطين بلة عندما طلب ينسون لجابر لكي يهدئ أعصابه، فجأة أمسك جابر بخناقه صارخا " إيه ياله..

شايفني باتحرش بيك عشان تطلب لي يفسون وتهديني.. أنا باسألك سؤال لو مش عارف إجابته قول أنا حمار ومش فاهم حاجة.. عشان أستريح وأحس إني مش لوحدي اللي حمار"، صديقي يعرف أن الحارة سد مع جابر، ولذلك على الفور أقر أنه حمار ومش فاهم حاجة، وأنا أمنت على كلامه بأنه فعلا حمار، هدأ روع جابر الأهرامجي واتجه بخطوات ثابتة إلى التلفزيون ليزيح عن طريقه كلا من إمام وعم حسيني ويوجه إصبعه – السبابة للأمانة – نحو الشاشة، قائلا بصوت هادر "إحنا لو كنا عايشين في بلد تعرف ربنا.. كنا قفلنا القاعة دي عليكو وفصلنا التكييف من مفتاح اليانشيفو بتاعه.. وحرقنا لكو عشرين شوال قش رز عشان تورونا هتتقدموا بينا إزاي"، ثم اتجه من فوره إلى مبولة القهوة، وظل بها قرابة النصف ساعة ثم خرج منها مبتسما رائق الروح ناصحا الجميع بأن يدخل إلى المبولة فورا لو كان يريد "شم شوية هوا نضيف".

ظلت إبتسامة جابر مرتسمة على وجهه وهو يخرج من القهوة التي لعلع فيها صوت إمام القهوجي صارخا في المتدافعين على شم الهواء النضيف "بالدور ياجدع منك له.. مافيش فايدة، عمركو ماهتبقوا بني آدمين.. حلال اللي بيعملوه فيكو والله".

ملاكي قريش!

"ملاكي قريش". هكذا اختار ذلك المواطن المجهول الهوية أن يكتب على لوحة سيارته مخرجا لسانه للدنيا والمجتمع والقانون قبل أن يضبطه لواء شرطة نابه على طريق الصف – إطفيح.

أقول لنفسي وأنا أشاهد صورة لوحة سيارته على الصفحة الأولى في صحيفة الأخبار: يخرب بيت الدماغ العالية التي دفعته إلى تصرف كهذا، من هو وماحكايته، هل وراء اختياره لهذه اللوحة وعي سياسي ساخر دفعه لتكثيف كل مانحياه في كلمتين فحسب"ملاكي قريش"، أم أنها جاءت معه هكذا ربما من وحي نكتة أبو العربي الشهيرة التي لو حكيتها لك اليوم لتعرضت لإهدار دمي غدا.

عندما شاهدت لوحته كنت ضيفا على الصديق الباحث أحمد المسلماني في فقرة الصحافة ببرنامج القاهرة اليوم الذي تذيعه محطة أوربت الفضائية، قررنا أن نحاول الهروب إلى البهجة، خاصة أن الفقرة التي سبقتنا كانت تروي دراما الوزير السابق توفيق عبده إسماعيل بكل مافيها من نكد وعبث جعله يقضي سنين طويلة في السجن دون أن يعرف أحد على وجه اليقين هل هو برئ أم مذنب.

قررت أن أستعير مدخل صاحب لوحة ملاكي قريش متعاملا معها كموقف سياسي وجدته مناسبا بشكل مذهل لقراءة الواقع كما تعكسه الصحف، بدأت القراءة قبل أن تصبح على الهواء وياليتني ماقرأت. خذ عندك، المصري اليوم تنشر صورة لسائق ميكروباص يربط يده اليمنى بلفافة شاش غارقة في الدماء بعد أن بتر ضابط شرطة من طغاة قريش إصبعه لأنه رفض أن يشتري له كارت شحن موبايل. الوفد تنشر صورة موجعة التقطها المصور مجدي شوقي داخل عنبر بإحدى مستشفيات الشرقية، مصريون فقراء وجوههم شتى يوحدها البؤس، كأنهم منفيون في شعب أبي طالب، بعضهم ينام على أسرة العنبر المتهالكة التي تصلح للتعذيب أكثر من صلاحيتها للعلاج وبعضهم ينام على الأرض فوق بطاطين في إنتظار المجهول وبعضهم ينام على البلاط حيث تمرق القطط إلى جواره وقد بدت عليها علامات الرضا ربما لأنها لن تكون مضطرة للعلاج على أيدي أطباء المستشفى. صحيفة صوت الأمة تنشر صورة والد طفلة إبتلعتها بالوعة مجاري في المقطم يجلس على الأرض ناظرا إلى البلاعة بذهول، على بعد أسطر في نفس الصحيفة ونفس الأمة قصة أشد مرارة لخمسة مواطنين قتلتهم الغازات السامة المنبعثة من بلاعات الصرف الصحي والصحيفة تنقل عن المحافظ عبارة تليق بسيد من سادات قريش "يستاهلوا اللي جرى لهم". قبل عشرين عاما كنا نطالب بحق العودة للفلسطينيين، اليوم نطالب به لبدو سيناء وإخواننا في النوبة وأهالي قلعة الكبش فهل نطلبه قريبا لقاطني

شارع مصدق. في صفحة كاملة تنشر الأسبوع إستغاثات الفقراء وأوجاعهم مفرقة الأسر التي تطلق الإستغاثات إلى أسرة فقيرة جدا جدا واسرة فقيرة جدا وأسرة فقيرة، عليك أنت أن تختار هل تمد يد العون للفقيرة أم للجدا أم للجدا جدا، يستحسن أن تتخذ قرارك قبل أن تقرأ في العدد المقبل استغاثة أسرة فقيرة جدا جدا جدا، تعتذر الأسبوع لأن فقر الناس لم يعد قابلا للوصف سوى بإضافة جدا مع كل حالة تفوق سابقاتها فقرا وفاقة. الأهرام تنشر حكم محكمة بالسجن المشدد ١٥ عاما لعاطلين سرقا طالبا جامعيا، لكنها لن تنشر أبدا أي حكم على الذي جعلهما عاطلين يبلغان من اليأس مبلغا ينسيهما أن الريح لن تأخذ شيئا من البلاط سوى ١٥ سنة سجن.

تبدأ إذاعة الفقرة على الهواء فأستعرض الصحف متحاشيا النكد مااستطعت ورابطا ماأقرأه بلوحة ملاكي قريش، تنتهي الفقرة لأتلقى طيلة الطريق مكالمات تهنئة على فتاكتي في قراءة الواقع، قبل أن أخلد للنوم أستعرض ماقلته فأشعر بخزي شديد وأجد نفسي مجبرا على الإعتذار لقريش التي كان لدى بعض سادتها مكارم أخلاق شهد سيدنا النبي أنه جاء ليتممها.

جبروت قريش كان خائبا لدرجة أنه سمح للصحابة أن يلتقوا في دار الأرقم سرا لسنوات، حالات القتل تحت التعذيب كانت نادرة ومستهجنة ووجدت أحيانا سيدنا حمزة ليوقفها، والصحابة تمكنوا من الهجرة إلى الحبشة والمدينة لأنهم لم يوضعوا في سجن أبدي لايعرف له الدبان الأزرق طريق جرة، زائد أن أمية بن أبي

خلف لم تكن الدناوة لتصل به إلى أن يعذب سيدنا بلال من أجل كارت شحن.

في اليوم التالي يقابلني عند بتاع الجرايد شاب متحمس مسبغا علي من الثناء مالاأستحق قبل أن يتلفت حوله ويهمس" كان نفسي تكمل جميلك في موضوع قريش وتقول لنا مين في أيامنا دي أبو جهل ومين أبو لهب". الحقيقة ماعرفتش أرد.

حكومتك في العشة ولا طارت؟

لي صديق من كبار المتشائمين والإنهزاميين أطلقت عليه منذ عرفته "المتوجس خيفة"، لأنه لايثق إطلاقا في أي شيئ تبثه وسائل الإعلام ويعتبره مكيدة منصوبة له ولباقي أفراد الشعب المصري، يكفي لتوضيح شخصيته أن أخبرك بأنه يعتقد أننا لم نفز فعلا بكأس الأمم الإفريقية العام الماضي وأن السنغال هي التي كسبتها في مباراة سرية لم تذاع، وأن الحكومة قبضت فريق كوت ديفوار لكي نكسبه كده وكده لتنسي الشعب المصري أحزانه على كارثة غرق العبارة، لاحظ أنه لايقول رأيه هذا اعتباطا، بل يحاول أن يدلل عليه بالبحث المستمر حتى اللحظة عن أي موقع سنغالي على الإنترنت ليتأكد من شكوكه،ناهيك عن إستناده لشك منطقي في فكرة أن يقوم اللاعب الدولي دروجبا بجلالة رجله بإضاعة هدف سهل كالذي أضاعه لو لم يكن قابضا من الحكومة، قلت له: لماذا إذن فزنا بشق الأنفس طالما كنا شاريين الماتش، قال لي: سأجيبك لو قلت لي أولا لماذا انتظرنا ١٧ ساعة لكي نبعث قوارب إنقاذ للعبارة الغارقة، ياسيدي كلها أشياء مريبة تحدث في هذا الزمن المريب.

المهم ماإن أعلنت الحكومة عن ظهور أزمة انفلونزا الطيور

في مصر حتى بادرني صديقي المتوجس خيفة بالإتصال قائلا "شفت.. كويس إني قاطعت الفراخ والبيض من شهور وماسمعتش كلامك وكلام الحكومة إن ماقيش إنفلونزا طيور في مصر.. كان زماني باكاكي"، قلت له "كنت أنتظر أن تحمد الله لأن الحكومة عملت بأصلها وأعلنت عن وجود أنفلونزا طيور بشفافية كاملة وأوضحت أن المشكلة تكمن فقط في عشش الفراخ والطيور الموجودة في منازل الغلابة، أما بقية الفراخ بخير لدرجة أن الحكومة بأكملها توقفت عن أكل السيمون فيميه والإسكالوب والستيك ويل دون والستيك تي بون ولم تعد تذوق من الزاد إلا الفراخ، لدرجة أنها تستعد لتنظيم مائدة فراخ مركزية محورية يظهر الوزراء فيها في برنامج البيض بيضك ليأكلوا الفراخ ويقطعوا قول كل خطيب مرجف في الأرض"، كأنني لم أقل له شيئا على الإطلاق، قال لي بإستهانة الواثق "ياعم الفراخ اللي بتاكلها الحكومة دي فراخ متعينة بمرتب ثابت، وفي إدارة كاملة بتكشف عليها وبتراعي طلباتها ده إن ماكانش في كمان ليها طبيب نفسي وأخصائي إجتماعي، إنما الفراخ اللي إحنا بناكلها ياعالم جايه من أنهي مصيبة، والنعمة مانا مصدق إلا لما أشوف وزير الصحة بيجي محل الفرارجي اللي في حتتنا ويتصور مع الفراخ ويبوسها من بقها، ساعتها بس يمكن أصدق"، قلت له "يعني تطلب طلب غير محترم زي ده وبعدين تقولي يمكن أصدق"، قال لي "وأنا إيش يضمني إن الفرارجي مايبيعناش للحكومة.. إذا كان مراتي نفسها أنا مش ضامن تأكلني فراخ فاسدة وتورثني، بيني وبينك بافكر أنتهز الفرصة وأبلغ عنها إنها مصابة بإنفلونزا

الطيور"، قلت له "ومن الذي يمكن أن يصدقك"، قال لي بجدية "قالوا في التلفزيون إن الفرخة المصابة بالحالة لاتبيض ومراتي لاتبيض، يعني تنطبق عليها مواصفات حمل الفيروس"، أخذت أضرب كفا بكف فقال لي ضاحكا "أعلم أنك تتهمني دائما بأنني موسوس ومتشكك في المسيرة وإنهزامي لكنك ستعتبرني رجل اليقين الأول عندما تستمع إلى قصة أم أحمد والدة سائقي وهي والمصحف قصة حقيقية.. تخيل أن الست الحاجة القاطنة بمطار إمبابة رفضت رفضا باتا التخلص من فراخ عشتها وحلفت أنها ستدعو على أولادها بالويل والثبور لو أبلغوا الحكومة عن العشة.. مكتفية بتأكيل الفراخ عسل وليمون معصفر لزوم المناعة.. ومبررة موقفها ذلك بأنه لايوجد أنفلونزا طيور ولانيلة.. وأن الموضوع كله فيه ملعوب عامله تاجر لحمة واصل جايب صفقة لحوم من بره.. ومفهية نظريتها بأن شعب مصر محمي بالأولياء وأنه كما تمكن قبل ذلك من أكل الطيور الجارحة والطيور الفاسدة والطيور المهاجرة وحمامة السلام وطيور الظلام يستطيع أن يأكل طيور عندها شوية رشح بعون الله"، أخذت أستحلفه بالله أن يصطحبني إلى هذه السيدة لأنصحها في الله وأبصرها بالعواقب الوخيمة التي يمكن أن تنتج عن موقفها هذا، وأطمئنها بأن الحكومة هذه المرة تتحلى بالشفافية غير كل مرة، فأخذ نفسا عميقا وطبطب على كتفي وقال لي "لاتؤاخذها ياصديقي.. لأن اللي اتلسع من الريادة ينفخ في الشفافية".

الليلة المباركية

كانت الساعة قد قاربت منتصف الليل بقليل، عندما شق صوت بكاء حاد هدأة الليل في شارعنا المعتم، في البدء ظننت صوت البكاء قادما من شقة ما بها كرب طارئ أو فاجعة مفاجئة، فسألت الله أن يلطف بنا ويعبيده، وحاولت تجاهل الأمر، لكن أصوات البكاء أخذت تعلو شيئا فشيئا بشكل لم يعد ممكنا أن أتجاهله، خرجت إلى البلكونة لأستطلع الأمر، لم تعد الأصوات قادمة من شقق العمارة المجاورة بل أصبحت تنبعث من أحد شقق عمارتي نفسها.

لابد أن حدثا جللا قد وقع في البلاد، إستر يارب، ماالذي حدث وكيف حدث أساسا وأنا أشاهد الآن قناة الجزيرة التي لو كان هناك مصيبة لأذاعتها فورا، أقلب قنوات الأخبار الموجودة على الدش كلها، ثمة مصائب كثيرة لكن لايوجد مصيبة تستدعي أن يعلو البكاء من شقة الأستاذ عاطف الأهبل الذي لم تجعل له زوجته شيئا "يتبكي عليه" حسب تصريحه لها ذات خناقة حامية، الأمر لله، نشوف قناة النيل للأخبار جايز تكون انفردت بخبر المصيبة، كالعادة ليس بها سوى نفس المحلل الإستراتيجي الذي يثرثر مع نفس المذيعين الموظفين والمذيعات ذوات المكياج

الرخيص، نجيب القنوات المحلية، لايوجد أثر لأي مصيبة إذا تجاوزنا عن كون كل قناة منهن مصيبة بحد ذاتها.

لازال صوت البكاء يعلو من الشقق المجاورة، لم يعد صوت بكاء حاد بل أصبح صوت نشيج يقطع القلب مصحوبا بعبارات مثل 'سامحنا.. ليه ماخدناش بالنا من كده.. يارب غفرانك'، مابدهاش بقى، لن أقف مكتوف الأيدي هكذا، سأجد الخبر اليقين لدى جاري اللزم الأستاذ سيد، ربما كانت المصيبة قاصرة على شارعنا بحيث تبادل الناس أخبارها في التليفون، هرعت إليه طارقا بابه، فتح لي والدموع تبلل فانلته الحمالات، "مالك ياأستاذ سيد.. كفى الله الشر"، رد وهو يحاول مسك نفسه بالعافية "مافيش .. ندمان شويتين"، كان يبدو من صوت بكاء وعويل المدام والأولاد المتحلقين في الصالة أنهم يشاركون الأستاذ سيد في ندمه، 'مش عايز أقتحم ندمك.. بس في حاجة أقدر أقدمها'، لم يجب سؤالي فقد زعق في أكبر أبنائه فجأة 'ماتحيطش على الجرنان ياحيوان'، كان إبنه الأوسط الشهير بحيوان ممسكا بصحيفة الأهرام يقرأ شيئا ما في صفحتها الأولى ثم يبكي ويمررها لأخيه الأصغر الذي أخذ يقرأ لأمه الأمية بعض ماهو مكتوب فيها بصوت مختنق بالدموع فتلطم الأم ويتجدد بكاء الجميع. باتت الرؤية إذن، هناك مصيبة في البلد وأنت أيها الغافل لاتدري عنها شيئا، "هو في إيه ياسطى سيد.. ماترسوني على الحكاية جايز أشارككم الندم"، قال الأستاذ سيد بعد أن جفف غدده الدمعية ونظف غدد مناخيره "إنت بالذات هتندم قوي.. هات له

الجرنان يافاشل"، كان الأستاذ سيد متعودا على أن يخاطب إبنه العاطل من سنين بهذا اللقب تشجيعا له، أعطاني الفاشل جرنان الأهرام مشيرا لي إلي برواز في صفحته الأولى كان مبللا بعض الشيئ، لفت إنتباهي العنوان 'كل سنة وإنت طيب ياريس'، بدأت في قراءة السطور الأولى وماهي إلا لحظات وفهمت سر ندم الأستاذ سيد وأسرته وبكاء أهل الشارع بل وأهل مصر كلها من قراء الأهرام، ليس ذلك فقط فها أنا أشاركهم الندم والبكاء وأجتهد في إبعاد الصحيفة عني لكي لاتغرق في دموع الندم التي سالت مني.

" من بين أستار الليل يطلع الفجر.. ومن بين حجب الغيام تشرق الشمس ومن قلب الشدائد والمحن يولد الأبطال العظام.. ومن وسط الأنواء والعواصف يظهر الربان الماهر الذي يقود بيقظة وحنكة وحكمة سفينة الوطن إلى بر الأمان والسلام" هكذا افتتحت الصحيفة العريقة بروازها، صحيح أنني لولا عنوان كل سنة وإنت طيب ياريس لظننت هذا الكلام مقتطفا من آخر ليلة محمدية يشدو به محمود ياسين أو محمد السبع، وصحيح أيضا أنني تأخرت في البكاء الحار قليلا لم أفهم يعني إيه غيام، فأنا أعرف أن الحاجات اللي بتمر في السماء إسمها الغيوم، وصحيح برضك أنني لم أطمئن لمفردات العواصف والأنواء والربان والسلام فموضوع العبارة الغارقة جعل بيني وبين هذه المفردات قلة عمار وإستخدامه في مناسبة كعيد ميلاد الرئيس فيه قلة دراية لولا التأكد من إخلاص من كتب لظن أنه تلقيح صريح، كل هذا

صحيح لكن الأصح أن الكوبليه الثاني في برواز الأهرام أعادني إلى رشدي وسان جيوفاني ولوران من جديد، وجعلني أنخرط في بكاء حاد وأنا أقرأ ماهو مكتوب " نحتفل كلنا هذه الأيام بعيد مولده ونحن معه وهو يقود سفينة الوطن - هناك تصميم على حكاية السفينة لاأدري لماذا لكن ياالله مش إشكال - غير خائفين أوهيابين متقدمين لامتراجعين.. متفائلين لامتشائمين.. معه وبه يمضي زورقنا - فجأة من سفينة إلى زورق لاأدري لماذا هل غرقت السفينة وأصبحنا في زورق النجاة لم يتم تحدي ذلك - .. لكي نرسو كلنا على شاطئ بلا ألغام.. بلا أوهام.. تظلنا معا أشجار التحدي والتصدي - لم أكن أعرف أن هناك أشجار تحدي وتصدي فآخر علاقتي بالأشجار شجرة القرع - لامكان بيننا لمتخاذل هراب ولا لمتوجس مرتاب.. ولامقعد بيننا لحاسد أو حاقد ولاكاره لوطنه ودينه وبيته" - الآن فهمت سر بكاء الأستاذ سيد فهو كل يوم بعد عودته من الشغل يشتم زوجته قائلا ملعون ابوكي كرهتيني في بيتي ويبدو أنه عرف غلطته الآن وأنه يمكن أن يفقد مقعده تحت شجرة الوطن لو ثبت أنه كاره لبيته.

لم أستطع إكمال قراءة برواز الأهرام فقد صرت خاشعا متصدعا من حب الرئيس، هرعت خارجا من شقة الأستاذ سيد لأتركه هو وأسرته يغرقون في بحار الندم لأنهم لم يوفوا الرئيس حق قدره طيلة هذه السنين، قال لي الأستاذ سيد معاتبا "مش تستنى لما تقرأ إنجازات الريس عشان تندم قوي"، قلت له " ندمان من غير ماأقراهم.. لازم أروح ألحق أجيب نسخة عشان أعيط

براحتي وألحق أعدي على بتاع الزرع أجيب شتلة تحدي وتصدي بدل الورد والكلام الفاضي اللي أنا زارعه في البلكونة.. أجيب لك معايا شتلة"، قال لي " لا أصل أنا قلت أجيب شجرة حكمة من اللي كاتبين في برواز الأهرام أن سيادته حجز مكانا لمصر تحتها.. هي مشكلة شجرة الحكمة إنها بتسحب مية كتير بس أهو الواحد يكفر عن أخطاءه شوية"، قبل أن أخرج من باب شقة الأستاذ سيد جذبني من قميصي حتى كاد يفقده من خلاف وقال لي بصوت متهدج "ماإنتاش خارج إلا لما تديني العهد الأول"، بسطت يدي إليه وانضم إلينا أهل بيته إلا إمرأته التي وضعت يدها على كتف زوجها منعا لوساوس الشيطان، وضعنا أيدينا على برواز الأهرام بما فينا الفاشل الذي لم يجد عملا من أربعة سنين، وأخذنا نهتف من أعماق قلبنا بصوت جهير لكي نسمع من في العمارة قائلين "تبنا إلى الله ورجعنا إلى الله وندمنا على إنتقادنا لسياسات السيد الرئيس وعزمنا على ألا نعود إلى ذلك حتى عيد ميلاد سيادته القادم" ثم إنخرطنا جميعا في بكاء مرير لم نتوقف عنه حتى الآن.

وتعيش لنا للممات ياريس.

ياقمرنا إنت ياسكرة!

هل أعجبتك هذه العبارة؟.

ودي عايزة كلام؟. بالتأكيد أعجبتك فأنت مواطن مصري صالح يحب رئيس بلاده كثيرا ويلهج لسانه بالدعاء له بظهر الغيب ويتمنى أن يقابله ذات جولة تفقدية مفاجئة ليقترب منه ويقول له "إني أحبك في الله"، صحيح أن من سيرد قائلا "أحبك الله الذي أحببتني فيه" هم ضباط أمن الدولة الذين سيحققون معك بكل لطف كرتوني حول سر إقترابك المفاجئ من سيادته، لكن ذلك بالتأكيد لن يمنعك من التعبير عن حبك وإمتنانك للرئيس العظيم الذي أفنى عمره كله من أجل شعبه ووطنه، دون أن ينال من وراء ذلك شيئاء حتى عندما حاول أعضاء الطابور الخامس المندسين في الصحف القومية أن يشوهوا صورة سيادته فيقولوا أنه تبرع بعشرين مليون جنيه من جيبه الخاص لشراء أجهزة طبية لمستشفيات الصعيد نسي الحاكم السابق لمصر خلال الربع قرن الماضي أن يشتريها، اندفع إثر ذلك الخبر البهيج حفنة من المعارضين يحتجون ويرغون ويزبدون دون أن يتبينوا من النبأ الذي ساقه بعض الفسقة والمرجفين في الأرض، لكن شمس الحقيقة سطعت في اليوم التالي عندما أعلن مصدر مسئول أن كل

ماتشر في الصحف القومية كان تهيؤات وأن الرئيس مبارك ليس لديه عشرين مليون ليتبرع بها، وأنه أصدر تعليماته بصرف العشرين مليون هذه على وجه السرعة، وبدلا من أن نشكر سيادته ونبوس إيدينا شعر ودقن على رأي اللمبي أخذنا نتساءل بكل جحود: من أين له هذا؟. طبعا من حسن حظ الصحف القومية أن الحكومة لن تعاقبها بقانون الشائعات الجديد الذي أصدرته مراعاة لطول مدة الخدمة، ومن حسن حظنا أن تم التصحيح سريعا لكي لايقوم أهل العيون المدورة بحسد جيب سيادته الخاص الذي اتضح أنه ليس مليئا بالملايين كما حاول أهل الصحف القومية ان يروجوا.

لكن ماشأن كل هذا بالعبارة السابقة؟ بالمناسبة أرجو ألا تكون متأثرا بقرار رفع التحفظ عن أموال قرصان أواطي البحار ممدوح إسماعيل صاحب العبارة الغارقة وصاحب الدكتور زكريا عزمي رئيس ديوان رئيس الجمهورية فتقرأ كلمة العبارة بتشديد الباء، فلاشأن للحديث عن رئيسنا ونظام حكمه بأي عبارات غارقة أو آيلة للغرق، نحن هنا نقوم بتحليل تلك العبارة التي كانت سببا لقراءتك لهذه السطور "وتعيش لنا للمات باريس.. ياقمرنا إنت ياسكرة"؟. من قائل هذه العبارة؟ إذا عرفت الإجابة فاتصل بصحيفة أخبار اليوم واطلب مكتب السيد رئيس تحريرها ممتاز القط واترك عنده الإجابة لتحصل على جائزة فوار يعالجك من آثار قراءة مقالاته.

لن تفعل ذلك طبعا لأنك سيستحيل عليك أن تعرف قائل هذه

الكلمات البليغات المليئات بالحب الصادق الذي كما نعرف جميعا عمره مايحتاج لكلام طبقا لتأكيد السيدة أم كلثوم، لكن الحب الصادق في حالة حب السيد الرئيس يحتاج لكلام كبير مثل هذا. في الحقيقة ولكي لايحتار حمارك أكثر من هذا، التي قالت هذه الكلمات سيدة ريفية بسيطة اعترض طريقها مصور قناة الجزيرة في أحد شوارع القاهرة أثناء تصويره لمظاهرة لبعض المارقين من معارضي الرئيس مبارك والذين كانوا يقومون بترديد أقذع الألفاظ الخارجة عن الآداب العامة مثل "كفاية.. ياقضاة خلصونا من الطغاة.. ياحرية فينك فينك أمن الدولة بيننا وبينك.. لا للتوريث" وماإلى ذلك من العبارات التي تثبت أن أهاليهم لم يعلموهم أن الشتيمة تلف تلف وتتحط في الملف، كانت السيدة تمر خلف هؤلاء القبحاء – جمع أبيح – عندما تحولت الكاميرا إليها فجأة فابتسمت ملء شدقيها ورفعت إحدى يديها إلى السماء، فقد كانت الأخرى ممسكة بكيس بلاستيك إسود مليئ بخيرات مصر، وأخذت تغمغم بجمل غير مفهومة ظنها البعض جملا معارضة مشفرة لولا أنها ختمتها بقولتها التي ستصير مثلا "وتعيش لنا للمات باريس.. ياقمرنا إنت ياسكرة". الله، شايفين الحب التلقائي العفوي، وأيم الله لقد اقشعر بدني وشاب شعر يدي عندما داهمتني هذه الكلمات وبدأت أفكر في كل الكلمات التي خطها يراعي في معارضة الرئيس مبارك دون أن تدرك أن حبه ضارب أطنابه في قلوب بسطاء المواطنين الذين صيرهم حب الرئيس شعراء ينطقون بما يعجز عنه فحول الشعراء.

من أين أوتيت هذه السيدة بكل هاتيك القدرة على تكثيف معاني الحب في كلمات قلائل، وكيف استطاعت أن تجمع بين الفصحى والعامية ولغة الصحافة فضلا عن لغة الجسد بهذا الشكل المعجز دون أن تلجأ لما درج العامة على ترديده من عبارات المديح المبتذلة التي لاتعلق في الأذهان والتي تفضح العيون كذبها وبهتانها؟. لاتفسير عندي لهذا سوى ما يقوله دارسو الشعر ونقاده عن كون الشعر ينبع دائما من أصالة التجربة وصدقها، وأغلب الظن أن هذه السيدة خاضت تجربة حياة حافلة، حافلة بإيه .. ورقم الحافلة كام.. مش مهم، المهم أنها حافلة وخلاص، ولذلك فقد نطقت بهذا الشعر المكثف الذي سيدخلها التاريخ عن جدارة جنبا إلى جنب مع شعراء البيت الواحد الذين قيض الله لهم الأصمعي ليحفظ ماقالوه، ولعله جعلني سببا لكي أحفظ ماقالته لكي يكون شهادة بليغة على عصر الرئيس مبارك، خاصة أننا لم تعد تورث للأجيال القادمة شهادات نكتبها على جدران المعابد فلم يعد دخولها في متناول المواطن العادي، أو حتى على جدران الكباري أهم منجزات عصرنا فقد جعلها الذين لايصونون النعمة مكانا للصنان وبدلا من أن يصيروها مراكز إشعاع ثقافي تصيروا فيها والعياذ بالله.

لكن من قال أن ذلك يمكن أن يمنعنا عن تسجيل هذه العبارة الخالدة في أي مكان نقدر عليه لكي تكون شاهدا على النعيم الذي عشناه في عهد الرئيس مبارك، خاصة أنها لم تصدر عن رجل أعمال كأحمد عز من حقه أن يدعو بمثل هذا الدعاء لمن كسب

المليارات في عهده، أو عن كاتب موالس كان كبيره يمسك الخشب فمسكوه رئاسة تحرير، أو عن قط مسكوه مفتاح كرار الوزارة. فلو صدر هذا الدعاء عن أي من هؤلاء لما وقر في قلوبنا هكذا لكنه صدر عن مواطنة بسيطة يشي مظهرها ساعة التصوير بأنها كانت عائدة من مقر عملها، ولو لم تكن أساريرها منبسطة وخلجاتها راضية بماترتديه من "خلجات" وتحمله من خيرات الدنيا وأطايب الحياة لما لهجت بمثل هذا الدعاء. إنها باختصار واحدة من محدودي الدخل الذين كنا نخوض ونلعب ساخرين من قول سيادة الرئيس أنهم في عقله وقلبه، ثم جاءت هذه السيدة بدعائها لتكشف غينا وزيفنا ويتضح لنا أن القلوب عند بعضيها وأن الرئيس أيضا هو في عقول وقلوب محدودي الدخل،وليس على السادرين في غيّ المعارضة إلا أن يطلعوا منها ويتوقفوا عن لعب دور العذول ويقولوا لأنفسهم في لحظة مكاشفة "ربنا يهني سعيد بسعيدة وشعبنا برئيسه"، ولعلهم يدركون خطل وهطل منهجهم الدنيوي البراجماتي الإمبيريقي الذي يفترض أن حب الشعب لرئيسه لابد أن ينبع من غرق هذا الشعب في العز وأكل الوز، وخلوه من الأمراض والعلل، وتمتعه بما لذ وطاب من الأكل والشراب، مع أن المواطن منا لايجب أن يبتغي من الدنيا سوى قبر يلمه أقصد لقمة تسد رمقه وشربة تروي ظمأه ومكان محندق يحب فيه رئيسه ويدعو له قائلا " وتعيش لنا للممات ياريس ياقمرنا إنت ياسكرة".

لقد أشعرني هذا الدعاء الجليل بصدق وعمق ذلك الكلام الذي

قاله يوما ما الرئيس جمال عبد الناصر عن كون الشعب هو المعلم الأعظـــم، وبعـــد أن كنت أسخر من ذلك الكلام وأقول " إذا كان الـــشعب معلمــــا أعظم فلماذا إذن ترك عبد الناصر كرابيج رجاله تعلّـــم علـــى جسد الشعب"، لكنني الآن أيقنت أن عبد الناصر على حـــق، فقد تعلمت أنا الكثير من هذه السيدة التي جعلتني أتأمل أنني بـــرغم كـــل ماأنا فيه من نعم لاأشكر الرئيس مبارك ولاأدعو له، ولذلك فأنا أقضي وقتي في الحنق والسخط والمعارضة، بينما هي لاتكـــف عـــن الدعاء له بأدعية يعجز عن قولها كبار المتصوفين ولـــذلك فقد كانت الإبتسامة تملأ شدقيها وتنير وجهها المكدود من عناء المحبة. وماأحوجكم إلى أن تسلكوا ماسلكته فتتعلموا من هذه السيدة التسامح والدماثة والبلاغة فتلهج ألسنتكم بأدعية كالتي دعت بهـــا، أمـــا إذا لـــم يزركم شيطان الشعر الذي زارها فاكتفوا بأن تـــرددوا دعاءهـــا وتحفظوه لأولادكم "وتعيش لنا للممات ياريس. ياقمـــرنا إنت ياسكرة"، وإذا سألكم أحد الذين لم يثبت حب الرئيس فـــي قلـــوبهم "يعيش لممات مين بالضبط" فقولوا له على الفور" لممات الشعب طبعا ياقليل الأدب".

رمضان في منشية ناصر

١٨ يوما فقط!

جاءني صديقي الغيور على دينه وهو ثائر ومنفعل ويضرب كفا بكف ويقول لي أنه لم يكن يتصور أنه سيأتي اليوم الذي ترتكب فيه المعاصي في مصر جهارا نهارا دون خشا أو حياء. حاولت تهدئة ثائرته لكن ثائرته رفضت، فطلبت منه أن يتركها حتى تهدأ لوحدها ويبادر ويحكي لنا عن المعصية التي استفزته إلى هذا الحد، فقال لنا أنه لم يشهدها بنفسه وإلا لما كان قد أغفل واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولكن صديقا ثالثا لنا للأسف حكى له أنه رآها دون أن يغيرها، بدأ كلامه يغير دمي، فقلت له: ياعم خلص وإحكي لنا عنها لعلنا نذهب سويا لنغيرها.

بسمل صديقنا وحوقل واستعاذ بالله من الشيطان الرجيم وذم إلى هذا الزمان أُهَيله ثم قال لنا أن صديقه روى أنه اضطر لبعض شئون دنياه أن يذهب في نهار اليوم الثامن عشر من شهر رمضان إلى حي منشية ناصر أحد أشهر الأحياء العشوائية والفقيرة في مصر ففوجئ أن الناس فيها يفطرون جهارا نهارا دون أن تبدو عليهم آثار السفر أو المرض، بل بالعكس كانوا في منتهى الحبور والسرور وكان أطفالهم يلبسون ملابس جديدة ويقومون بفقع البمب في الشارع، ونساؤهم يسرن بصواني الكحك

والغريبة في الشارع، بل وأن إمرأة منهن عزمت عليه بقطعة غريبة ساخنة كادت عينه تطلع عليها، وعندما تمنع خوفا من الله، قالت له: ماتخافش دي معمولة بسمن النخلتين، لكنه أبى أن يعصي الله ويأكلها حتى لو كانت معمولة بسمنة روابي "ذات الطعم البلدي وتحدي"، ونهر المرأة التي شتمته شتيمة قبيحة كان بمقدوره في العادي أن يردها عليها بأحسن منها، لكنه خشي على أجره فاكتفى بأن يقول لها: اللهم إني صائم، ثم لم يقدر فقال لها: ربنا يسامحك يابنت الكلب، عازما أن يحتج بين يدي الله بأن هذه ليست شتيمة بل تقرير واقع، ومضى في طريقه وهو ينظر إلى أطفال المكان وهم يلعبون بالمراجيح البلدي ويرشقون بعضهم بمياه المجاري في حبور، دون أن يفهم مالذي حدث لهؤلاء الناس، ظن أن الفقر أفقدهم عقولهم ومن ثم أفقدهم إيمانهم، فقرروا أن يضربوها طبنجة ويفطروا في نهار رمضان لعلهم بذلك يجتذبون أنظار المجتمع إليهم فيبدأ في حل مشاكلهم المعقدة وينظر إليهم بعين العطف والرضا، أخذ صديقي يدعو الله أن يقيه شر الفقر الذي يفضي إلى الكفر، كان قد وصل إلى الصديق الذي قصده لبعض شئون دنياه، فزاد من حيرته أن صديقه سلم عليه بحفاوة وقال له " كل سنة وانت طيب"، قال له "طيب إيه بقى هو انتو خليتو فيها رمضان ولا نيلة.. ده إنتو عيدتو مع نفسكو"، استغرب صديقه كلامه وقال له "مانا باقولك كل سنة وانت طيب بمناسبة العيد.. هو إنتو ماعيدتوش تحت" (كان يقصد بتحت هذه القاهرة الكبرى وضواحيها والمقيمين خارجها مع مراعاة فروق

التوقيت.. فأهل منشية ناصر يعتبرون أنفسهم فوق لأسباب جيولوجية لا طبقية). ظن صديقنا الأمر استغالة فشخط فيه قائلا "جرى إيه ياعم.. إنت هتخسرني صيامي.. عيد إيه وزفت إيه.. خلصني خليني اشوف مصلحتي.. عشان شكلكو هنا فايقين ورايقين"، أخذ المنشاوي الناصري – نسبة إلى منشية ناصر – يهدئ من روع صديقنا وعزم عليه لأكثر من مرة أن يشرب ليمون لكي يروق دمه، ثم توقف عن ذلك لما وجد هذا العرض يزيد من انفعاله، ثم حكى له أن الحكومة هذه السنة عملت شهر رمضان ١٩ يوم بس كهدية للناس بمناسبة فوز الرئيس في الإنتخابات وأن شيخ الأزهر قال أنه لايوجد مانع طالما رأى ولي الأمر أن في ذلك مصلحة للناس خاصة والإسلام دين يسر لاعسر، هب صديقنا ثائرا يريد أن يفتك بالمنشاوي الناصري وأخذ يتهمه بالهرطقة والزندقة، لكن الرجل استشهد له بأكثر من جار له أكدوا له نفس الكلام، ثم استدعوا عم الجارحي الموظف السابق بشركة ألبان والخارج معاش مبكر وهو من أكبر أهل المنطقة سنا وأكثرهم ثقافة وعلما، وقد حاول عم الجارحي أن يمتص غضب صديقنا القاهري فأكد له أن هذا الكلام جاء بتوجيه من السيد الرئيس القادم جمال مبارك، وأنه تم نشره في جريدة روز اليوسف التي يعلم الجميع أنها جريدته المفضلة. انفعل صديقنا بشدة وقال له: والمصحف لأنزل أبلغ عنكو في الأزهر دلوقتي يقيموا عليكو الحد، ولا عشان كفرانين من عيشتكو هتكفروا رسمي، خاف الجمع من تهديد صديقنا فأخذوا يعاتبونه

علـى أنه ظن بهم الشر وتخيل أنهم يمكن أن يفطروا جهارا نهارا لمجـرد أنهـم كفرانين من عيشتهم وفقرهم، بل وقال له أحدهم "معقـولة تعمـل كده عشان نعيش في جهنم دنيا وآخرة"، استلم عم جارحي زمام الحديث ثانية وقال لصديقنا أن كل الحكاية أن "ست الكـل السيدة سوزان مبارك زارتنا هنا في المنشية الأسبوع اللي فـات ونـورت الدنـيا كلها.. وانبسطنا بيها وانبسطت بينا وبعد مامـشيت قـرينا فـي الجرايد حكاية إن الحكومة هتقدم العيد في منـشية ناصـر، فرحنا قوي وقلنا أخيرا الحكومة حست بينا وإننا صايمين طول السنة ومش لاقيين اللضا وقالت الناس الغلابة اللي في منشية ناصر يصوموا السنة دي ١٨ يوم بس.. وإحنا عارفين إن القـرار ده مـش لـوجه الله.. لا.. ده عشان ننتخب مرشحين الحـزب الوطني.. وبصراحة إحنا هنعمل كده عشان الخدمة اللي اتعملـت ده ماكـانش يقدر يخلصها لنا غير الحزب الوطني ربنا يبارك له.. صدقت بقى إن احنا مابنعصيش ربنا لاسمح الله".

قلـت لصديقي: ماتحكيه مرعب لكنني لاأصدقه، صحيح أن زيارة السيدة سوزان مبارك لهذه المنطقة حدث مهم لأنها تأتي بعد سـنوات من التجاهل الرسمي، وصحيح أن السيدة سوزان مبارك كما قال عنها القط الممتاز في مقاله في أخبار اليوم "نذرت حياتها لإسـعاد الفقـراء والمهمشين"، لكن كل ذلك ليس كافيا لكي تقامر الحكومة بتخفيض شهر رمضان ولو على سبيل الدعاية الإنتخابية أو حتـى التخفـيف عن الناس احتفالا معهم بفوز الرئيس مبارك، خاصـة والبلد مولعة بعد حكاية مسرحية الفتنة الطائفية في كنيسة

محرم بك وضرب عساكر الأمن المركزي للمتظاهرين الغيورين علـى سـيديهات دينهم، ويصعب على الحكومة أن تغامر بالقيام بحركة مثل هذه، عموما الأمر لايستحق السكوت، ولابد أن نذهب سـويا مع صديقك إلى منشية ناصر لنشاهد بأنفسنا. قال لي: طيب استنى بعـد الفطـار أصل نفسي في الغريبة اللي حكى صاحبنا عنها.

بعـد الإفطـار ذهبـنا لصديقنا الذي استغرب تأهبنا وتحفزنا للـذهاب إلـى منشية ناصر، وعندما عرف السبب وقع منا على الأرض مـن شـدة الضحك، ولم يتوقف عن الضحك إلا بعد أن نهرناه بشدة وكدنا نضربه، وعندما هدأ قليلا خشية من ثورتنا قال لنا أنه فعلا ذهب إلى منشية ناصر لكن كل ماحكاه كان من وحي خـياله، اشتغالة يعني، وأن مادفعه لذلك هو أنه قرأ مقالا لرئيس تحريـر روز اليوسـف عـبد الله كمال يعلق على زيارة السيدة سـوزان مـبارك لمنشية ناصر قائلا بالنص "العيد جاء مبكرا في منـشية ناصر" فتخيل صديقنا كل السيناريو الذي حكاه إمعانا في العـبث الـذي جعل عبد الله كمال يكتب كلاما مفضوح الموالسة كالـذي كتبه، انهلنا عليه ضربا وتقريعا لأنه لعب بأعصابنا وكان يمكـن لـنا لو قررنا أن نغير المنكر بدون أن نصطحبه أن نفقد حياتـنا في منشية ناصر إذا ماذهبنا إليها لنلوم أهلها على إختصار شهر رمضان والتفريط في حد من حدود الله. وبعد طول الضرب اعتـرف لـنا صديقنا أن شأن الدنيا الذي ذهب إلى منشية ناصر بسببه هـو أنه كان رايح يجيب حشيش. فلمنا أنفسنا لأننا نسينا

حقـيقة أمره وصدقنا حشاشا أراد أن يسخر من موالس فنسب إلى أناس أبرياء مؤمنين مثل أهالي منشية ناصر مالايمكن أن يفعلوه. كــل ســنة وأنتم طيبون، وكتب الله لنا ولكم زيارة السيدة سوزان مبارك بإذن الله.

معدوم يشتري ترباسا!

مسرحية من فصل مرير - **للكبار فقط**

(كعادتهما كل يوم يلتقي المواطنان محدود ومعدوم لمناقشة هموم الوطن على قهوة العدم.. يسخران من كل حدث أيا كانت قسوته على أساس أن شر البلية مايضحك.. ويتمنيان البلا قبل وقوعه على أساس أن البلا واقع لامحالة.. في هذه المسرحية المنظر ثابت والديكور ثابت وسعر المنتج ثابت.. لاتوجد أي حركة مسرحية تذكر.. على الممثلين الأداء بشكل طبيعي وعدم الإجتهاد في توصيل الحوار لأن المفروض ألا يصل).

محدود: شفت ياعم.. مسكوا السفاح بتاع قرية بني مزار.. طلع سوكوباتي.. يعني مافيش لاعصابة بتقطع الأعضاء الذكرية وتفتح بيها طرب الفراعنة ولانيلة

معدوم: أنا ماكنتش مصدق الموضوع ده.. أعضاء إيه اللي تفتح طرب.. ماطول عمرنا ماشيين بيها وماقتحتش علبة تونة

محدود: أسكت ياعم ده الواحد عاش في رعب اليومين اللي فاتوا.. طول عمري عايش مش خايف من الحرامية عشان ماعنديش حاجة تتسرق.. حتى العمر ذات نفسه اتسرق خلاص.. جه اليوم اللي أقفل الباب بالترباس وأتمم على الشبابيك أحسن

أصحى الصبح ماألقاش أعضائي

معدوم: ياعم يعني هي كانت عملت لك إيه أساسا.. على الأقل لو اتاخدت منك هتريحك من الإحراج

محدود: على رأيك.. بس والله الناس اللي ماتت دي حاجة تقطع القلب.. ربنا يرحمهم برحمته.. اللي حصل ده مخلي الواحد يشك في صوابع رجليه

محدود: إيه ريحتهم وحشة؟.. بص لما تروح يلاش تغسلهم بمية سخنة.. هي اللي بتعمل الريحة

معدوم: مية سخنة إيه ياعم.. هو أنا باغسلهم أساسا.. المية مقطوعة بقى لها فترة.. من ساعة ماحصل عطل مفاجئ في الماسورة الأم وهم مش عارفين يلاقوا لنا أم تانية عشان نستحما

محدود: وهي الأم تتعوض

معدوم: أبدا.. المهم قصدي أقولك إن اللي حصل ده مخوف الواحد من كل اللي حواليه.. حتى قرايبه الأنتيم

محدود: بالعكس دي فرصة عشان تطهر الجبهة الداخلية

معدوم: أطاهر الجبهة الداخلية إزاي يعني

محدود: بطل هزار.. أنا شايف إن اللي حصل ده يخليك يبقى عندك سبب تقطع علاقتك بكل قرايبك وقرايب مراتك.. منها توفير للعزايم والحفلات وأعياد الميلاد والطهور وهدايا النجاح والخيلة الكدابة دي.. ومنها تضمن إن ماحدش فيهم يطلع سوكوباتي ولاملعوب في نفسيته

معدوم: وهو في حد في البلد مش ملعوب في نفسيته.. ده أنا

قعدت أفكر في ظروف الناس اللي معايا في العمارة لقيت يطلع منهم تلاته سفاحين وكذا قاتل مختل وتمانية "مجرم موتور"

محدود: ياريت على كده وبس.. زمان كان أحسن حل تقفل باب شقتك عليك.. دلوقتي أحسن حل تقفل باب أودتك عليك.. ماانت إيش ضمنك يكون إبنك بيتعاطى مخدرات.. ولا مراتك عضو في عصابة سطو مسلح.. لازم تخلي تعاملك مع الناس كلها رسمي.. ماحدش ضامن الظروف

معدوم: بس لعلمك اللي حصل ده يمكن يهون مصيبة إخواننا السودانيين اللي البوليس قتل قرايبهم المعتصمين في جنينة ميدان مصطفى محمود ويكنعهم يعني إن الموت في مصر مش صعب قوي.. مش لازم تعتصم في جونينة عشان تموت.. ده إنت ممكن تموت وإنت في قلب الترينج اللي لابسه.. ده لو ماكانش الترينج بيتغسل

محدود: بص بقى أنا صعبان عليا الإخوة السودانيين وربنا اللي عالم يزعلي عليهم بس أنا يعني شايف إنهم ظالمين الحكومة بتاعتنا قوي.. قعدوا يطالبوها تعاملهم معاملة المصريين.. الحكومة قلبها رحيم ورهيف قعدت تقولهم تلات شهور بلاش معاملة المصريين.. خليكو سودانيين أحسن.. صمموا.. قامت ملبية طلباتهم وسلطت عليهم الأمن المركزي يعاملهم معاملة المصريين.. طب تزعلوا ليه.. مش انتو طلبتو معاملة المصريين

معدوم: يحمدوا ربنا إن الحكومة موتتهم على طول مش زي ماموتت اللي طلعوا يتتخبوا.. الأول سلطت عليهم البلطجية

والشراشيح يلتسكوا بيهم.. إنما إخواننا السودانيين على الأقل ماتوا بكرامتهم

محدود: إنت عارف لو اللي اعتصموا دول كانوا مصريين ماكانوش سابوهم تلات شهور.. كانوا فضوهم في ساعتين وتلت

معدوم: قصدك فضوا اعتصامهم

محدود: لا.. قصدي فضوهم.. وإنت قاربني بقى .. على فكرة أنا زعلان من إن الدكتور نظيف زار عساكر الشرطة اللي اتجرحوا ومازارش السودانيين.. دي مش أخلاق الناس الطوال

معدوم: يزورهم إزاي ياعم.. ده لو شافوه كانوا كلوه بسنانهم.. وهو ماشاء الله ممكن يكفي خيمتين تلاته أكل.. الراجل مصر محتاجاه

محدود: محتاجاه في إيه

معدوم: مصلحة كده.. ماتوجعش دماغك.. يالله سلام

محدود: رايح فين

معدوم: رايح أشتري ترباس لشباك المطبخ عشان السفاحين

محدود: وتشتري ليه.. هاديك الترباس بتاعي

معدوم: وإنت تنام من غير ترباس.. مش خايف على نفسك

محدود: بيني وبينك.. أنا أتمنى ربنا يرزقني بسفاح.. يريحني من غلبي.. على الأقل أضمن أموت شهيد.. وأقضيها في الجنة عسل ولبن وخمرة.. وأهم شيئ أنهار مية مابتعطلش مواسيرها الأم

معدوم: ياسيدي ربنا يوعدنا جميعا.. بس إفرض السفاح جه

وإنت مش في البيت والجماعة لوحدهم

محدود: ياه.. ده يوم المنى.. أهوه يرحمني من مراتي ومن أعضاءها

معـدوم: المهـم ربـنا يكـرمنا بسفاح يخلصنا من أعضاء العصابة اللي ناهبانا. قول يارب. سلامو عليكو

عبد الله سيتا أومباسيبل!

عرفت عبد الله محمد الشهير بعبد الله سيئا في وقت كنت أظن فيه وبعض الظن إثم أن التصدع الدائم والإنهيار المتوالي في الحياة شرط أساسي لكي يكون الإنسان مثقفا.

عبد الله البالغ بشق الأنفس ٢٤ عاما والحي الذي لايرزق بشبرا الخيمة كان واحدا من المعلمين العظام الذين تعلمت منهم أن الرجل الحقيقي هو الذي لاينخ للحياة ولايطاطي لها، كان لدي أحزان حياتية بعضها حقيقي وبعضها وجودي، لكنني عندما عرفت عبد الله وعايشت أحزانه التي تخربق الجبال الرواسي، توقفت منذ لحظتها عن التصدع والإنهيار وأدركت أنني لن أكون شاعرا أبدا وأن الشعر مش بالعافية، ومن ساعتها وكلما واجهت هما أو أزمة أتذكر وجه عبد الله السفيف وهو يذكرني بجملته الفلسفية المركزية " مطرح ماترسي دق لها.. لحد ماهي تدقك".

عندما عرفت عبد الله قبل سبعة أعوام كنت صحفيا يشار إليه بالبنان في زمن كثرت الإشارة للصحفيين فيه بالوسطى، كنت أخذ مرتبا يبلغ ستة أضعاف مايقبضه عبد الله الذي كان يقبض مائة وخمسين جنيها في هيئة السكة الحديد، سألته مرة "إنت بتشتغل إيه في السكة الحديد ياعبد الله"، فقال لي "مش عارف يس

بيشكروا قيا في الشغل". كثيرا ماحمدت لعبد الله أنني على سوء ظروفه المادية لم أضبطه يوما ما متلبسا بالإستلاف مني، كان لديه حرص أزلي على أن يؤكد لي أنه ليس بحاجة أبدا إلي، بل ظل سنوات يحاول إقناعي بالتدخين "عشان نعرف نعزم عليك بواحدة كوكو الضعيف"، كان يريد طيلة الوقت أن يشعرني أنه موجود، حاولت كثيرا أن أفسد عبد الله بجعله يدمن القراءة ونجحت، لكن عبد الله كان موصلا فلم تؤثر فيه الكتب التي قرأها، مع أنني تعمدت أن أعطيه كتبا ستحوله لامحالة إلى إنسان مخوخ مثلي ومثل كل من قرأها لكنه وبرغم قراءته لها ظل لريب الدهر لايتصدع، حاولت يوما ما أن أحصل منه على تفسير فقال لي "بص ياعم مشكلتك في الحياة إنك اتولدت لقيت في بيتكو تلاجة"، ثم هز رأسه وسكت، بدا التفسير لي مقنعا لكنه أصابني بتشاؤم شديد عندما أدركت أن أبنائي من بعدي سيصابون بنفس تخوخي النفسي لأنهم بالتأكيد سيولدون في بيت به ثلاجة.

في يوم فلس عظيم منعت نفسي بصعوبة من أن أحقق لعبد الله انتصارا تاريخيا بجعله يسلفني قرشين، أو ٢٠٠ قرش بمعنى أصح، ولكي أغلوش على رغبتي المحمومة في السلف سألته غاضبا "ياعم إنت ازاي عايش حياتك ومقضيها بمرتب ١٥٠ جنيه بس وأنا اللي باخد قدك ست مرات مش قادر أعيش.. هي فلوسي حلال وفلوسك حرام.. ولا تكونش بتسرق.. ولابتتاجر في المخدرات.. مانفهمني إنت إيه بالضبط"، كان سؤالي اقتصاديا امبيريقيا بحتا لكنه قلب بجد ونكد وقلب المواجع كلها على عبد

الله، قال لي "باااه.. تخيل دي أول مرة حد يسألني إنت إيه بالضبط.. الله يسامحك"، أخذ عبد الله يقول كلاما أفزعني وأطار صوابي فطلبت منه أن يتمهل ويتخيل أنه يدلي بشهادة عن نفسه يكون دوري أن أوصلها للناس لكي يعرفوا أنه كان على هذه الأرض واحد إسمه عبد الله كان أرجل بكثير من عبيد آخرين لله، لعب الموضوع في دماغ عبد الله وبدأ يفكر في عنوان مقترحا عنوانا مبدئيا "كفاحي ياولاد الوسخة"، أخذته على قد عقله، لكنه أدرك أنني أشغله حتى يبدأ في الحكي، ولذلك قال لي "بص أنا قررت أن أسمي شهادتي سيتا أومبيسيبل"، كان عبد الله قد سمع هذه الكلمة من سائحة فرنسية تكاثر عليها أبناء مصر البررة في محطة مصر ليروها حفاوة واحتضان أولاد البلد، وكانت تصرخ مرددة "سيتا أومبيسيبل" وهي تحاول الهروب منهم، أعجبت الكلمة عبد الله وخيشت معه، فكلفني بالسؤال عن معناها، وعندما قلت له أنها تعني "مش ممكن أومش معقول" فرح بالجملة فرحة الناجي أكثم وهو خارج من أنقاض عمارة هليوبوليس، فاتخذها لسان حال له يخاطب بها كل من حوله، حتى صار إسمه في المنطقة عبد الله سيتا امبوسيبل، لم يكن مهما بالنسبة لي أن يكون إسم شهادة عبد الله مايكون، كان المهم أن أسجلها للتاريخ وكفى، كنت أريد أن أنتزع من عبد الله شهادة على حاله وحال أقرانه من السكان الأصليين لمصر، شهادة أنقلها لكم وعهد الله دون حذف ولا إضافة ولاتعديل، وعشان الواحد يراعي ربنا، فقط حذفت بعض الشتائم والقباحات الصريحة التي يمكن لك تخيلها، مكتفيا

بالقباحات اللاصريحة، ومضيفا بعض الأخطاء الإملائية والنحوية من أجل تحقيق وحدة النص.

يقول عبد الله سيتا التائه في شهادته يخاطبك عزيزي الساكن غير الأصلي لمصر:

"يص ياعم إنت ياللي بتقرا للجدع حبيبي بلال فضل، صباح الفل،أعلم أنك لا تعرفني مع أنك تعرفني أشد المعرفة، ممكن أكون أخوك أو أخو صديقك أو ابنك أو ابن الجيران أو ابن كلب خبطك في كتفك وإنت معدي أو غشك في لم الأجرة في الميكروباص أو حك عربيتك بعجلته أو بص على حريمك بصة وحشة، يعني المهم أنك تعرفني وأنت لاتعرفني. لكي لا أطيل في كلامي الذي قد تظنه ألغازا، دعني أبدأ معك من الصفر أو من تحت الصفر، فذلك أصدق وصف لما أعيشه آلان.أبدأ حكايتي من بعد ان أخذت "الدبلون" يا فرحتي من شيئ إسمه المعهد الفني التجاري لايعلم أحد حتى حسني مبارك أنه موجود على أرض مصر، بعد التخرج قضيت سنتين بين الجلوس على المقاهي والعمل فيها والبحث عن الفلوس بأى شكل وبأى شغل، المهم حوشت قرشين جت الخدمة العسكرية، وبعدما خلصت الجيش وقبل أن اقضي أعواما جديدة من البطالة وبمساعدة واحد قريبي استلمت وظيفة حكومية وأصبحت موظف ميرى مربوط على الدرجةالرابعة، أساسى المرتب ٩٨جنيه ونصف، وعلى رأى رينا الشريرة في حلقات (باور رينجرز) وهى تقول "فليتضخم الوحش"، فعدت أصبح "فليتضخم المرتب".وبعد طول المرمطة

وصل إلى ١٥٠ جنيه بالعلاوات والحوافز والواسطة- اللى هى الوساطة مش الواسطة بتاعة سوهاج (هذا الإفيه أصر عبد الله على الإحتفاظ به في شهادته ولما قلت له أنه بيض قال لي هي كانت شهادة أمك يأخي، ولمنع انهيار المشروع وافقت على الإبقاء عليه).

عندما عرفت أنني سآخذ ١٥٠ جنيه مرة واحدة صرخت بعزم مافيا باللهول، إذا سألعب بالفلوس لعب، لتذهب السجائر الفرط إلى الجحيم وأهلا بالعلب البوكس، ومع أول قبض مئين احتفلت مع أصدقائى فشربنا قزازة بيريل وأكلنا سندوتش شاورمه مضروب وسندوتش بطاطس بوريك وطرشى وحبسنا بإتنين شاى وواحد قهوه ع الريحه وربع جنيه لعمر القهوجى وعلبة سجائر للواد وليد صديقى الذى يعتبرنى ثريا لأنه من مشنوقى الدخل بينما هو يتصور أنني من محدودي الدخل أو على الأصح هو لا يعلم شيئا حتى الآن عن معنى "دخل" ليلة إحتفاليتنا التاريخية طيرت عشرة جنيه وأنا في غايه الانشكاح، اكتشفت فجأة إن فاضل معايا ١٤٠جنيه، المهم إنى باقبض على مرتبي يوم ٢٠من كل شهر، يعنى أنا الوحيد اللى لا باقبض فى أول الشهر ولا فى أخره، وبرضه أنا الوحيد الذى يفلس فى أول الشهر وتنشط عندى الغدة السلفية- لأننى سلفى بالمناسبة مع الاعتذار للدكتور سيد القمني اللي بيشتم دايما أصحاب التفكير السلفي مش عارف ليه – (الإفيه السابق إذا كان إفيها فعلا هو من آثار الثقافة اللي جت على كبر لعبد الله والتي أضرب نفسي بالجزمة لتسببي فيها.. نسيت أن

أقـــول لكـــم أن عبد الله أصر على أن يفتح قوسا ليقول فيه "لمن لايعلــم الغدة السلفية غدة تبدأ عملها فى أوقات متباينة عند أمثالى من محدودى الدخل المعدوم").

مـــا علينــا. فضل معايا ١٤٠جنيه، البيت.. اللي هي الأسرة اللي هم الجماعة اللي بيصرفوا عليا بجد من الأخر.. لازم ياخدوا ٥٠جنيه عشان يبقى من حقي أكبر اللقمة وأقلل الغموس وأتخانق علـــى الصدر بدلا من الورك يوم الجمعة، والباقى لازم أعيش بيه وأحـــب وأتــسلى ومـــا اشـــربش مخـــدرات وما ابقاش متطرف ومااتـــضمش لخلـــية نائمة. فى ذلك الصباح الباكر جاءنى زميل عمل ليبخ فى أذنى بشرى إنشاء جمعية ب٥٠جنيه، سأقبضها بعد ١٠شـــهور، الله.. بعد ١٠شهور ها قبض ٥٠٠ جنيه، ٥٠٠جنيه، مـــبلغ يسيل له اللعاب. صحيح أنه لو جاءني لما عرفت ماذا أفعل به ولما استنفعت به بنكلة، لكن المهم أنني سأجد فرصة لكي أحقق حلمـــا قديما لي بأن أكون رجلا يدخل جمعيات،وحتي كنت باحلم إن يتــصب علـــيا فأمـــسك بتلابـــيب صاحب الجمعية وأفعل به الحاجـــات الوحـــشة التـــي كنت أرى جدتى بل الله تربتها وخالى يفعلـــون ذلـــك ذات مرة عندما انتصب عليهما مرة وأنا صغير. طـــوال أشـــهر اشـــتراكى فى الجمعية ومع اقتراب موعد قبضى تداهمنـــى خيالات النصب على فأبدأ بالإعداد لشراء مطواة، وبعد انتـــشار عـــربيات الأتارى وقانون البلطجة صرفت نظر وقررت أستخدم سكينة المطبخ عند اللزوم.

تخـــيلوا كـــل هذه الشهور وأنا أقبض مرتبى، ٥٠ للبيت و٥٠

جمعـــية و١٠ جنـــيه عنطزة أول الشهر، يبقى ٤٠ جنيه،وإذا كانوا بقولون اعقلها وتوكل، فعايز أشوف شيخ العقلاء اللى يتوكل لمدة شـــهر بـــ٤٠جنيه، عارفين يعنى إيه؟ يعنى يصرف جنيه وشلن لمـــدة ٢٠ يوم وبعدين جنيه واحد لمدة عشرة أيام، طب إزاى وأنا أجـــتمع مـــع زملائى فى الصباح كل يوم لنفطر جمعاء مقابل أن يدفـــع كـــل منا لزوم الافطار ٥٠ قرش، وهو ما كان يضطرنى للـــبحث عـــن زمـــلاء يؤمنون بنظرية المنح اليابانية التى لاترد ولايؤمـــنون بالمدرسة الانجليزى بنت الكلب، أحيانا أدعى الصيام للهـــرب من الاشتراك فى الدفع، فى إحدى عشرينات الشهر ذات مـــرة سرقت شوية شرايط انجليزى تملكها أختى وبعتهم وفطرت بثمنهم كذا يوم.

زهقـــتك بـــالكلام عـــن الفلوس .. عايزنى أكلمك شوية عن الحـــب.. طـــيب تعـــال أكلمك عن الحب شوية. وأحكي لك قصة البـــنت المعفـــنة اللي كانت الحاجة الوحيدة اللي عرفت أعلقها في حياتـــي، حتـــى هدومي مايا علقهاش عشان مافيش مكان ليها في الشقة، باكومها في كرتونة فوق الدولاب. بص ياسيدي لازم أقولك الأول أنـــا علقـــتها متـــين. علقتها في السينما، وأول حاجة لفتت انتباهـــي ليها إنها كانت أول بنت في حياتي أشوفها بتاكل فشار، ففي عرفنا في المنطقة البنت اللي تاكل فشار بره البيت ومش قدام محرم تبقى مش تمام.

قـــد يـــبدو شكلي عبيطا عندما أقول لك أنني وقعت في غرام الحتة بتاعتي لأني رأيتها تأكل الفشار داخل السينما، أعذرك لأنك

لن تفهم أبدا نفسيتي التي زفتني نحو غرام كهذا، فالفشار في سينما مودرن شبرا التي دخلتها كان وقتها بجنيه، هذا الكلام قبل تسع سنين أيام كان الجنيه يجيب طبق كشري بكمالته، وأربع "شندوتشات" مشكلين بمنافعهم، وأن تشاهد كموظف فقير بنتا لم يأكلها القطر كأغلب بنات منطقتك تقف شامخة في السينما تأكل فشار بجنيه، فذلك معناه أنها أغنى منك ناهيك عن كونها أيضا أجمل منك، وقبل أن تستغرب الجملة دعني أقل لك أنني للأسف أجمل من جميع بنات حتتي مع مراعاة أنني نسخة رفيعة قوي من الممثل الجميل المليان غريب محمود. المهم أن أمر الله نفذ وسهم الغرام رشق مع رشقها لحبات الفيشار في بلعومها، الله حلوة الجملة دي، اقتربت منها واتخذت وضع الفتنة، ابتسمت لها، نظرت لي باحتقار،نزل عليّ برود كل الحلاقين دفعة واحدة، وقعدت أضحك لها وأنا متنح لها. كان معي في جيبي ٢٠جنيها وكنت لابس هدوم جديدة جبت تمنها من أختي اللي استلفت منها ١٥٠جنيه على حس الجمعية اللي هاقبضها بعد ٨شهور. المهم اشتريت علبة سجائر قد تبدو من النوع الردئ بالنسبة لبعضكم لكنها بوكس وما أدراكم ما البوكس بالنسبة لنا نحن صغار الموظفين،إنه أمر لو تعلمون عظيم، أخذت أدخن وأنا أذهب وأجيئ أمامها متمخطرا بهدومي ذات الخامات المعفنة والتي قضيت أسبوعا كاملا بها لأني أعلم أنها ستبوظ مع أول غسلة (بالمناسبة أصبحت الآن حتت مطبخ). المهم ثبت أن قراري بالتناحة كان استراتيجيا فقد جابت التناحة مفعول وقدرنا نعلق

البنت، واستمر التعليق بيننا حتى هذا اليوم التاريخي الذي أدلي فيه بشهادتي، صحيح أنني في أحيان كثيرة أبتعد عنها بحجة أنني لاأريد أن أشغلها عن المذاكرة والحقيقة أنني أهرب من هدايا عيد الأم وأعياد الميلاد وأعياد الحب وأول الدراسة وأجازة نص السنة ورأس السنة و(..) السنة.

مع الوقت تحول التعليق الى علاقة حب مع أنى لا أمل لى في الزواج، عندما حاصرتني عاتفيا وطلبت مني أن أعدها بأن أصلح غلطتي لكي تغلط معي وهي مطمئنة صارحتها بحقيقة كوني موظفا حقيرا، فوجئت أنها فرحت ليتضح أنها من أسرة أفقر من أسرتنا، برغم القشار الذى كان نزوة كما ادعت أو ربما كان طعما لإصطياد المغفلين من أمثالي. عدت إلى البيت يومها دائخا بعد أن طارت أحلام الغلط اللذيذ، قلت لنفسى "إذن إتلم تن تن على تن تن"، بدأت الذكريات "تتداعس في مخيتي" لأكتشف كم كانت حبيبتي آكلة الفشار واطية وكم كنت أبلها، تذكرت أول يوم خرجت معها فيه بعد طول تمنع منها، يومها عزمتها على شاى في كافتريا ألاجه بوسط البلد ولأنها واطية فقد أصرت تاكل سندوتشين شاورمة لحمة الهي تطفحهم يارب، وطبعا الميزانية خرمت وكان شهرا خرائي النزعة. تكرر هذا خلال الشهرين التاليين وعندها سعيت لتطوير "العلاكة" لتحليل ثمن الشاورمة فحاولت أبوسها ذات بير سلم لكنها رفضت بإلحاح مع إني كنت صارف عليها ربع المرتب، قال إيه عايزة الحلال، يعني هو أنا كنت غاوي الحرام؟، عدت إلى بيتي مخذولا مقموعا، أسأل نفسي

طـيب والحل، قلت لنفسى بعد كذا شهر حاقبض الجمعية وأجيب دبلتـين مـن أم تسعين جنيه، وبعد كده أبيع دبلتى وأجيب واحدة شبههامن أم تلاته جنيه ويعد كده كله يبقى بالحلال.

بعـد طول تفكير قلت لنفسى العمل الاضافى هو الحل، طب إزى والمقاهـى مليـئة بـشباب من كل صنف لا يجد شغلا ولا مشغلة، مش مهم إن نابليون رئيس المواطنة الفرنسية إياها بيقول إن المستحيل اللي هو السيتامبوسيبل كلمة لا توجد إلا فى قاموس الضعفاء، طب ما أنا الضعفاء والضعفاء أنا، جميع الأبواب مغلقة وأنـا من الفلس فى غاية، حتى الصراف بابه مغلق اليوم، ما فيش سـلف والغدة ناقحة عليا، كل اللى أملكه دلوقتى شوية كتب خدتهم مـن المدعـوق بـلال فضل ورباعية حافظها لصلاح جاهين الله يخرب بيت بلال فضل اللي جرني لسكته "يا باب أيا مقفول إمتى الدخـول.. صـبرت ياما واللى يصبر ينول.. دقيت سنين والرد يرجع لى مين.. لو كنت عارف مين أنا.. كنت أقول". قعدت جنب شـريط السكة الحديد حيث أعمل، أتأمل شريط حياتى المليئة بالهم فـي ضـوء هـذه الرباعية، لو قابلتنى طنط آمال فهمى دلوقتى حاهدي الرباعية دي لكل السكان الأصليين لمصر زي مابيسميهم الـواد بلال صاحبي وبعدين أعيط في حضنها وطبعا هتطلب لي البوليس وهاروح في داهية بتهمة فعل فاضح على الناصية.

لا كده مش نافع لابد أن أفرغ الآن شحنات الغضب والضيق اللـي جـوايا، إزاى، الحل فى المخدرات والسهرات الحمراء بس أجـيب فلوسها منين. أستلفت عشرة جنيه وذهبت إلى مقهى كنت

أجلـس علـيها أيام الجهادية من ١٢مساء إلى ٦ صباحا كل سبت تعـرض بـرامج القـنوات المتخصصة فى السكس، هدأني اللحم الأحمر المستورد كثيرا مع أن المفروض ألا يهدئني، لم يخرجني مـن أحلامـي إلا صوت الجرسون يذكرني بالمشروب بتاع كل ساعة،على آخر السهرة طارت العشرة جنيه وطار عقلي. قبل أن أقـوم ومع أذان الفجر أغمضت عينى لأختزل كل منظر وحركة رأيـتها حتى أستطيع استرجاعها وأنا فى الخلاء لأقذف بصحتي وأحلامى فى البالوعة.

لـست مـيت القلـب، بداخلـى نقاط بيضاء ناصعة وأخرى خـضراء كالبـراعم، وقلبـى مفعم بالحب لكل فتاة جميلة أراها وخاصـة حبيبتى آكلة القشار. حلوة الجملة دي. وعهد الله أنا اللي كاتـبها زي ماهي مش الجدع بلال. فى الأسبوع التانى ذهبت إلى المقهـى إيـاه ثانية، كانت ليلة سوداء بهيمة مثلي، كان الفيلم فى غاية الاثارة، وأنا فى منتهى النشوة والفلس، سهرت حتى الصباح وعـند ذهابى إلى العمل سقطت من شدة الآلام المفاجئة، فى نفس الـيوم عملـت عملية المصران الأعور، قال أنا ناقصه، زارتنى فتاتـى حزينة، لتقول لى أنى ملكت قلبها وملأت حياتها، أنا فعلا أحـبها، وأحـب الجنس الذى لا أمارسه معها في الحلال وأحب التدخـين وعائلتـى الـصغيرة، والفلوس أبعد من السحاب، لكنها لازمـة لكـى يحبني كل هؤلاء، وأنا على فراش المرض سألت نفسي هل ١٥٠جنيه كافية لأن يأكل الانسان شيئا غير نفسه.

أصـبح لازما علي أن أثبت حسن النوايا تجاه البنت وأروح

أقابل أهلها، خاصة وقد أثبتت نجاحها فى كل الاختبارات، هى قابلتنى بره بس ما خلتنيش ألمسها بره حدود الأدب، تخيلوا واحد زيى تعبان ملة وجعان نسوان يضيع بنت جميلة تحت اختبارات الأدب، ذهبت إلى أهلها فوجدت مالا يسر البيفى آدم، عايشين فى عشش صفيح ولها إخوات وقرايب حرامية وسوابق ومساجين.كانت هذه هي التجربة التي يدعو صديقي شادي المسيحي الرب ألا يدخله فيها، لكنني دخلت، وكان لابد أن أخرج قبل ماأتمسك،تهربت من وعود الزواج من الفتاة وعندما أخذت تلح على فى كل مرة تقابلنى لم يكن هناك بد من مصارحتها بأني لن أتزوج إلا فى عام ٢٠١٧ مع افتتاح الرئيس مبارك لتوشكى، يئست الفتاة وضاعت منى بسبب المال، لقد كانت ضربة قوية تحت الحزام من هذا الملاكم المسمى بالقدر.

لعلها الآن عادت لإصطياد زبون جديد بالفشار كما عدت أنا ثانية إلى دوامة الحياة مستعينا بمرتبى الضئيل، ٥٠جنيه للبيت و ٥٠جمعية و ٥٠جنيه لمصاريفى بواقع ٢جنيه إلا شوية فى اليوم منها ٥٠قرش فطار كل يوم وعشرة جنيه متفرقة أصرفها مع صديقى ونصفى الأخر وزميلى الوحيد فى الدنيا التى تهزمه دائما، وليد الذى لا أعرف سواه ولا يعرف أحدا سواى منذ ٢٠عاما ونيف زى ما بيقولوا، يعلم كل شيئ عنى وأعلم كل شيئ عنه كأننا كتابين مفتوحين لبعض، حتى عدد مرات العادة العلنية فى اليوم يعلمها كل منا عن الآخر ولا مؤاخذة من باب التشجيع المتبادل وتطمين بعضنا البعض بأنه لازال لدينا شيئ لم نخسره.

بالنسبة لى ولوليد الجنيه ثروة وصرف ١٠قروش فى غير موضعها خسارة فادحة، ولا مكان لأى تجاوزات، الجلوس على المقهى مباح لو كان على حساب الغير، السينمات محرمة حرمة الدم، ورغيف الكفتة محرم حرمة لحم الخنزير، السجائر تأتى بالعلبة كل فترة ويتم حبسها فى الدولاب ليتم السليف منها بالسيجارة والسيجارتين، لاأدخن فى البيت إطلاقا احتراما للأهل من جهة وتوفير للفلوس من جهة أخرى.

لن تصدقوا لو حكيت لكم أننى عندما جاء دورى فى قبض الجمعية(٥٠٠جنيه مرة واحدة) دخلت إلى المستشفى لأعمل عملية الزائدة (تخيل الزايدة دى بنت الكلب ما تجيش إلا للي زى حالاتنا اللى ما بيستعملوهاش أصلا، بالمناسة كنت عملت عملية فتاق قبل شهر، يعني أنا الفقير أعمل ثلاث عمليات في سنة بينما الغني لايعمل في عمره سوى عملية ترقيع لمن يهمه أمرها). طارت ٢٠٠جنيه لزوم العلاج خاصة بعد أن لعبوا في المستشفى في العملية القديمة فبهدلوا الدنيا. لكن أحدا من الديانة لم يرأف بحالى بل توافدوا كالنمور الأسيوية إلى المستشفى ليستردوا فلوسهم، طيب يا أندال والله لأعاقبكم وما عدتش أستلف منكو تانى. بما تبقى من فلوس الجمعية اشتريت بـ١٥٠جنيه قميص وبنطلون وجزمة ومن ساعتها لم آتى حتى بقطعة شاش أوأى شيئ يمت بصلة إلى القطن والنسيج. بعد كل هذا الهم اللى فضل من الجمعية ٣٠جنيه، يا فرحتى يا هنايا. لم يبق لى إلا السخرية من نفسى. كنت دائما أستهزئ بكل شيئ حتى أصبحت أستهزئ بنفسى وأديم

الشكوى ولا أحمد الله بل أسخر وأقول عندما أمر بأزمة مالية أنني لن أشكر ربي حتى لا يزيدني فقرا على فقر لأنه أستغفره عزوجل يقول (لئن شكرتم لأزيدنكم)، لم أكن أصلي أبدا، ولكن بعد تجربة الثلاث عمليات فقت كثيرا وأدركت أنني أتلقى دروسا إلهية بأن سخطي لن يغير حالي، ولذلك أصبحت من يومها أعيش في أشد حالات الندم، أدبت نفسي وابتعدت عن إدمان قذف أبنائي المستقبليين في البالوعة منذ فترة وأحارب شيطان شهواتي وأصلي الفروض وأحاول أن أصلي السنن، لكنى لا زلت أشعر أن جبال الدنيا "تجسم" بالسين فوق صدري، الحياة مش مساعدة، لا أستطيع أن أصنع بهذا الذي يدعونه المرتب شيئا، ومن منكم يستطيع أن يفعل به شيئا إلا قراطيس وخوازيق ويلبسها، ولا مؤاخذة عندماأفكر في المستقبل أجد نفسي مباشرة أفكر في الانتحار، لكني لن أفعل لأني باكره الحر جدا، لكني أعود ثانية للتفكير فيه عندما أقول لنفسي لنفرض أنك أخذت أضخم علاوة في تاريخ الجهاز الوظيفي وأصبح مرتبك قول ٤٥٠ جنيه وده طبعا مش هيحصل إلا لما أشوف فلقة ودني، طيب إزاي هاتجوز واسكن وأبني حياة بـ ٤٥٠ جنيه، فما بالك ومرتبي فعلا يوم ما هيضربه الدم مش هيعدي بعد عشر سنين الـ ٢٥٠جنيه.على المقهى وفي أول الشهر عزمني صديقي وليد ليحكي لي طبعا عن آخر مشاكله الاقتصادية، فوجئت به يلفت نظري إلى أن شعري بدأ يتساقط وصلعتي بدأت تظهر، قال لي بحكمته البالغة : يا ابني إنت حظك غريب إنت عندك كام سنة يعني عشان شعرك يقع وتدخل

المستشفى في عمليتين جراحيتين في خلال شهرين، لم يكن عندي إلا جواب العظيم صلاح جاهين الذي أصبحت أحفظ كل رباعياته تقريبا"أنا شاب لكن عمري ولا ألف عام .. وحيد ولكن بين ضلوعي زحام.. خايف ولكن خوفي مني أنا..أخرس ولكن قلبي مليان كلام" وعجبني وليد أنه لم يفهم ولا كلمة لأنه انشغل بإشعال سيجارة فرط والذوبان فيها. فدعيت على بلال فضل وقرأت الفاتحة لصلاح جاهين.

شوف بقى ياسيدي أكثر حاجة باكرهها في الدنيا إن ضابط يقول لي بطاقتك وإن حد يقول لي انت غلطان إنك ماتعلمتش ودخلت الجامعة، الجملة الأخيرة دي أمي ماسكاها لي عمال على بطال، هي بالمناسبة مش أمي قوي لأن أمي الحقيقية سابتني وأنا صغير واتجوزت، وأبويا دخل السجن في قضية ماحدش قادر يحددها لحد دلوقتي، وكان ممكن أبقى سارح أشد كلة دلوقتي ولا ماشي في الشوارع عريان ملط، لولا ربنا ساق لي ست غلبانة بتشتغل خياطة فساتين سواريه مع أنها ساكنة في حارة لو قلت لواحدة فيها عندك تايير، هتلطشك بالقلم وتقولك عيب يا (..) أنا أشرف من أمك. الست دي خدتني أنا وأختي وربتنا وصرفت علينا لحد مابقيت فاشل قد الدنيا ولحد ماأختي اتجوزت واد كسيب وخلفت منه، ومع إن أمي هي اللي كانت السبب إني ماأكملش تعليمي عشان ديك ذات اليد، بس طول النهار تقولي "مش كنت اتعلمت ودخلت الجامعة وفلحت"، عشان كده كبرت في دماغي من فترة وقلت هاحوش وادخل التعليم المفتوح عشان أثبت لها إني

فاشل حتى لو خدت شهادة، وبعدين قلت بلاش دي حاجة مش محتاجة الفلوس دي كلها عشان أثبتها، هي أكيد حاسه بده، مش قلب أم ياجدع.

قال تعليم قال، ماعندك الواد مصطفى المصري اللي ساكن تحتينا، دخل الجامعة وخد بكالوريوس خدمة اجتماعية وفضلوا يقطمونا بيه لما اتفقعنا، تعال شوف حاله دلوقتي مافرقش عننا بصلة إحنا اللي واخدين بكالوريوس خدمة بيوت، ومع إنه من دوري لكن تحس إني أصبى منه، لما تشوفه دلوقتي تحس إن عنده ٢٤ سنة شغل ونفاذ، وحتى في الحب خاب نفس خيبتي ويمكن ألعن، خطيبته اللي خطبها في شهر مارس اللي فات ستتخطب لغيره في شهر مارس اللي جاي، ماشفعتلوش قصة الحب "العنيفة" التي عاشها معها سنين طويلة، أصل الحب مايتفعش إجابة لأسئلة من نوعية معاك كام وهتجيب إيه وهتجهز إمتى وشقتك فين، لما يسألك أهل حبيبتك أسئلة زي دي ابقى خلي الحب ينفعك أو حتى خلي البكالوريوس ينفعك، لو قلت لهم معايا بكالوريوس إنشاء الله، مش بعيد أبو حبيبتك حاج بيت الله اللي بيصلي الفرض بفرضه يقولك "البسه ياحبيب أمك".

أدي ياسيدي حال الشاب الجامعي، تقدر تقولي التعليم والجامعة نفعوا مصطفى بإيه، آديني زيي زيه بنلف سواقي ساقية، شبه بعض في الواقع والألم والقرف، حتى في الحلم البكالوريوس مافرقش، عارف ليه لإننا الإتنين نفسنا نهج وتسيب البلد دي اللي بتاكل ولادها. إنت عارف مصطفى اشتغل إيه

بالبكالوريوس اللي أمه هرت الحتى شربات لما خده، اشتغل مدير مبيعات، يعني أنا عندي وظيفة ثابتة عنه، هتقولي بس إسمه مدير مبيعات، هاقولك ده إسم دلع للشاب اللي بينزل بشنطة بضاعة يلف على الموظفين ده يرزل عليه وده يغتت عليه، زيه زي اللي بيوقف على الرصيف يبيع بدلة حمادة أو حاجة تفرح للعيال أو لانجيريهات مستعملة للمدام عشان تفرح أبو العيال، الفرق بينهم كرافتة بس، يمكن عشان الكرافتة دي خد لقب مدير، تسأله بيدير مين، تلاقيه بيدير نفسه. وتقولي تعليم ياأخي أحمد، إنت عارف الواد مصطفى ده لما كان في الجامعة كان غاوي تمثيل، كان فاكر إنه هيبقى أحمد زكي زمانه، بتعمل إيه يامصطفى، باعمل بروفات مسرحية هتكسر الدنيا وهنعزم مخرجين يكتشفونا عشان نعدي ياكلاب وتسيبكو في الفقر ده، يوم المسرحية الأمن منعها بعد ماقعد شهرين هو وزمايله يعملوا بروفاتها، من ساعتها مصطفى ده اتكسر، مابقتش فارقة معاه أي حاجة، زي مايكون في حد كل روحه من جواه. إنت عارف مين اللي خطف خطيبته منه، أعز صحابه في الجامعة، وتقولي تعليم، على الأقل أنا حبيبة كلبي طلع إخواتها مسجلين خطر، يعني ناس واضحين وعندهم مبادئ. عارف بعد ماخطيبته خانته عمل إيه، سافر يشتغل في الغردقة وضبط مع واحدة أمريكية كان هيتجوزها، كانت شبه عيشة الكيلاني كده، بس كان ناوي يبيع نفسه ويشيلها ويسافر معاها، في الفترة دي كان مصطفى ده ملك المنطقة، صحابه ماتعرفش تعدهم وكل واحد فيهم يعمل معاه أحلى واجب على أمل يشده معاه لما

يسافر، لما الموضوع باظ ولقت الحيزبونة حد تاني أحلى مابقاش حد يعير مصطفي بالصرمة، نفعه بايه البكالوريوس، بقى كل شوية يشدني ويقولي ياترى ياعبد الله هي الظروف اللي بتصنعنا ولا إحنا اللي بنصنع الظروف، أقوله هات سيجارة وأنا أقولك، لما يديني سيجارة أقوله بص يامصطفى هاقولك حاجة حطها حلقة في ودانك، كاف ألف الفيل أبو عينين قزاز، ده أهم مبدأ تمشي بيه في حياتك، أهم من البطاقة ذات نفسها.

بس عمره ماسمع كلامي أبدا، إنت عارف الفرق بيني وبين الواد مصطفى إيه، إن عنده كرامة وأنا الحمد لله ماعنديش، الظاهر شالوها مع الزايدة وباعوها لحد غني كان عايز كرامة جديدة، عارف الواد الفقري ده كان ممكن يبقى مليونير لو ركز في الغردقة وشرم والحتت دي، كان أول حد في الحتة طلعها، من وهو في الكلية راح هناك يشتغل مع حد قريبه في الأجازة، كان قريبه بيغسل عربيات هناك، خده وعلمه ازاي يساعده، ولما سافر قاله عايزك تمسك مكاني، استلم منه صولجان الغسيل، وابتدا يشتغل مع سواق انبسط منه واداه فلوس، وبعدين قاله إنت تشتغل معايا على طول، قاله لا أنا بادرس في خدمة اجتماعية، الراجل اتخض وقاله معقولة انت طالب جامعي، قال يعني اتفاجأ بـ (..) أمه، قعد ياكل دماغ مصطفى بكلام يحرق الدم حسسه إنه ابن وزير وجار عليه الزمن، في اليوم اللي بعديه راح يطوق عربية فيها اربع بنات زي الملايكة، هو بيقول أنا رأيي تلاقيهم (ش..) بصوا له بصات كلها احتقار مع إن لبسه كان نضيف، صعبت

عليه روحه قام رامي الفوطة في الأرض وراجع، ياعم الحاج ماتسيب اللي يبص يبص، إنت في إيه ولا في إيه، لا كرامته نفعت عليه، طيب ياسيدي خلي الكرامة تنفعك، عارف أنا لو مكانه أبجح وأبص لهم وأبرق لهم عشان يخافوا ويزودوا البقشيش. وتقولي تعليم جامعي، ياعم ده إحنا في نعمة والنعمة. الحمد لله على الفقر والجهل، حاكم الفقر مع العلم لعنة.

اليومين دول قررت أحسن أحوالي وأبدأ إصلاح من الداخل، وبدل ماألعن الظلام ألعن الشمعة، قلت لازم أزود دخلي بأي شكل، لقيت شغل إضافى، بس مواعيده تبتدي بعد مايخلص الشغل الرسمي بساعة واحدة وأفضل فيه لبعد نص الليل، باشتغل "سكعوريتى" أوأمن خاص زي مابيضحكوا علينا في الشغل عشان نحس إن لينا لازمة، شايفين المسخرة، من السابعة صباحا وحتى الواحدة برضه صباحا بافضل فى الشارع، باصرف حوالى ٥٠ جنيه أكل وشرب بره البيت ده غير التجريح من "البيج بوس" بتاعنا في شركة السكعوريتي اللى كان بيشغل منصب أمني مهم واتقلش منه في قضية فساد وبرغم كده عايش لى فى دور عبده المهم طول الوقت، مع إن منظره تحس إنه حتى اتقفش في قضية فساد معفنة مش قضية فساد من اللي هم، لأ، أكيد اتقفش في قضية آداب، عموما مسيري أعرف لما يسيب الشركة بإذن الله.

أحيانا تسرح بى الأفكار وأنا واقف ألف فى شغلى في الليل الهادي الخالي وأقول لنفسي: مادمت فعلا مش هاتجوز ومش هاقدر ألاقي سكن محترم وأبعد عن خنقة وزحمة البيت اللي أهله

ربوني، مادام الكلام ده كلام حقيقي وواقعي وماقيهوش يأس ولاإحباط، لا ده واقع ملبوس على رأي الواد وليد، طب ليه بقى ماأحاولش اطور نفسي وأبقى حاجة عدلة زي مالواد بلال بيوجع دماغي ليل نهار، ويقعد يحكي لي حكايات عن مليونيرات في الغرب كانوا معفنين أكتر مني وحلموا أحلام وصدقوها وفضلوا وراها، صحيح باقعد اتاكف فيه واشتمه واتريق عليه، بس لما باقعد مع نفسي باكتشف إن المشكلة إني فعلا أحلم بحاجات كتيرة، إني مثلا أتعلم كمبيوتر وأنضم إلى أى نقابة عمالية علشان أدرس كمبيوتر بسعر رخيص، لكن ده مش هيحصل إلا بعد شهور طويلة. حلم أحلامي كان دخول الجامعة المفتوحة عشان أحصل علي شهادة عليا أغيظ بيها الواد مصطفى وأخلي أمي تحس إني عملت حاجة عدلة، بس فين الفلوس اللى أصرف بيها على دراسة ٤شهور مش ٤سنين. قدامى فرصة أدخل المعهد الإيطالى عشان أتعلم مهنة فنية وأروح بعثة، بس فين الوقت، ما فيش معهد بيعمل دورات من بعد نص الليل لحد الفجر– وقت فراغى– إلا معهد فيفى عبده طبعا وللأسف جسمى ما يناسبوش.

الله يلعن أبو اليوم اللي سلمت فيه دماغي لبلال فضل زفت، أحلامى بقت كوابيس تؤرك منامي وتجعلنى أعض أصابع رجلى من الندم،ماكنت عايش وراضي وفخور باللقب اللى خلعه عليا خالى وهو لقب(مستر كيس)، مش قصده إني بوّيس لاسمح الله، لا قصده إني كيس فاضي، خالتى بقى بتناديني بالموكوس، باكون في غاية الانشكاح وهى تدللنى بأرق الكلمات "يا موكوس يا

خيبان". معاهم حق أنا فعلا موكوس وكيس فارغ بيلعب بيه الهواء. مرتبى فى شغلى الجديد ألف وخمسمائة باريزة صغيرة، يعنى برضه ١٥٠جنيه، وبرضه ضايع ضايع، ١٦ساعة عمل ولا بغل السرجة، طالع عين اللى خلفونى من غير فايدة، وكل ما اتعب أقعد أقول لنفسى "إقلع غماك يا تور وارقص تلف.. إكسر تروس الساقية واشتم وتف.. قال بس خطوة كمان وخطوة كمان.. ياأوصل نهاية السكة يا البير يجف". الله يخرب بيتك يابلال يافضل، بعد أن أنهي شغلي هاروح السيدة زينب وأصرخ وأقول " يا أم العواجز أنا عاجز" وهادعي بالرحمة لصلاح جاهين الوحيد اللي حسسني إني مش موكوس عبثا.. بل موكوس لحكمة لايعلمها إلا الله. ونعم بالله.

هيه هيه هيييييييييييييه!

سألتني مذيعة "هايفاء" في ثاني أيام العيد عن ذكرياتي كمؤلف كوميدي مع خروف العيد فقلت لها وأنا سعيد لأنها ذكرتني بالذي مضى، أننا كنا كل عيد كبير نشكل وفدا مع أطفال شارعنا في حي محرم بيه في اسكندرية لنذهب لأحد الشوارع القريبة منا لكي نشاهد تاجر المخدرات الذي يذبح خمسة عجول وعشرة خرفان يوم العيد ويوزع لحومها على الفقراء الذين هلكت أجسادهم بفعل مخدراته الرديئة الصنع، قاطعتني محرجة: مافيش ذكريات تانية عن العيد بس تكون كوميدية، عايزين نفرح الناس، قلت لها: فاكر مرة عسكري أمن مركزي فتح دماغ عاطف جارنا لما ضربه بتوكة الحزام وإحنا رايحين نحضر أول حفلة لفيلم حنفي الأبهة في سينما مترو، قالت لي: هي صعبة شوية بس يعني مافيش غيرها، قلت لها: أنا آسف أنا أذكر إننا مرة وإحنا صغيرين خالص بعد الرئيس السادات ماتقتل رمينا بمبة من فوق السطوح على بوكس كان بيمشي في الشارع، السواق اتخض وقام لابس في القهوة اللي تحت البيت، كانوا قابضين على عيال بيقولوا سكرانة وبيقولوا بتعاكس، المهم إنهم هربوا والضابط كان نايم في الدواسة.

كنت أحكي وأضحك وعلى وشك أن أحكي لها عن ذكرياتي عندما كنت أتبول وأنا لم أبلغ الحلم بعد على صاحب محل الفحم الموجود أسفل بيتنا وأفسد له فرشته، لكنني قطعت تدفق ذكرياتي عندما اكتشفت أن المذيعة لاتضحك، قلت لها: هو أنا لبخت ولاحاجة، قالت لي: العفو، بس يعني إحنا عايزين ذكريات تتذاع، قلت لها: كان نفسي بس والله غصب عني، أصل بصراحة وأنا صغير كان العيد عندنا يوم النكد، مش في بيتنا بس، في كل بيوت العمارة ويمكن بيوت الحتة، ماأكدبش عليكي كنا بنفرح قوي أنا وكل عيال الشارع لما نصحا الصبح عشان نلبس الجلاليب البيضا ونجري على جامع سلطان.. اللي هو أحلى جامع صليت فيه في حياتي لما حضرتك تسافري اسكندرية انزلي شارع عمر بن الخطاب وإسألي عليه هتلاقيه في آخر الشارع قريب من عمود السواري.. كنا نروح نصلي ونحاول نبين للكبار إننا حافظين الله أكبر الله أكبر ولله الحمد، ودايما نتلخبط في الحتة بتاعة وعلى أنصار سيدنا محمد، عمري ماعرفت أضبطها، مش عارف ليه، ستي كانت تقولي عشان نيتك مش صافية، يمكن، لكن أول مانخرج من الجامع الكبير يبدأ دمنا يتحرق لما نبص على اللعب اللي مع العيال اللي أبهاتها سافروا الخليج أو تاجروا في المخدرات أو رزقهم الله من حيث لم يحتسبوا، كانت لعبهم الغالية بتضايقنا وتخلينا نتف على المسدس الصيني العيان أو السيف اللي بيتلوي أول مانضرب بعض بيه أو الكورة اللي بتفرقع من غير ماعجلة تدوس عليها حتى، كنا بنحاول ننسى ده وإحنا بنشرب

عصير قصب من الراجل اللي قدام جامع سلطان، ونحاول نحس إننا فرحانين بجد، نفتعل أي كلام عشان نتأخر على معاد مرواح ستاتنا للقرافة عشان مانتدبسش في المشوار الكئيب ده، نلعب ماتش كورة في أي شارع جانبي محاولين الحفاظ على بياض جلابيتنا الناصع بفعل سافو مسحوق حمدي باتشان المفضل، ماإن تفتقد حلاوة اللعب حتى يصبح لزاما علينا المرواح منعا للتهزيء وقلة القيمة، ننتظر حتى يجف العرق وندخل البيت خاشعين متحججين بأننا ذهبنا لنصلي في استاد الإسكندرية مع السنية بتوع الإخوان المسلمين تنفيذا لوصية النبي عليه الصلاة والسلام، كبار البيت يقضون اليوم في النوم لتعويض مافاتهم من سهر خلال الأيام الماضية لمحاولة تلبية إحتياجات العيد دون أي تعجيز، التلفزيون يذيع برامج أطفال مملة لعيال لايشبهوننا أبدا يرقصون ببلاهة مع مدام صفاء أبو السعود ويغنون مع عمو محمد ثروت، والمذيعة تقطع كل أغنية بتهنئة السيد الرئيس المحبوب والأمة الإسلامية اللي كارهاه بأم العيد، المنفذ الوحيد للتسلية لم يكن البلكونة فظاهر الشوارع البادي من خلالها ظاهر خادع فيه عيال تسير كأنها منومة بالبالونات، وناس تجري وهي تدوس على بعض وراء عربية توزع أكياس لحمة، وأصابع غارقة بالدم تطبع بصماتها على كل الحوائط، المنفذ الأكثر تسلية هو المنور حيث بطن البيوت مفتوح لمن ولد فضوليا مثلي، هنا سأضيع الساعتين اللتين تفصلان بيني وبين أول حفلة سينما سأهرع إليها لأتوحد مع بطلي عادل إمام وهو يضرب الأشرار على قفاهم ونساء الأغنياء

الأشرار على قفاهن برصه ثم يرفع حاجبيه ليلاغينا ويضحكنا، أجلس لأزجي وقت الفراغ محاولا تمييز الأصوات وتركيبها على الوجوه "وأنا هاجيب لكو منين.. إنتو طلعتو عين أمي إنتي وعيالك.. أمك الواطية مين دي اللي أعيد عليها.. دي خرابة بيوت.. طب عليا الطلاق بالتلاتة لو مانزلتي معايا ورجلك فوق رقبتك لاكون معلقك زي الخروف.. وهو فين الخروف ياموكوس.. إن ماعصرك دخلت علينا بمعزة حتى.. العيد فرحة ياسلام.. هيه هيه هيه.. وطوا صوت التلفزيون ياولاد الجزمة وخلوا يومكو يعدي.. صحيني قبل المسرحية ماتبتدي.. إحنا مش هناكل في أم يوم البيت.. فيلم إيه اللي جايبه ياروح خالتك.. خش ذاكر لما نشوف هتجيب مجموع كام.. إنت مش قلت هتفسح العيال.. بعدين بعدين حد يتفسح أول يوم.. الفسح دي لتاني يوم.. لو كنت قلت لك خدهم لأمك كان زمانك نزلت جري.. وأجيب لكو فلوس السيما منين.. ده إنتو تمانية.. هيجيبوا سك على بناتك النهارده.. اتفرجوا واحمدوا ربنا.. إنتو ماعندكوش تلفزيون.. يالهوي بترمي اليمين عليا يوم العيد.. قاعد تتصنت على الخلق ليه ياحيوان"، الجملة الأخيرة ركبت عليها وجه جدتي وشبشبا طائرا في الصالة يستقر غالبا في وجهي. كنت مسترسلا في الحكي لكن صوت التليفون المحمول أيقظني من ذكرياتي التي صادفت سر الهوى، دست زرار الإجابة فجاءني صوت المذيعة: أنا آسفة يافندم الخط قطع، هاسأل سعادتك تاني ذكرياتك إيه مع خروف العيد بس والنبي مش عايزين ذكريات مؤلمة كل سنة

وانت طيب، قلت لها: مانا قلت لسعادتك أنا علاقتي ضعيفة بخروف العيد، إحنا كنا بنجيب كبدة الخروف، حاجة من أتره يعني، على فكرة أغلب المصريين كده، حتى تلاقي الفئة عندهم بيتم سد نقص اللحمة فيها بالتفنن في صنع تقليتها بحيث تجعل الحليم سكرانا، والمستورين زي حالاتنا بياخدوا اللحمة بالمناب، يعني كل واحد ليه منابه، إنتي عارفه إن فكرة المناب في مصر تصلح موضوع لدراسة عن دور المناب في تفعيل الديالكتيك الطبقي في مصر، يعني الفرق بين الفقير والغني مش في الآلة زي ماقال ماركس إنما في المناب، قالت لي وهي ذاهلة بص يأستاذ بلاش نتكلم عن اللحمة خالص ممكن عشان نبتدي نسجل نسأل سؤال تاني.. تقدر تقولنا إيه عن فرحة العيد. قلت لها وأنا أكظم غيظي: أعترف لك أنني لم أشعر حتى الآن بفرحة العيد بجد، لأن الطفولة مرت بدون أن أشعر بهذه الفرحة بشكل واضح وأنا آسف يعني لو كان ده يضايقك بس دي الحقيقة، لكنني أتمنى أن يشعر أولاد مصر بفرحة العيد يوما ما عندما يأتي يوم عيد لاترى فيه مذيعة تلفزيون أو إذاعة تسأل ضيوفها ببلاهة عن ذكرياتهم مع خروف العيد في بلد وصل فيها سعر الخروف العيان تسعمية جنيه والخروف المغتصب فاقد العذرية تمنمية جنيه، يعني مرتب وكيل وزارة. سنشعر بفرحة العيد عندما يأتي يوم عيد لاتقع فيه على دماغ أمك وأنت تمشي في الشارع بمبة تطير صوابك إن كان لايزال لديك صواب.عندما يقتنع مسئولو التلفزيون أن العيد ليس فرحة وأجمل فرحة للثلاثة أرباع

المصريين بل هو نكد مبين فيبدأوا بالتفاوض مع السيدة صفاء أبو السعود لجمع نسخ الأغنية وإحراقها دون زعل. عندما لايكتفي الإمام الأكبر في خطبة العيد بالدعاء للسيد الرئيس وباقي المسئولين الذين يسعى بعضهم لإقناعنا أنه بيعرف ربنا بجد، ستتقدم لو قرر الإمام الأكبر ولو لمرة أن يقتدي بسلفه العز بن عبد السلام فيعظهم ويذكرهم بأن لهم يوما ترتد فيه المظالم أبيض على كل مظلوم إسود كحل على كل ظالم، ستتقدم لو شهدنا حاكم مصر وهو يصلي وسط شعبه الذي أهلكته الأقساط والجمعيات والسلفيات والتصريفات، ستتقدم لو أصبح من حق الفقير أن يأكل اللحمة مرتين في الشهر على الأقل دون أن يشحتها أو يتسولها أو يقف ليطحن في ضعفاء مثله من أجل أن يحصل على كيس لحمة يقول لمن يعطيه له كل سنة وإنت طيبة ستين مرة. مرة ثالثة عاد صوت تليفوني ليقطع استرسالي الغاضب، وجاءني صوت المذيعة "معلهش ياستاذ بلال أنا اضطريت اقطع مع حضرتك أصلنا كنا على الهواء، أرجوك إحنا في يوم عيد ومش عايزين نزعل الناس، أنا هارجع معاك على الهواء أول ماتخلص غنوة العيد فرحة وأجمل فرحة.. هيه هيه هيييه".

المومس اللي فاضلة !

من الصعب أن أنساها.

قبل ١٥ سنة تقريبا كنت داخل قسم الدقي مع زميل لي في كلية الإعلام نجري مقابلة حصرية مع مسجلة آداب كان إسمها فتحية سيلان، ليس نسبة إلى جمهورية سيلان الآسيوية بل إلى المرض الشهير الذي يعتقد أطباء الامراض التناسلية أنها كانت أول من أدخله إلى محافظة الجيزة وبالتحديد إلى شارع ابن قمبيز الذي كانت تقف على إحدى نواصيه بسبب حنين غامض يربطها بالإسم الذي كان على حد تعبيرها يجعلها راغبة في أن "تتقمبز" من حين لآخر، كنا نقف على باب التخشيبة الملأى بالعاملات في صناعة الترفيه واللواتي يأخذن عملهن بجدية شديدة نفتقدها في جميع مواقع الإنتاج واضعات نصب أعينهن قول أمير الشعراء أحمد شوقي "أيها العمال أفنوا العمر جدا واكتسابا.. واعمروا الأرض فلولا سعيكم أمست يبابا".

كانت فتحية سيلان تحاول أن تقنعنا أن عمرها ماعملت حاجة غلط وأن الضابط المفتري ربنا يبتليه بنصيبة لفق لها قضية، وأنهم أخذوها من شقة المواطن العربي وهي بلبس الصلاة، شاء سوء حظها أن يمر الضابط من خلفها وهي تقول هذا الكلام، ليقوم

بالرد عليها بأسلوب علمي لاأجرؤ على ذكره، قبل أن يقسم أمامنا أنــه سيطلق سراح فتحية فورا لو قرأت أمامنا الفاتحة، ردت عليه فتحــية بكل ثقة "الفاتحة في القلب ياباشا.. يعني هم اللي حفظوها كانــوا عملوا إيه"، استمرت ردود الضابط الحضارية على فتحية التــي كانت تتعامل مع الضابط برغم كل ماكان يفعله على أساس أنــه غير موجود، وأن ماتراه ليس حقيقيا، فقد استمرت في التأكيد على أن مشكلتها مع الفاتحة أنها بقت بتنسى بسبب الهم، لكن قلبها ابــيض من لبس الصلاة اللي كانت لابساه، أصابت الضابط حالة مــن الجــنون وأخذ يقسم لنا أن كل علاقة فتحية بالدين هي أنهم قبــضوا علــيها مرة وهي ترقص لسياح عرب على أنغام أغنية "صــلينا الفجــر فين"، نظرنا إلى فتحية مشدوهين فقالت لنا بنفس ملامحهــا المــوازية "أعمل إيه يعني.. هي اللي كانت شغالة في الــراديو". كلت يدا الضابط أو أصابعه بمعنى أصح من الرد على فتحــية بأســلوبه العلمــي، فانــصرف لــبعض شأنه، ولأننا كنا رومانــسيين ثوريــين نؤمن بنظرية المومس الفاضلة، فقد أخذنا نــسأل فتحــية عن ماالذي يمنعها من أن تترك طريق الإنحراف وتــسلك ســلوكا شرعيا، أخذت دموعها تنهمر وتحكي لنا قصصا مذهلــة عــن إخــوتها الــذين تجري عليهم، (بالطبع سمعنا نفس القــصص بعد ذلك كثيرا في مناسبات مختلفة، لنكتشف أنها أكثر انتــشارا مــن حــواديت الشاطر حسن)، أخذ بنا التأثر كل مأخذ فانــدفعت أسأل فتحية ببراءة أدت بي إلى الإرتباك "يعني عمرك مافكرتي تبقي جوزة يافتحية"، وقع زميلي من الضحك، وصدرت

عن فتحية وزميلاتها المتابعات لسير الحوار في من خلف قضبان التخــشيبة أصــوات غير بريئة لايمكن قياسها إلا بمقياس ريختر، وأخذت فتحية تضحك وتصدر تلك الأصوات لأدرك أنا وصديقي أن فتحــية لــم تكــن أبدا المومس الفاضلة بل هي المومس اللي فاضلة.

مصر التي ما المسئول عنها

بأعلم من السائل!

لم يفهم صديقي المراسل الصحفي الأجنبي سر عنفي غير المبرر وأنا أعتذر له عن الإجابة على أي سؤال عن مستقبل مصر في حال جرى لاقدر الله للرئيس مبارك مكروه من ذلك الذي يسري على البشر حكامهم ومحكوميهم. قال لي مذكرا بأن الكلام عن المستقبل ليس عليه جمرك حتى الآن. وقبل أن يذكرني بأنه حتى الرسول مات وأمر الله لابد يكون، عدت لأقول له بعنف أقل أنني لن أكون أهلا للكلام عن المستقبل مطلقا إلا عندما أعرف أولا لماذا أدفع كمواطن أجرة رفع الزبالة في شقتي مرتين في الشهر، كل مرة بخمسة جنيهات، خمسة للحكومة في فاتورة الكهرباء وخمسة للزبال الذي تجمعني به عشرة تفوق عشرتي بأغلب أصدقائي. سألني صديقي ماإذا كنت قد سألت أيا من الزبال أو محصل النور عن سر دفعي فلوس الزبالة لكل منهما، فقلت له أنني لم أفكر أن أسأل سؤالا كهذا ربما لإنشغالي بالتفكير في سر كون جامعة القاهرة تابعة لمحافظة الجيزة.

في أول زيارة لمحصل النور سألته "أنا عندي سؤال وأرجو أنك ماتاخدوش بمحمل شخصي لأن علاقتنا أكبر من أن تتأثر بأسئلة تافهة زي اللي هاسألها"، كان جنيه البقشيش الذي أخذه للتو

كافيا لتوسيع صدره بما يكفي لسماع سؤالي التافه. "هو أنا ليه بادفع أجرة الزبالة مرتين مرة"، كان واطيا بحيث رد ردا لم أتوقعه "وهو إنت هتبص لفلوس زي دي ياباشا"، لو كنت أضمن أنه سيرد الجنيه كنت طلبته، لكنني كبرت في سري وقلت له "ماعنديش مانع أدفع قدهم بس يمكن الأستاذ صبري اللي في الرابع يبص لفلوس زي دي أصله بيتعالج في معهد الأورام"، فهم الرجل مغزى سؤالي فأطرق قليلا وقال لي "والله مش عارف ياباشا بس بصراحة أول مرة حد يسألني السؤال ده من ساعة ماربطنا فاتورة الكهرباء بالقمامة"، نطقها هكذا كما قالها أكثر من مسئول مهم في التلفزيون في تصريحاتهم فائحة الرائحة، "ربط جمع القمامة بفاتورة الكهرباء"، دعوت في سري أن يربط الله من أخذ قرارا كهذا شر ربطة ويحرجه أمام شريك حياته، لكنني ربما فهمت ماقاله لي محصل النور متأخرا فقلت له "يعني مافيش حد هدد بالإمتناع عن الدفع أو شتمك أو قال حرام عليكو ياظلمة هتروحوا من ربنا فين ياولاد الـ... إنت قاريني يعني"، قال لي "لا أصل كلهم مؤدبين مع إنهم ولاد جزمة"، استغربت ربط كونهم مؤدبين بأنهم ولاد جزمة، سألته عما إذا كان ربطا على شاكلة ربط الزبالة بالفاتورة، فرد والأسى يقطر من صوته "أصل من ساعة الحكاية دي بطلوا يدوني إكراميات، طب الحكومة بنت لذين أنا ذنب أمي إيه". سألته عن صحة أمه وتمنيت له السعادة. أول مافعلته بعد رحيل المحصل كان الإتصال بصديقي المراسل الأجنبي لأقول له "ممكن ماتتكلمش هنا تاني".

بعدها بيومين كان هناك حوار شيق جمعني مع الزبال الذي تمكنت أخيرا من الإمساك به في يوم غير أول الشهر الذي يوقظنا من أحلى نومة لطلب شهريته، لم أكن محتاجا لأن أسأله أبدا عن سر اختياره السادسة صباحا لكي يخبط على السكان لجمع نقوده، فهم إما بادئ في النوم مثلي ومثل أشرف العاطل عن العمل أو غارق في النوم وفي عرض ساعة نوم كمان كباقي سكان العمارة من الموظفين، ولذلك لن يكون لدى أحد منا الطاقة الكافية لسؤاله عن سر تراكم الزبالة أياما دون أن يقوم بجمعها، كل مانفعله فتح الباب نصف فتحة ودعك العين للتأكد من أننا نعطيه خمسة لاخمسين، ثم إغلاق الباب سريعا قبل أن يطير النوم. هذه المرة التزمت بالجهاد الاكبر جهاد النفس لكي أبقى صاحيا حتى العاشرة مغلقا صوت التلفزيون ومكتفيا بمتابعة الترجمة مصيخا السمع لصوت حركة جمع الزبالة، حيث اليوم يوافق أحد اليومين المنتظرين لتشريفه، لابد أن افاجئه هذه المرة وآخذه على حين غرة،سيبك من أن أكثر من غرة تمخضت بعد فتح باب المطبخ عن تبادل النظرات الحائرة مع قطط العمارة اللواتي يشمن ومايقفني أكياس الزبالة فلم يعدن يهربن بل يكتفين بنظرات وقحة أزعم أنها مصحوبة بشتائم قبيحة بلغة القطط "إيه القلق ده ياروح أمك.. مش تخبط قبل ماتفتح"، أخيرا جاء، هو هو، هذه طبوله هذه بشائره، فتحت الباب بثقة وأنا منكوش الشعر زائغ العينين، فرمقني بنظرة وكيل وزارة في الأربعينات، ثم قال لي " إيه في زبالة تاني"، قلت مستجمعا شجاعتي "هو إنت كنت شلت الأولاني

يعني"، قال لي "معلهش يابيه مش ملاحقين وإنتو يعني مش مدينا فرصة.. ربنا يزيدكو"، فجأة أصبحت أنا في موقع الدفاع الطبقي عن نفسي، وتحول جدلنا المفترض حول تأخر رفع الزبالة إلى جدل ديالكتيكي أنا فيه الخسران لامحالة. فجأة وجدتني أقول له "ولايهمك الله يعينك.. أنا بس كنت عايز أسألك سؤال"، شعر بصدق دعائي له فوضع زنبيله على الأرض وترك قدميه تغوصان في أكياس الزبالة المتراكمة، وقال لي بكل أريحية تفوق أريحية الزبالة الفائحة "اتفضل ياباشا"، قلت له "يعني أصل أنا باديك فلوس أول كل شهر"، لميت تحفزه بجملة إعتراضية "مش قد تعبك والله أنا عارف.. لكن الحكومة بقت بتاخد منتا كل شهر خمسة جنيه برضه قال إيه عشان تديها للشركات الأجنبية اللي بتجمع الزبالة.. وبيقولوا قبحهم الله إنهم بيدوكوا من الفلوس دي"، عاد لتحفزه، حقه بصراحة، وقال لي "طيب إيه الغرض يعني من الحوار ده"، قلت له " لا أصلي لاأقبل أنهم يتصبوا علينا بإسمكو"، أفتر ثغره عن ابتسامة ساخرة حنونة فاستبشرت خيرا وانتظرت حلا للغزي وبدأت أفكر فيما سأقوله للمراسل الأجنبي عن مستقبل مصر، لكنه قطع تداعي أفكاري عندما قال بعبارات قاطعة " أنا كنت فاكر إن عقلك كبير ياباشا.. إحنا لو سبناكو للحكومة ياباشا هتغرقوا في الزبالة ولامؤاخذة.. طول عمرنا شايلين (..) البلد دي وساكتين وراضيين بقليلنا.. ومش مستنيين حاجة لامنكو ولا من الحكومة"، لم أكن أدرك عمق إيمانه برسالته الإجتماعية، ولولا أنني مستأجر للشقة لكنت كتبتها بإسمه تقديرا مني له، خسر

مشاعري المتضامنة فورا عندما قال "وبعدين ماتدفع هي يعني الفلوس دي تهمك"، لم يكن الوقت مناسبا لأن أذكره بالمرضى الذين في الرابع والثالث والسابع والسادس، لم أفعل شيئا سوى أني ذكرته بفضل صيام النصف من شعبان وقلت له إني أحبك في الله وأغلقت الباب.

ساعة أو أكثر مرت وأنا أحاول النوم متغلبا على مشاعر الإهانة التي تعتريني لأني عجزت برغم كوني كاتبا عن معرفة سر دفعي لفلوس الزبالة مرتين، خمسة في خمسة، ألغيت فكرة أن أتصل بأحد أصدقائي المندوبين في محافظة القاهرة أو في وزارة الكهرباء، لن أكون مستعدا نفسيا للإستماع مجددا إلى جملة " هي فلوس زي دي تهمك". يرن الموبايل لأجد على موجاته صحفيا مبتدئا من صحيفة معارضة يسألني بحماس " حضرتك شايف مستقبل المواطن المصري محدود الدخل إزاي في هذه المرحلة التي يكثر فيها الحديث عن إلغاء الدعم"، فكرت أن اشتمه لكني تذكرت أنني جبنت عن شتيمة الزبال فاستعذت بالله من أن أكون من الجاهلين، بعد أن ساد الصمت قليلا سألني "أنا أزعجتك"، قلت له "لا أبدا أنا تحت أمرك.. انا اتخضيت من سؤالك لأني كنت لسه باناقش الموضوع ده في المطبخ مع أحد أصدقائي"، تهلل صوته وقال لي "طيب أنا حظي كويس.. ياترى ممكن تجاوب على السؤال ده إزاي"، قلت له بحيرة "سؤال إيه"، ظن أني أسخر منه فقال لي " لو أنا مضايق حضرتك ممكن أقفل"، خفت على زعله وقلت له "معلهش أصل أنا تايه شوية لأني.يمكن ماأكونش

أهل للحديث عن المواطن محدود الدخل لأني بادفع فلوس جمع الزبالة مرتين، خمسة جنيه للمحصل وخمسة جنيه للزبال"؛ قال لي مقاطعا " وهي فلوس زي دي تهمك ياباشا"، أغلقت السكة في وجهه لكي لاأتورط في شتيمة أندم عليها، بعد لحظات جاء إتصال من رقم آخر لم أكن أعرف أنه رقم آخر لجريدته إلا عندما سمعت صوته "معلهش الخط قطع من عندي.. كنت حابب أعرف رأيك باعتبارك دائما بتكتب عن السكان الأصليين لمصر.. مستقبلهم إيه في الفترة القادمة".

قلت له وأنا أتجاوز صغائر الأمور محاولا أن أبحث عن إجابة لنفسي قبل أن تكون لصحيفته " أعتقد أننا نعيش الآن في مرحلة خلع البنطلون.. أيوه ماتستغربش كلامي.. لعلك قرأت قصة ذلك الشاب ابن الناس الذي أوقفه الضابط في لجنة بشرم الشيخ ومسح بكرامته الأرض وطلب منه أن يخلع البنطلون لكي يعتدي عليه.. أعتقد أن السكان الأصليين لمصر يعيشون الآن مرحلة خلع البنطلون التي يمر بها أي شخص يخلع البنطلون في لجنة ويظل لدقائق تمر كأنها قرون يفكر.. هل سيأذن له القدر بلبس البنطلون على خير أم سيعتدي عليه القدر شر إعتداء". قاطعني الشاب ضاحكا لماذا لاأدري " كلامك مهم ياأستاذ بس صعب أنشره يعني.. ممكن تقول لي تشبيه تاني"، " أنا تحت أمرك.. قل لي شفت الفيديو كليب اللي بيتوزع على الإنترنت للضابط اللي بيتسابق هو وزمايله على ضرب مواطن حظه كدقيق فوق شوك نثروه ثم قالوا لحفاة يوم ريح ياولاد الكلب إجمعوه"؛

قال لي ضاحكا "مزاجك عالي ياباشا.. آه طبعا شفته أنا والأسرة كلها"، قلت له "حلو قوي هل تذكر كيف وقف ذلك المواطن الشاب ينتظر نصيبه من صفعة الضابط مصطفى أبو يد مرزية مسلما خده للضابط وأمره لله فإذا بالضابط يتوقف عن صفعه في آخر لحظة ويشير له بإصبعه، لا كإشارة الخلفاء لأصحاب العطايا بل كإشارة إبراهيم حسن لجمهور الزمالك ذات يوم. هذا هو حالنا الآن.. نحن ننتظر نصيبنا كأيا كان.. صفعة أو إشارة إصبع أو مادون ذلك أو مافوق ذلك.. كل اللي يجيبه ربنا كويس"، لم يعلق على كلامي بما هو أكثر من التنهيد فواصلت " مستقبل إيه الذي تسأل عنه.. ماالمسئول عنه أعلم من السائل.. ياسيدي مصر الآن حالها كحال شاب ملقى في عرض البحر قالوا له أن ذلك الشاطئ الذي يلوح في الأفق هو شاطئ إيطالي دفع من أجله دم قلبه وكتب على أهله واللي خلفوه كمبيالات لكي يصل إليه.. وهو الآن يعوم وقد ملأ الملح جوفه داعيا الله أن تكون فعلا إيطاليا وليس ليبيا أو الصومال أو الهانوفيل.. وحتى لو فرضنا أنه سيصل إلى شاطئ إيطالي فالمستقبل لايبدو مضمونا.. هذا هو حالنا ياسيدي.. نحن الآن نعيش في وطن يقول حكامه أنهم يبحثون عن الفقراء لأنهم مش لاقيينهم لأن هناك أناسا وحشين ظلوا طيلة السنوات الماضية يسرقون مايستحقه هؤلاء الفقراء.. نحن نعيش في وطن يحكمه حاكم يسمح لأعوانه أن يتحدثوا عن أهمية الإنطلاقة الثانية بعد أن قضى ربع قرن في إنطلاقة أولى.. وهي أطول إنطلاقة في تاريخ البشرية.. غرانديزر نفسه وهو ينطلق لم يقض كل هذا الوقت".

فجأة رن الموبايل وأنا أتكلم ليقطع ماكنت أتصوره تأملا فاتضح أنه هذيان عندما جاء صوت الصحفي الشاب ليقول لي "أنا آسف ياأستاذ الخط قطع قبل ماأسمع إجابتك على سؤالي"، قلت له " سؤالك عن المستقبل؟" قال لي "أيوه.. تمام كده"، قلت له "أنا آسف ممكن تكلمني بالليل أصل ماباحبش أتكلم عن المستقبل قبل تمانية مساء". وأغلقت الموبايل في أدب. أكثر من ثمانية أيام مرت وأنا أحاول أن أهرب من سماع أي شيئ عن المستقبل، حتى استمعت إلى خطاب السيد جمال مبارك قبل بدء المؤتمر الرابع للحزب الوطني وهو يقول بكل ثقة "مصر بتتغير.. لكن في ناس مش عايزه تصدق.. إحنا إيدينا على الأرض.. مش بنعوم فوق". لو كنت قد استمعت إلى تصريح مثل هذا قبل حواري مع الزبال لكنت قد أوجعته ضربا، أقصد الزبال طبعا، بينما أنا أغلي وأفور رن الموبايل ثانية، وعاد صوت المراسل الأجنبي الملعون الذي لن أصفه أبدا بصديقي لأن هناك "سمبادي" سلطه عليا، لو لم يكن الأمر كذلك لما كان قد امتلك جرأة سؤالي عن تعليقي على تصريحات السيد جمال مبارك، قلت له وأنا أتخذه وسيلة لفش غلي " الحقيقة أهم مافي تصريحات الأستاذ جمال أو السيد جمال سمه ماشئت إسم الله عليه.. هو أنه أول اعتراف بمدى ماوصلت إليه أحوال مصر في عهد أبيه.. ألم يقل أن إيدينا على الأرض.. فعلا غالبية المصريين أصبحوا على الأرض من عناء العيش في هذا البلد.. ياسيد جمال لقد قلت أننا نعوم فوق.. فهل قلت ذلك للسيد والدك سيادة رئيس الجمهورية بأننا كنا طيلة الربع قرن الماضي

نعوم فوق.. ياسيد جمال لقد عرفت شيئا وغابت عنك أشياء، إذا كانت إيديكم فعلا على الأرض، فانتبهوا لأن الشعب تحتكم قمه على الأرض وقد تعب والله من سف التراب". سكت قليلا لألتقط أنفاسي فجاء صوت المراسل الملعون " هي سف التراب دي ممكن تترجم إزاي". جاء صوتي هادرا "عارف لو إتكلمت هنا تاني هابلغ عنك إنك جاسوس". ثم أغلقت الخط.

ضحايا ولاكشوف لهم!

كنت أطالع بذهول الصفحة الأولى من صحيفة الأهرام والتي تصدرتها صورة عدد من السكان الأصليين لمصر وهم يتزاحمون أمـــام مجمـــوعة مـــن الكـــشوف معلقة على حائط، عندما سألني جرســـون الكافتيــريا الذاهل غالبا عما حوله ملاطفا ومشيرا إلى الصورة "إنت بتقرا جرنان قديم ولا إيه ياباشا؟"، لم أفهم جملته إلا عـــندما قال لي "هو مش التنسيق خلص خلاص؟.. أنا مش عارف زاحمين نفسهم على إيه.. ماحنا دخلنا كليات واتخرجنا.. خدنا إيه وفين؟.. ولا بلاش فين دي ياباشا أحسن تفهمني غلط"، نظرت إلى الـــصورة واســـتوعبت ماتخـــيله ثم قلت له "لا.. دي كشوف ربنا مايكتب عليك تكون فيها أبدا". كانت الصورة التي فهمها الجرسون خطئا لعدد من أهالي ضحايا قطار قليوب يتزاحمون لقراءة أسماء أقـــاربهم فـــي كـــشوف الضحايا التي تكرمت الجهات المختصة بتعليقها بدلا من تعليق المتسببين في وقوع كل أولئك الضحايا.

كشوف الضحايا، ياحلاوة ياولاد، هاقد أصبح لدينا الآن نوع جديـــد ورائج من الكشوف، زمان كان الواحد منا لايعرف سوى كـــشف النتـــيجة الـــذي يتوقف عليه مستقبله الدراسي في مراحل الدراسة المختلفة، قبل أن يوصي أمه بأن تدعو له المولى عزوجل

بأن يرى إسمه في كشف تعيينات أيام كان هناك تعيينات، بعدها أصبحنا نسمع عن كشوف البركة أيام شركات توظيف الأموال فنلعن أهلها ونحسدهم، ثم بعد حرب الخليج دخل إلى حياتنا مصطلح كشوف التعويضات فأخذنا نشفق على المزدحمين أمامها في السفارات وفروع وزارة الخارجية ونحسدهم أيضا لأنهم طلعوا من المولد ببعض الحمص، بعدها ومع ازدهار عصر المسرحيات الديمقراطية ظهر مصطلح الكشوف الإنتخابية ليصبح معلما من معالم الحياة السياسية تتخانق عليه المعارضة وتلعب فيه أجهزة الأمن ويتجاور فيه الموتى مع مسلوبي الإرادة، لكن كل هذه الكشوف صارت كوما وكشوف الضحايا التي راجت وازدهرت في العهد المباركي كوم آخر.

هل تتذكر كم مرة خلال العام الماضي فقط رأيت فيه صورا صحفية أو متلفزة أو غير ذلك لمئات من المواطنين يتزاحمون أمام كشوف معلقة على الحائط ليقرأوا أسماء ذويهم الذين راحوا ضحية عبارة أو طائرة أو قطار أو أتوبيس أو سيارة ترحيلات أو قصر ثقافة أو بيجو سبعة راكب، لاتشغل نفسك بالعد ولاتقلب على نفسك المواجع، فكشوف الضحايا في هذا العهد المبارك صارت أعجز من أن تحصي ضحاياها كلهم، هي إن جئت للحق أو جاء الحق إليك تحصي الذين قضوا نحبهم فقط أما الذين ينتظرون ذلك بفارغ الصبر أو الذين يسعون جاهدين لكي لايكونوا ضحايا فلم يكتب لهم بعد أن يكون لهم كشوف خاصة بهم. ربما لأنه من السهل أن تحصي الضحايا الفعليين لكن من الصعب جدا

أن تحصي الضحايا المحتملين. فأي كشوف تلك التي ستتسع لأسماء المعرضين بين غمضة عين وانتباهتها لكي يموتوا في تصادم قطارين متهالكين أو غرق عبارة مواشي تحمل معتمرين أو مرضى كتب عليهم دخول سلخانة حكومية أو محشورين في بيجو يسير على طرق ممهدة إلى الموت أو معرضين للهلاك المسرطن بسبب سوء التغذية أو انعدامها أو تلوثها؟. تعددت الأسباب ياصاح والكشف واحد. سلمها لله إذن وادعه خاشعا متصدعا بألا ينقل إسمك أنت ومن تحب ومن يتشدد لك من كشف الضحايا المحتملين إلى كشف الضحايا الفعليين. هل هناك شيئ آخر يمكن أن تفعله في مصر غير أن يلهج لسانك بدعوة مثل هذه؟. لاتحدثني عن إقالة هذا المسئول أو ذاك، عيب أن تخدع نفسك، ولاتشغل بالك بالسؤال عمن يتحمل وزر ماحدث، سواق القطر اللي قدام أم سواق القطر اللي ورا، فأنت تعلم وأنا أعلم والله من فوقنا جميعا يعلم أنه طالما لم نكن قادرين على محاسبة سواق القطر المصري بضم القاف هذه المرة فمن العبث أن نسأل عن أخطاء أي سواق آخر.

أقرأ تغطيات الصحف الحكومية لردود أفعال المسئولين على الكارثة، واشعر أن بعض كتابها وصحفييها يريدون أن ينطقوا بما يكاد ينطق به مسئولو الحكومة نفسها "احمدوا ربنا.. إنتو عايزين إيه.. اللي مات هيطلع له بيبجي ثلاثين ألف جنيه ماكانش أهله هياخدوهم وهو حي"، لاصوت يعلو فوق صوت التعويضات، كلما علا غضب الرأي العام زاد الرقم ألف جنيه أو خمسة آلاف جنيه،

هكذا هي بلادنا من قديم الأزل، الشعب اللي تعرف ديته إحكمه، لاتحدثني عن قيمة الإنسان نفسه، لاتحدثني عن حياته التي لاتقدر بمال، لاتحدثني عن إمكانية أن تصبر أسرة لأنها فقدت فردا منها في كارثة طبيعية زلزال أو إعصار أو أي مصيبة سماوية، وليس لأنها فقدته بسبب فساد حكومي أو إهمال بشري. لاتحدثني عن الحساب فلو كنت منصفا لقلتها بعلو صوتك "تحاسب مين ولا مين ولامين والدودة في أصل الشجرة؟". من نخدع جميعا، حتى نحن الذين نتحدث عن وزير النقل وتطلبه كبش فداء بحجة أنه صديق جمال مبارك؟، لماذا لانواجه أنفسنا بصدق وشجاعة لنقول بصوت عال أن المشكلة ليست ابدا في الذين ماتوا في قطار قليوب أو عبارة البحر الأحمر أو مسرح بني سويف أو حضانة أطفال مستشفى الشاطبي، المشكلة في الذين لم يموتوا بعد.

المشكلة في الأحياء الذين يسيرون في مناكب مصر وكل منهم يعلم أن ديته بالكثير تلاتين قول خمسين ألف جنيه ستدفعها الحكومة بأعين بجحة وسع كداهوه، الأحياء الذين يسعون على رزق عيالهم وهم يعلمون أنهم لو قدر لهم أن ينتقلوا من كشوف الضحايا المحتملين إلى كشوف الضحايا الفعليين سيصبحون مجرد أرقام تنشر في عناوين الصحف، أرقام سيستخدمها المعارضون للعن سنسفيل الحكومة المباركة، وسترد عليهم الحكومة المباركة بأرقام أخرى للتعويضات التي إذا صرفها أهالي الضحايا والجرحى يفترض أن تغنيهم عن كل شيئ، يفترض أن يغرقوا

بعدها في بلهنية العيش، يفترض أن يحمدوا ربنا أنهم لم يكونوا في كشوف الضحايا الفعليين ويخرسوا خالص.

بعد أن أدرك جرسون الكافتيريا أن هناك شيئا خطئا فيما قاله وبعد أن فهم النية، وياليته مافهم قال لي "بصراحة ياباشا أنا باحسد الناس دي، تلاتين ألف جنيه، ده أنا باقبض تلتميت جنيه في الشهر وباتشحطط بيهم طول اليوم والمصحف أنا لو أبويا عرف هيقول لي ياريتك كنت مت في القطر ده يابعيد.. بيني وبينك ياباشا لو أضمن أعملها بس الفقري اللي زيي الموت هيعانده أنا عارف.. هاطلع من الجرحى وآخد خمسة آلاف جنيه أصرفهم على العلاج". ينظر إلى مستغربا لأنني لم أضحك على كلامه، يقول لي "طبعا تلاقيك سرحان بتحفظ في البوقين اللي قلتهم.. بكره ألاقيهم في فيلم.. بس والنبي لو ده حصل ومادفعتش حقهم هاتف لك في القهوة قبل ماأجيبها لك". أنظر إليه وهو يذرع المحل جيئة وذهابا بكل نشاط وأستغرب قدرته على نسيان كونه ضحية محتملة، محتملة إيه ياعم الحاج، إذا لم يكن هذا الإنسان ضحية فعلية فمن سيكون إذن.

وجوه الضحايا الفعليين التي تاهت من كشوف هذا العهد السعيد تطاردني واحدة تلو الأخرى، أتذكر تلك المكالمة التي جاءتني ليلة عيد الفطر اللي قبل اللي فات أو اللي قبله، مش مهم أفتكر لأني لاأريد، يأتي إلى بعض جيراني يطلبون مني واسطة لدى أحد مسئولي الجمعية الشرعية، "شوف لنا أي صحفي من معارفك"، لماذا لم أسألهم عن المشكلة أولا، لست أدري، المهم

أنني اتصلت بعدد من الأصدقاء لأجدهم مسافرين إلي مدنهم خارج القاهرة، بعد ساعتين ذهبا هباء لابد من السؤال، طيب ماهي المشكلة يإخواننا، ياليتني ماسألت، أم شاب منهم توفاها الله بعد صراع مع أطباء المستشفيات الحكومية وممرضاتها وإهمالها، طيب ماعلاقة الجمعية الشرعية بالأمر، أصلها بتوفر سيارات نقل موتى مجانا، والست لازم تتدفن في البحيرة والدنيا عيد وكل سنة وإنت طيب، كل هذا ليس مشكلة، المشكلة أن الواسطة التي يطلبونها هي إعفاءهم من دفع قيمة مشوار العربية، اللي هو كام سعادتك، اللي هو مائة وعشرين جنيها فقط لاغير. عاش الحزب الوطني. عاش الرئيس مبارك وإبنه وأعوانهما. بنتكلم في إيه طيب؟. ارض بتعويضك السخي أيها الضحية المحتملة وكل واشكر سيدك وإبن سيدك وأصدقاء إبن سيدك.

أتذكر السيدة صباح ذات الوجه الصبوح التي عملت ذات أيام غبراء شغالة في بيتي، ولم تستمر، لماذا لأنني اكتشفت أنها أصلا محامية، طالعت كارنيهها بأم عيني بدل المرة عشرا، رفدت الحكومة زوجها تحت إسم المعاش المبكر فحولته إلى سيكوباتي يعيش عالة عليها، لم تجد من يعطيها حقوقها ولاحقوق إبنتها فلم يكن ممكنا أن تعمل من أجل رد حقوق الناس، المجتمع الشريف العفيف الذي يحب الله ورسوله أراد كثيرون من أفراده حتة منها فقررت أن تعمل في خدمة البيوت أشرف وأعف. طيب بنتكلم في إيه؟. سيبك من كل هذا وقل لصباح ولغيرها سنعطيك ثلاثين ألف جنيه وارمي نفسك في هذا القطار المتجه إلى الموت وقل لي باالله

عليك هل سترفض فورا أم أنها ستفكر في الأمر إذا لم تقل لك أبوس إيدك إنت متأكد إني هاموت ومش هيسرقوا فلوس التعويضات.

في برنامج الحقيقة للصديق وائل الإبراشي شاهدت منذ اشهر حلقة مع والدة الشغالة التي اتهمت الراقصة بوسي سمير باحتجازها ودفعها للإنتحار، كانت الأم تتحدث بحماس شديد عن السبب الذي دفعها لكي تجعل إبنتها تعمل شغالة، فجأة في سياق الكلام تحدثت عن مكتب من مكاتب توظيف الشغالات فقالت " وكانوا في المكتب ده بيدوا فلوس تفوق الخيال للي تسيب الشغل وهي ساكتة"سألها وائل "كانوا بيدوا كام"، انتبهت لأسمع وياليتني ماانتبهت، قالت وقد اتسعت حدقتا عيناها من رهبة الرقم الذي قالته "يعني ألف جنيه مرة واحدة"، شكرا يامصر، هذه سيدة تظن أن ابنتها سيئة الحظ لأنها لم تعش حتى تحصل على الفلوس التي تفوق الخيال، اللي هي ألف جنيه مرة واحدة، طيب بنتكلم في إيه أعزائي معشر الضحايا المحتملين؟.

أثناء محاولتي التماسك لإكمال هذه الكتابة على خير أو حتى على شر، أعود كعادتي إلى ملف الأوراق التي أقصها من الصحف، أحتفظ بتقرير نشرته صحيفة المصري اليوم أجرت فيه حوارا مع طالبة ثانوية عامة اسمها أمل حسن عمرها ستة عشر عاما، كان الصحفي يسألها عن أحلامها في المستقبل فقالت "بإذن الله سوف أصبح من الأوائل وأدخل كلية الطب علشان أعالج الناس من المرض الذي انتشر في البلد بس المشكلة إن

المصاريف كثيرة والحياة أصبحت للأغنياء فقط"، لم تعش أمل لكي تحقق هذه الأمنية، فقد قتلها أبوها هي وأمها وأخواتها الثلاثة لكي يريحهم من متاعب الحياة حسبما قاله في شريط الكاسيت الذي تركه قبل أن يرتكب جريمته. كم تستحق أمل من تعويض لأنها عاشت مايجعلها تقول كلاما كالذي قالته قبل الذبح، وكم يستحق أبوها نفسه من تعويض باعتباره ضحية فعلية كاملة الأوصاف. أقلب الأوراق كأنني أقلب كشوفا افتراضية، شابان يقتلان الفنان عبد البديع عبد الحي ليسرقا ٤٠٠ جنيه. ٥٠ جراحة زرع كلى تكتشف بالصدفة في اسبوعين فقط. شاب يقبض مقابل كليته ١٢ ألف جنيه بينما نقيب الأطباء حمدي السيد يقول لصحيفة ميل آند جارديان البريطانية أن ثمن الكلية يصل إلى ٨٠ ألف دولار يدفعها مرضى الخليج، من سيدفع الفرق للضحايا ومتى سيكون هناك كشوف بأسمائهم.

قبل أن اصل إلى تقرير عن تجارة جديدة لبيع الدماء يدمنها بعض الشباب العاطل أتوقف، لاأحتمل مزيدا من التقليب في ملفات الضحايا، أسارع بمغادرتها لكن نفسي الأمارة بالسوء تحدثني بقراءة ورقة طبعتها من على ايميلي وأجلت نشرها، ربما لأن قراءتها لأول مرة كانت أكبر من قدرتي على صياغتها أو التعامل معها، أحمد متولي من الإسكندرية لديه الشجاعة أن يذكر اسمه بل وكليته، " سيدي انا طالب فى كلية تجارة انجليزى جامعة الاسكندرية...اذكر ذلك فى بداية كلامى حتى لا يظن البعض انى جاهل ...لن اطيل و سأدخل فى الموضوع مباشرة، كنت اشاهد

برنامجا في التليفزيون وفجأة سمعت كلمة " جريب فروت" فسألت نفسى سؤالا لم افكر فيه من قبل، وأقسم لك بالله أنني أسأله جادا لاهازلا،ماهو الجريب فروت؟؟الواضح طبعا انه فاكهة لكن شكله ايه؟ طعمه ايه؟ بيتاكل ازاى؟.الله اعلم.أخذنى هذا السؤال الى اسئلة اخرى كثيرة.. خد عندك...انا ليه معرفش الجريب فروت؟. طيب هل حييجى عليا يوم واكله ولا حعيش واموت محروم من الجريب فروت؟. طيب هما اللى بياكلوا الجريب فروت احسن منى فى ايه؟ و طبعا مفيش ولا اجابة على اى سؤال فيهم...انا معنديش اعتراض على ان فى ناس بتاكل جريب فروت ...الف هنا وشفا...بس انا كمان من حقى اكل منه او على الاقل اعرف شكله ايه؟! هل اللى انا فيه ده ذنبى؟ ولا ذنب اللى بياكلوا جريب فروت؟ ولا ذنب البلد اللى بتخلى ناس بتاكل جريب فروت و ناس تانية بتجاهد يوميا عشان تلحق تاخد رغيفين من الفرن...ولا ذنب الجريب فروت؟". ماعلاقة هذه الرسالة بكل مانتحدث عنه الآن؟ بالطبع هناك علاقة وثيقة لامراء فيها وإذا لم تدرك علاقة شغف أحمد بضحايا قطار قليوب بالباحثين عن واسطة في الجمعية الشرعية بصباح وإبنتها بالذين يموتون في البحر المتوسط قبل تحقيق حلم الوصول إلى شواطئ إيطاليا فالمشكلة عندك أنت وليست عندي. على أي حال دعني أذكر لك فقط أن مشكلتي الحقيقية مع أحمد كانت أنه بعد مناقشته عبر الإيميل اتضح أنه زعلان لأنه يتخيل أن الجريب فروت فعلا حاجة حلوة قوي تستحق الزعل على الحرمان منها، وهو ماكنت أظنه أنا نفسي

ذات يـــوم، يعنـــي منذ أن كنت أنا مطرحه وحتى الآن لم تستطع مـــصر أن تعلـــم أبناءها أنه لاداعي لأن تبكي أبدا على الجريب فروت، لأن البرتقان برقبته.

ولاأراكم الله حبيبا في كشف ضحايا لديكم.

عزيزي المواطن..
إوعى حد يوريك "القطر"!

أستغرب كثيرا أن يتحدث الكثيرون في وسائل الإعلام عن جرائم سفاح أطفال الشوارع الشهير بالتوربيني كأنها حدث غير مسبوق مع أنها لاتعد شيئا مقارنة بما ارتكبه سفاح المصريين الحزب الوطني الشهير بحزب الأغلبية. الفارق الأساسي بين التوربيني والحزب الوطني هو أن التوربيني يرمي ضحاياه من فوق القطار بينما الحزب الوطني يرمي ضحاياه داخل القطار. التوربيني سقط في يد العدالة بعد أن قتل عددا من الأطفال يتجاوز العشرين طفلا، بينما تبدو يد العدالة غير قادرة على الإمساك بأي من توربينات الحزب الوطني الذي قتلت حكوماته بفعل إهمالها وفسادها وتسيبها آلاف المواطنين في القطارات والعبارات والطرق السريعة، فضلا عن ملايين منهم من قضى نحبه بالأمراض المستعصية والقهر والفقر ومنهم من ينتظر أجارنا الله وإياكم.

عندما استغربت إهتمام صديقي المراسل الأجنبي المبالغ فيه بقضية التوربيني التي ربما تعامل معها أغلب المصريين بوصفها "من ضمن المصائب" التي يعيشونها، بل وربما أخذها البعض مادة خصبة للكوميديا السوداء رياضة المصريين المفضلة، قال لي أنه

تعامل مع التوربيني بكل هذا الإهتمام لأنه يبدو قاتلا إستثنائيا في تاريخ مصر. ليس فقط لأنه قرر مع سبق الإصرار والترصد أن يرد للمجتمع عطاياه، بل لأنه قاتل تسلسلي في بلد يتمتع كل من فيه بقصر النفس، حتى القتلة.

إستثن ريا وسكينة اللتين رفعتا رأسنا عاليا بين قتلة الكون وستلاحظ أن القاتل المصري لحسن حظنا يكتفي عادة بضحية أو إثنتين قبل أن يولع في نفسه بجاز أو يسلم نفسه للبوليس ويبدأ رحلته مع الندم مع أول قلم في قسم البوليس، بينما في المجتمعات الغربية يبدو القاتل التسلسلي مألوفا نوعا ما، يتسابق القتلة التسلسليون هناك في تحقيق الأرقام القياسية سواء في عدد ضحاياهم أو في عدد السنوات التي يقضونها قبل سقوطهم في أيدي العدالة، برغم أن الحكومة هناك لاتقدم لهم التسهيلات التي تقدمها الحكومة المصرية للمجرمين، فمن يستطيع إنكار دور البنية الأساسية في بناء النفق الذي اختبأ فيه التوربيني وصحبه طيلة السنوات الماضية، ومن يستطيع إنكار التسهيلات الأمنية التي جعلت من محطات القطارات مسرح جريمة مكيف الهواء وكامل التجهيزات يكفي لإغتصاب وقتل أكثر من عشرين طفلا في زمن قياسي، عندما تستمع إلي التوربيني وهو يقول في التحقيقات التي تناقلت الصحف أنباءها أن سر إختياره للقطارات كمسرح لجرائمه هو " أصل ماحدش كان بيقولي إنت رايح فين".

لاأريد أن أكون قاسيا في الحكم على مباحث السكة الحديد التي لعلها كانت مشغولة بتأمين القطارات من ركوب الإرهابيين

أو أعضاء حركة كفاية وجماعة الإخوان القادمين للمشاركة في مظاهرات العاصمة، لكنني لاأستطيع منع نفسي من إفتراض أن مشهد طفل شوارع يمسك بطفل صغير ويدخل به إلى محطة القطار أمر لابد أن يكون مثيرا للريبة خصوصا أن إدراك العلاقة بين محطات القطارات والإعتداء على الأطفال ليس أمرا وليد هذه الأيام بل هو جزء من الثقافة الشعبية المصرية يتم توارثه عبر الأجيال.

أبناء الأحياء الشعبية مثلي يحفظون جيدا تلك النصيحة التي كنا نسمعها ونحن أطفال أكثر من نصيحة غسيل الأسنان قبل النوم، "إوعى حد يقولك تعالى أوريك القطر"، لم يفكر أحد منا أبدا أن يسأل عن حكمة تلك النصيحة وسر ارتباطها بالقطار دونا عن غيره من وسائل المواصلات مع أنه لم يكن جديدا على أيامنا بالطبع، وكان الواحد منا امتثالا للنصيحة الخالدة يكتفي بالإعتذار لأي طلبات ترده لرؤية القطار بأن يقول بأدب " شفته قبل كده"، أو أن يكون أذكى فيقول لصاحب العرض المريب" معلهش أصلي باركب بيجو".

صديقي المراسل الأجنبي أخذ ماقلته له بجدية شديدة وبدأ يفكر في عمل زاوية في قصته الخبرية عما إذا كانت النصيحة الأسرية الشهيرة بعدم الإستجابة لمن يعرض رؤية القطار قد اندثرت خلال السنوات الماضية مع تقطع الروابط الأسرية وصلة ذلك بوقوع هذا العدد الكبير من الضحايا بين يدي التوربيني ورفاقه، لكنني قلت له أن ظروف الحياة القاسية في أزهى عصور

الفقر التي تعيشها لم تنس السكان الأصليين لمصر فقط أن ينصحوا أبناءهم بالحذر ممن يدعوهم لرؤية القطار بل أنستهم أنفسهم لدرجة أنهم يمكن أن يستجيبوا لهذه الدعوة لو وجهت إليهم.

ككل مابات تشهده مصر الآن، يبدو الأمر حزينا بقدر مايبدو عبثيا، يتوقف صديقي الأجنبي عند تفصيلة ربما لم تلفت إنتباهنا كثيرا، هي أن مصر هي البلد الوحيد الذي عندما تتعرض فيه للإغتصاب والقتل تكون مضطرا لبذل مجهود إضافي للصعود فوق سطح قطار. لاألومه لأنه ليس فقط من حضارة أخرى بل من دنيا غير الدنيا عندما يسألني عن السر الذي يجعل أي إنسان مهما كان معدل ذكاءه منخفضا يوافق على أن يدعوه أحد للصعود على سطح قطار، للحظات هممت بأن أشرح له العوامل النفسية المرتبطة بظاهرة التسطيح التي ترتبط بدخول الإنسان المعاصر مرحلة العدمية الإنسيابية والتي لم تعرف بعد، لكنها إذا عرفت يمكن القول أنها المرحلة التي تصبح كلمة "ماتفرقش" هي الرد الوحيد على كل الأسئلة، لكنني تراجعت عن قول ذلك مفضلا أن أغرق في ذكرياتي عن الأيام التي كنت أعتبر نفسي فيها وأنا مدفون في زحام قطارات الدرجة الثالثة واحدا من المحظوظين لأن الأيام بكل قسوتها لم تضطرني بعد للتسطيح على القطار، كان ذلك بالنسبة لي الخط الفاصل بين الوجود والعدم، أن تكون نائما على كرسي يقطم الضهر وفي مواجهة فمك تتدلى بيادة مجند مرهق، وعلى حجرك عشرين بسكوتة خلقها صاحبها الميت ولابد

أن تشتريها لكي تخرج ورثته من أزمتهم، هو أفضل بكثير من أن تكون مضطرا للتسطيح على القطار حيث يغتصبك الهواء فعلا لامجازا وتظل طيلة الطريق الذي لايعلم أحد حتى سائق القطار مدته معرضا للدحرجة والسقوط بين عربات القطار مع أي فرملة غير مبررة، هذا إذا كان هناك في قطارات مصر فرملة غير مبررة، بالنسبة للكثيرين من السكان المتنفعين بمصر يبدو التسطيح أمرا لذيذا أو أوريجينال أو في أحسن أحوالهم الثقافية مثيرا للشجن لأن أحمد زكي أو منتصر في فيلم الهروب كان يسطح على القطار وهو ينظر للصقر بنظرات مليئة بالحيرة والعزة، وإذا كان هؤلاء لم يفهموا التسطيح أبدا فهل يفهم هذا الأجنبي الذي اتخنقت منه كل هذا، قررت تركه لكي لاأجد نفسي متورطا في الإساءة لبلادي خاصة أنني لست أهلا لأن أساعده على الفهم إذا كنت أنا نفسي لم أفهم نفسي أبدا وأنا شغوف بالتعلق في الهواء الطلق لايفصلني عن الموت أو الشقلطة على الأسفلت سوى الإمساك بحديدة عربية ربع نقل عدد من هم خارجها أكثر ممن بداخلها، بينما يكتفي ركاب السيارات الملاكي بالنظر إليهم باشمئناط والضرب كفا على كف قائلين " يعني مش قادرين يستنوا العربية اللي بعدها.. ده إيه التخلف ده"، لاتسلني كيف سمعت ماقالوه، فأنا أقوله الآن عندما أرى هذا المنظر الذي أعتبره دائما الرد القاطع المانع الجامع على كل من يتحدث دون فهم عن سلبية المصريين وعدميتهم، دون أن يدرك كيف يمكن أن تكون ظروف الحياة قاسية إلى حد يجعل الحياة ذات نفسها "ماتفرقش".

هل ابتعدت بخواطري وأفكاري عن موضوع التوربيني؟ لاأعتقد حتى لو كنت أنت تشارك صديقي الأجنبي الإعتقاد بأنني فعلت؟. أفضل أن أحتفظ بأفكاري بعيدا عنه وعنك لو أردت. بالنسبة لي كل الأمور الخاطئة والمريبة في هذه البلاد صارت "منفذة" على بعضها، أن يموت عشرون طفلا بعد إغتصابهم من فوق قطار لاينفصل أبدا عن أن يحترق مئات أمثالهم داخل قطار، وأن تغرق ألف نفس في مياه البحر ظلما وعدوانا بينما الشعب يرقص طربا لأنه هزم كوت ديفوار، لايمكن أن ينفصل أبدا عن تحول الشوارع إلي مفرخة لإنتاج الإرهابيين والسيرنجية والقتلة التسلسليين، كما أن كل ذلك في حقيقة الأمر ليس سوى محصلة لتحول البيوت التي هزمها الفقر وفتتها الإصلاح الإقتصادي وفرمها إحساس رئيس البلاد الدائم بمحدودي الدخل إلى أماكن طاردة للبشر، الرجال إلى شغلانة تلو الأخرى في اليوم ثم إلى الإرتماء مخمودين آخر اليوم وإلا فإلى القهاوي للتنفيس بالدمنة والمعسل والشكاوي، والنساء إلى عتبات البيوت وشاشات الوصلات للتحسر على الحال والتفكير في وسائل جديدة للتنكيد على الرجال، والأطفال إلى شوارع الضياع حيث يمكن أن تغض عنك الحكومة الطرف طالما كنت قادرا على معرفة الدهاليز الخلفية التي تجري فيها من عربية الأتاري بعد أن تشرح أحدا بالموس أو تسرق مواطنا غافلا أوتدعو زميلا لك لرؤية القطار.

للشوارع الخلفية قانونها في العهد المبارك، إفعل ماشئت شريطة أن لاتخرج إلى الشارع الكبير شاكيا أو لاعنا أو حتى

خادشا لتلك الطبقة الخادعة من السلام الإجتماعي، لسنوات طويلة ظلت الناس تدرك هذا القانون جيدا، لكن المشكلة الأخطر في رأيي أن الناس بدأت تنتهك هذا القانون وتخرج إلى الشارع الكبير، من يومين شاهدت في وضح النهار رجلا يبدو أنه عاقل بالغ بدليل أنه يمسك موبايلا في يده وهو يتبول في الشارع الرئيسي إلى جوار وزارة الخارجية مباشرة، لاأدري إذا كان ذلك موقفا من سياسات الوزير أحمد أبو الغيط، لكن ماأدريه أن زمن عدم إعتداء الشوارع الخلفية علي الشوارع الأمامية قد بدأ.

في عيادة الطبيب وجدت نفسي مجبرا على الإستماع لنشرة تسعة والعياذ بالله، كان المذيع ينقل تصريحا للرئيس مبارك قال فيه لرؤساء تحرير الصحف القومية أن النزول إلى الشارع قرار غير حكيم، ظننته يقصد شوارع الدويقة أو مدينة السلام أو الضهرية، لكنني اكتشفت أنه يقصد شوارع بيروت، مع أن بيروت على مدى أكثر من أسبوع من التظاهر بمئات الآلاف لم تشهد سوى حادث قتل واحد جاء مع سبق الإصرار والترصد، لكن كم حادثا شهدته في نفس الفترة شوارعنا التي تمتلئ بالحكماء الذين لايعترضون علي أحوالهم أبدا. هل أبدو لك متشائما؟ هل أشعرك كلامي بالقلق؟ هل تريدني أن أقول لك أن الأمور بخير طالما كنت أنا بخير وأنت بخير؟ هل نحن حقا بخير؟ إذن من أين جاء التوربيني؟. شفت أن كل ماأحدثك عنه له علاقة بالتوربيني؟.

منذ أيام جاءني صديق أعتبره دائما من خيرة الناس وهو يتصبب عرقا وفزعا، وحكى لي كيف أنه وهو من سكان حي

المهندسين الراقي فوجئ وهو بصحبة والدته بطفل شوارع لايتجاوز العاشرة من عمره يأتي إليه وهو يستعد للتحرك بسيارته أسفل بيته، وبدأ في مسح زجاج سيارته بخرقة متسخة زادت زجاج السيارة سوءا على سوء، بحركة لاإرادية شخط صديقي في الطفل الذي سدد إليه نظرات ذكرته بنظرات أنتوني هوبكنز وهو يجسد دور السفاح هانيبال لانكتر في فيلم صمت الحملان الشهير، سألته ماإذا كان قد أخرج له لسانه ولعق الزجاج كما فعل هوبكنز، فشخط في طالبا أن استمع إلى باقي الحكاية، وهي باختصار أن الطفل عندما أحس أنه اهتز قليلا بفعل النظرات التي سددها له، توجه فورا إلى شباك العربية الآخر وأخرج من فمه موسا وأخذ يشوح به في الهواء قبل أن يختفي كفص ملح ذائب بعد أن تحرك بواب العمارة نحوه، هل يبدو لك صديقي خرعا وهو يشعر بهذا القزع، ربما تراه كذلك، لكني لم أره كذلك وهو يسألني بجزع "يعني خلاص قربت بقى إنك تمشي في الشارع فتترفع وتتقلب أو تتطعن من غير مايبقالك دية"، بالطبع طمأنته أن ذلك لن يحدث بسرعة طالما بقي دائما في حدود المهندسين وماحولها لأن الحكومة ستكون حريصة دائما على حمايته لأنه في وجهها، أما الكتلة الغاطسة في خرارة الفقر فلها الله أو لتأكل في بعضها.

في موضع آخر حكى لي صديق برضه من خيرة الناس كيف انخفضت أسعار الشقق والفيلات في مدينة الشروق والقاهرة الجديدة بسبب كثرة حوادث السرقة التي تتعرض لها المدن الجديدة على أيدي الخارجين على القانون من سكان العشوائيات المجاورة

لها. ليعقب عليه صديق آخر من شرار الناس في جلستنا بمقولة ضابط بوليس في أحد أحياء إسكندرية العشوائية قال للناس عندما اشتكوا له من تغول ظاهرة أطفال وشباب الشوارع الذين يمارسون البلطجة وبيع المخدرات والإعتداء على الأطفال فرد عليهم بأن قوة القسم لاتتسع إلا للقبض على ستين أو سبعين منهما بينما عدد المشبوهين في شوارع المنطقة يتعدى الثلاثمائة، يعني محتاجين خمس أقسام كمان.

هل ستعتبرني مدافعا عن وزارة الداخلية عندما أقول لك أن الحل الأمني على أهميته لن يكون أبدا حلا ناجعا، طالما استمرت سياسة الإفقار المتعمد للناس والتي لم يعد ممكنا أن تسيطر الحكومة فيها على سعر كيلو البصل، بينما المفروض أن تسيطر على السلام الإجتماعي. عندما أفكر في الجملة التي نقلها صديقنا عن ضابط الشرطة أقول لنفسي فزعا أن المشكلة الحقيقية في مصر لم تعد في أن القانون لايطبق، بل في أنه إذا تم تطبيقه فعلا فلن يكون هناك متسع في سجون وأقسام مصر للمخالفين للقانون. أنصار نظرية المؤامرة يقولون أن هناك قرارات حكومية سرية بعدم التشديد على الناس في جوانب كثيرة في الحياة لكي تعدي الليلة ولاتضيق صدورهم فيبدأوا في التساؤل قائلين "إشمعني إحنا ماالحرامية ماليين البلد وماحدش بيدوس لهم على طرف".

لم أكن أبدا من أنصار نظرية المؤامرة لكني كلما نزلت إلى الشارع أجد الكثير من الوجاهة في نظرية مثل هذه، تبدو الدولة كأنها تدير وجهها الناحية الثانية ليصنع الكثيرون ماشاؤوا طالما

أنهم يطحنون في بعضهم البعض ولايفكرون في أن يسألوا عن مصيرهم في الأيام القادمة، لاأدعي أنني أعرف الناس كلها لكنني أستطيع أن أزعم أن كثيرا ممن أعرفهم لايبدون هنا على الإطلاق، كلما جلست في جلسة وجرنا الحديث إلى مستقبل البلاد ومهزلة التعديلات الدستورية أسكتتني ذات العبارة "ياعم ماتوجعش دماغنا.. إياكش تولع"، نفس المنطق الـ "ماتفرقشي" يسود لدى الغالبية، المهم أن ينتصر الأهلي في اليابان وأن تتجاور عفة الإيشارب مع فساد النفوس، أن يزيد الحجاب حتى لو نقصت العفة، أن تكثر المساجد ولو قل المصلون، عندما أفكر في كم التحذيرات التي استمعت إليها قبل ولادة ابنتي من أن أسميها إسما يبدو عليه أنه مسيحي أصاب بالفزع خاصة أن كل من كان يحذرني أناس متعلمون وحاصلون على درجات في العلم، ناهيك عن الكم المرعب من القصص التي أسمعها عن اختطاف هذه الفتاة وتنصير تلك السيدة وإدخال ذلك القسيس في الإسلام، بلاش عندما أفتح الإيميل أفاجأ بأن أغلب الإيميلات التي ترسل إلي وإلى عشرات غيري بطريقة الفورود تناقش قضايا تصلح للقرن السابع أو التاسع الهجري أو لمجتمع غير مجتمعنا يوشك على الغرق.

منذ أيام وأنا في بيت أحد أقاربي كنت أستمع وأنا أشعر بطرب حقيقي إلى العالم المصري الدكتور محمد النشائي الذي يكفيه فخرا أنه اخترع فرعا جديدا من العلم لم يسبقه إليه أحد، أسأل نفسي كيف يمكن أن تخاصم مصر عالما مثل هذا أقل مايمكن فعله معه أن تفتح له ساعات من الإرسال المباشر لعله

ينفض العنكبوت الذي عشش في عقولنا، فجأة تغير الإرسال لأجد مكانه قناة الناس التي تبث شيخا يتحدث عن آداب الإبتسام والضحك في الإسلام وأجد قريبة لي هي طبيبة بالمناسبة تعتذر لأنها لاتستطيع أن تفوت هذا الموعد اليومي مع هذا الشيخ، قلت لها أنني أزعم أننا يمكن أن نتقرب إلى الله أكثر لو استمعنا إلى الدكتور النشائي، وأن الله عزوجل قد يغفر لنا إذا ضحكنا بدون أدب، لكنه لن يغفر لنا أن نعيش في هذه الدنيا أحمرة لانضيف لها شيئا ولانعمرها كما أمرنا بالعلم، كان لساني يتشك ولا أقول هذا، لأنني قضيت ساعة إلا ربع أقنعها بأنني لاأستهزئ بالإسلام ولاأكره الشيوخ مستشهدا بأننا صلينا العشاء سويا قبل أن أنزل معتذرا لأنني أفسدت السهرة. في الأسبوع الماضي أخطأ صديقي الفنان المبدع هشام رحمة عندما قام برسم التطرف الذي كنت أحكي عنه في مقالي "المحاكم الشرعية الصومالية فرع مصر" على أنه تطرف اللحية المشعثة والجلباب القصير، التطرف الأخطر في مصر صار تطرف العقل الذي يرفض التفكير في جسد حليق الذقن يرتدي أحدث الموديلات. دعني أقل لك أنني عندما أرى أغلب من حولي وهم يتحدثون عن الدين وحكمه ورأيه لاأجد على لساني إلا سؤالا واحدا " إذا كنا عارفين ربنا إلى هذا الحد فمن أين إذن جاء القوربيتي وصحبه؟".

في الشوارع يبدو الناس وقد ناؤوا بحمل ثقيل لايملكون معه إلا التجهم وتبادل النظرات العدائية، منذ يومين ضبطت نفسي متلبسا وأنا أقول ساخطا "ياسيدي على الروقان" بعد أن شاهدت

سيارة إلى جواري يصفق فيها بعض الشباب طربا على أنغام غناء الشيخ ياسين التهامي، جرب أن تقهقه من الضحك وسط زحام المدن الذي أصبح عادة لايقطعها الله، وراقب كيف سينظر إليك من حولك، أما الشوارع نفسها فتبدو وسط كل هذا كئيبة متربة متسخة، انقبض قلبي بشدة عندما أصبحت أشعر أنها تذكرني بتلك الشقق التي يركنها أصحابها لفترات طويلة باحثين لها عن أي مشتر أو مؤجر، تبدو شوارع مصر هكذا كأنها أصبحت بلا صاحب، كأنها تنتظر الآتي ولا يأتي، كأنها تعبت خلاص.

سأعتبرك قادرا على تحملي إذا كنت لاتزال تقرأ مقالي حتى الآن، ولذلك سأسألك السؤال الأهم بكثير من سؤال " من أين جاء التوربيني"، سؤالا شديد الجرأة، سؤالا يثقل صدري بشدة منذ فترة، خلص ياسيدي وإسأل، حاضر، سؤالي ببساطة " هل فعلا حسني مبارك هو مشكلتنا؟ هل ستنصلح أحوالنا إذا لم يكن هو الذي يحكمنا؟ وهل سنكون أسعد حالا لو جاء إبنه أو غير إبنه ليحكمنا ونحن على نفس هذا الحال؟".

أعلم أنك لن تظن بي انهزاما أو تخاذلا أو تراجعا عن أفكاري المعارضة التي تحمل نظام الرئيس مبارك المسئولية عن تردي الأحوال في مصر، لكنني أصبحت غير قادر على تخطي هذا السؤال الذي يطاردني في اليوم مابين اربع إلى خمس مرات لأسباب متفرقة، منذ أسبوعين فرحت عندما قرأت مقالا لكاتب معارض متميز هو الدكتور إبراهيم السائح أحد أبرز كتاب

صحيفة التجمع التي كتب في عموده فيها قائلا " إن كنا جميعا نعلم أن النظام المصري فاشل وضعيف وفاسد، فلماذا يستمر مبارك في حكم البلاد لمدة ربع قرن دون أدنى منافسة حقيقية ولماذا يستغيث به الضحايا رغم أنه صاحب القرارات التي تقطع رقابهم... السبب الرئيسي في استمرار مبارك رغم سوء أدائه هو أننا جميعا ننافسه في سوء الأداء، كل قطاعات الشعب المصري أداؤها العام والخاص أقل كثيرا من أداء حسني مبارك، قد يكون مبارك نفسه أحد أسباب سوء الأداء العام في مصر ولكنه بالقطع ليس السبب الوحيد، كل الناس في مصر يتهمون حسني مبارك بأنه رئيس على قد حاله، والبعض يتطاولون عليه ويتهمونه بأنه ليس رئيسا على الإطلاق وأنه لايصلح لحكم قرية صغيرة وليس دولة في مساحة مصر وقيمتها وتاريخها، ولكننا جميعا ننسى تقييم أنفسنا وأدائنا ومستوانا العام والخاص، ولو فعلنا لوجدنا أننا إما مثل مبارك أو أقل منه، ولهذا يستمر في حكمنا طوال هذا العمر لأن الحال من بعضه، ويرفض الإعتراف بإنتقادنا له لأن الذي بيته من زجاج لاينبغي أن يقذف الناس بالطوب".

أعرف أن كلام الدكتور السائح الذي لم أتشرف بمعرفته لن يسعدك أبدا، أعرف أنك غالبا ستراه يائسا أو متشائما أو ملقيا اللائمة على غير أهلها، لكنني أقول لك أنني وبعد تفكير طويل أتفق معه تماما، بالطبع هو لم يجب التائهة ولا أنا أيضا، وبالطبع هناك كثيرون سبقوه إلى ماقاله لعل أولهم قائل الأثر الخالد الجامع المانع " كما تكونوا يول عليكم"، أعرف أنك تجلس وأنت غارق

في سوء الحال تنتظر اليوم الذي تتحقق فيه المعجزة ويتغير فيه حاكم مصر لينصلح حالها، لكن ذلك لن يحدث أبدا طالما لم أدرك أنا وأنت أن سوء الحال نابع من سوء الأداء، لو لم يسأل كل منا نفسه عما فعله لإصلاح ماحوله أو الإعتراض عليه، لو لم يدرك كل منا أن معركته الحقيقية تبدأ من داخل بيته وأنه إذا لم ينتصر فيها أولا فلن ننتصر في أي شيئ، لو لم يدرك كل منا أن خلاصنا في تنوير القرآن وتطبيق مقاصد الإسلام قبل أشكاله، لو لم يدرك كل منا أننا لاشيئ بدون الحرية والعلم، وأن الحقوق تنتزع ولاتوهب، وأننا سنظل مهددين بالتوربيني الصغير طالما سمحنا للتوربينات الكبار أن يرتعوا في الأرض فاسدين مكتفين بالشتيمة والسخط والكوميديا السوداء.

وحتى يحدث ذلك دعني أختم كلامي الطويييل المريير بالكوميديا السوداء.

في نهاية يوم مثقل بالهم والتفكير يأتيني صديقنا المتشكح دائما وأبدا ليقول لي وهو يكاد ينفجر ضحكا أن أحدث نكتة وصلته على الإيميل تروي قصة إثنين من أعز الأصدقاء شغلهما كثيرا البحث عن التوربيني سفاح الأطفال قبل القبض عليه، وأقنع أحدهما الآخر بأن يذهبا إلى محطة القطار لكي يبحثا عنه، عندما وصلا إلى المحطة ولم يجداه، أصر صاحب الإقتراح على أن يواصلا البحث بين القطارات المهجورة، ثم أصر على أن يكملا البحث فوق أسطح القطارات، وعندما صعدا إلى سطح القطار التفت الصديق ليجد صديقه صاحب الإقتراح وقد خلع بنطاله

ونظر إليه بنظرات شريرة ذات مغزى وقح وقال له ضاحكا " مفاجأة مش كده".

انفجر صديقي ضاحكا بينما اكتفيت بأن أنظر إليه بنظرات تطق شررا وشزرا، وبعد أن توقف عن الضحك بصعوبة ليسألني عن رأيي، اكتفيت بأن أقول له بمرارة "أكيد وإنت صغير حد وراك القطر".

وقائع هبة شعبية لم تكتمل
في مصر الجديدة!

لم أكن أتوقع أن أشاهد تلك الواقعة في مصر الجديدة بالذات. لكن ذلك ماحدث ورأيته بأم عيني الأسبوع الماضي أمام جامع كبير في أحد ميادينها الشهيرة.

عندما دخلت إلى الجامع لكي ألحق بصلاة الجمعة كان عدد قليل من بائعي الفاكهة قد بدأ في رص كراتين الفاكهة أمام المسجد آخذا في تزويقها وتزيينها، فيما كان خطيب الجامع يتحدث بحماس حقيقي عن غياب الضمير في مجتمعنا وعدم تذكر أي منا أن الله عزوجل يراقبه ويراه، استبشرت خيرا بالخطبة التي يعد موضوعها بمناقشة ساخنة لأوضاعنا المزرية، لكن الخطيب لم يرد لفرحتي أن تكتمل، دونما سبب أراد أن ينتقل من حياتنا المعاصرة ليرجع بنا مئات السنين إلى الوراء ليحكي لنا قصصا عن الغامدية وماعز وغيرهما من التوابين الذين أصروا على أن تقام عليهم حدود الزنا وشرب الخمر لكي تكتمل توبتهم، قبل أن يستفيض في الحديث عن الزنا وشرب الخمر، ليجدد جرحي مع خطباء الجمعة الذين لاأدري سر ولعهم بالحديث عن الزنا وشرب الخمر والمخدرات لجمهور من المصلين لو كان يرتكب أشياء كهذه لما جاء إلى المسجد أساسا، جمهور يحتاج إلى أن نقول له

كـيف يكـون الدين أبعد من مجرد الصلاة والإستماع إلى خطبة الجمعـة، كـيف يكون ثورة على الظلم والفساد والتخلف، وكيف يكـون سـبيلا إلى الحرية والعقل والتفكير، فجأة تعثر بائع جوافة فوقـع على الكرتونة التي رص عليها فاكهته قبل أن يقوم مسرعا للـم حـبات الجوافة التي تبعثرت على الطريق ويساعده بأريحية بعـض المـسرعين للحاق بالصلاة، لم يكن البائع يعلم أن تعثره وتبعثر بضاعته نذير شؤم سيلحق به عما قريب.

انـتهت الخطـبة بعد أن فقد أغلب المصلين التواصل معها، ولولا أن الإمام كان رخيم الصوت متمكنا من قراءة القرآن الكريم لمـا شعرنا أننا صلينا الجمعة أساسا. يادوبك خلصت الصلاة من هـنا ويـبدأ أغلب المصلين في ممارسة عادة الهروب من المسجد فـور تـسليمهم – ألا صـحيح هل لدى أحدكم تفسير لهذه العادة المقيـتة التـي نقع فيها جميعا كل جمعة – علت أصوات الباعة تنادي على الفاكهة "كله بجنيه ونص ياباشا.. رمان سكر وجوافة عـسل.. خـش علـى العنب ياباشا"، حمدت الله أن أحد الباعة لم يـتطوع بالوقـوف لهز وسطه على أنغام أغنية العنب العنب التي باتـت تطاردنا جميعا في كل مكان هذه الأيام، اتجهت باتجاه بائع الجـرائد لكنـي عـدت ثانـية باتجاه باب المسجد بعد أن سمعت أصـوات صراخ وزعيق ترد من ذلك الإتجاه، عندما وصلت كان المشهد الذي رأيته غير مألوف على الإطلاق في مكان مثل هذا به أكثر من مكان حساس.

كانـت قوة مشتركة من أشاوس البلدية والداخلية قد انقضت

علـى المكـان عقب الصلاة مباشرة وأخذت تداهم بنجاح ساحق أوكـار باعة الفاكهة محدثة خسائر كبيرة في الجوافة والعنب بينما لـم يصب البلح والرمان بأضرار بالغة، فيما تمكن بائع تفاح بلدي مـن الفرار بكرتونته التي لم تقو كثيرا على تحمل جريه فتفككت أوصالها في الشارع ليقف الرجل مذهولا للحظات ومحتارا بين لم ماوقـع مـنه والفـرار بما بقي في حوزته، قبل أن يؤثر السلامة والفـرار ربمـا لأن حجم القوة كان ينبئ بأنه لن يتم إلقاء القبض على الفاكهة فقط، بل ربما تم القبض على باعتها وحتى مشتريها، سـتقول لـي وأين الجديد في ذلك، فأنت بالتأكيد تراه كل يوم في أرجاء المحروسة. الجديد أن عددا لايستهان به من المصلين تحلق حـول القـوة المشتركة ليمنعها من الإعتداء بالضرب على الباعة الـذين رفضوا التخلي عن الفاكهة التي دفعوا فيها دم قلبهم وكان لـديهم أمـل في أن ترد الدموية فيهم بعد بيع الفاكهة، فيما حاول مـصلون آخرون إنزال الفاكهة التي ملأت عربة الربع نقل التي جـاء بها الأشاوس، وقفت للحظات أستوعب المشهد الذي تعودت علـى رؤيته في المناطق الشعبية، وليس في مكان كهذا قريب من عـدد مـن الأماكن الحساسة، ووسط جمهور من النخبة لم يتعود علـى الإشـتباك مع الحكومة هكذا، كان يقود عملية المقاومة كما بدت لي رجل يرتدي جلابية بيضاء ناصع لونها كنصوع أمارات الجدعـنة الـبادية علـيه، حماسه شجع الكثيرين على الإعتراض وإنكار مارأوه منكرا، كان الرجل يصرخ في أفراد القوة المشتركة ممـسكا بيد كبيرهم الذي يحمل جهاز لاسلكي في يده "يعني إحنا لـو مسكناكو دلوقتي وقطعناكو ضرب هتعملوا لنا إيه؟"، أعترف

أن سؤاله أذهلني كما أذهل الواقفين إلى جواري فلم يكن يخطر على بالي أن يجاهر الرجل بعدائه بهذا الشكل، لكن الذي أذهلني أكثر أن رجل اللاسلكي قال له بمنتهى الإستسلام "ولاحاجة يابيه"، لم أفهم للحظات سر انكسار الرجل، هل لأنه يعلم طبيعة المكان وطبيعة ساكنيه التي تدفعهم لهذا الإستبياع الشرس، سألت نفسي سؤالا خاطفا هل كان يمكن أن يكون رد رجل اللاسلكي هكذا على رجل من إمبابة المطار أو طوابق فيصل أو رواد ترعة الزمر أوبركة الفيل أوالبحر الأعظم، لكن تصاعد الموقف لم يعطني فرصة للتفكر في الإجابة.

بدا أن موقف المقاومين لم يكن مجرد الإعتراض على ضرب البائعين ومصادرة بضاعتهم بشكل وحشي لاآدمية فيه، بل كان وراءه ماهو أبعد من ذلك، اتضح لي ذلك عندما علا صوت قائد المقاومة الرجل الناصع ذو السكسوكة صارخا " يعني يلاش إحنا نشتري فاكهة رخيصة.. لازم نشتريها يعني من السوبر ماركتات بتاعة الحرامية الكبار اللي بيبيعوها بالشيئ الفلاني ويبيعتوا لكو الإقفاص لحد البيت". بدا أن الرجل نطق بلسان جميع الواقفين الذين علت أصواتهم بعبارات التأييد والإستحسان كأن كلامه جاء على الجرح، للحظات سألت نفسي "هو أنا فين بالضبط"، من المؤكد أنني لم أكن أصلي في أي من جوامع السيدات زينب وعائشة ونفيسة وسكينة، من المؤكد أنني أعرف جيدا المواقع الحساسة التي تقف قريبا منها، من المؤكد أن هذا الحي لايسكنه إلا أهل الطبقة المتوسطة العليا من الذين نصفهم

عادة بأنهم 'مستريحين'، تشي بذلك ملابسهم وموبايلاتهم التي يحملونها وسلاسل مفاتيحهم، ففيم الحديث عن الفاكهة الرخيصة، وكيف ربط هذا الرجل بين حملة المداهمة هذه والأقفاص التي يبدو متأكدا من مرواحها إلى البيوت والحرامية الكبار الذين بيبيعون الفاكهة بالشيئ الفلاني. كانت الأسئلة تتدافع إلى ذهني بينما كان المصلون يتدافعون إلى العربية لينقذوا فاكهة الباعة الذين بكى بعضهم ربما لأنه لم يتوقع أن يقف أحد إلي جواره، أحدهم أخذته الحماسة وظن نفسه جزءا من تحالف قوى الشعب الذي تشكل للتو فمد يده إلي صندوق العربية ليستعيد بلهفة صندوق بلح رطب يخصه، فجأة أوقفت عصا باطشة تقدم يده أعقبها صوت باتر من أشوس يقف جوار العربية وقد بدا أقرب إلى هجام منه إلى موظف بلدية، " لو مديت إيدك على العربية هاكسرهالك'، لم أكن حتى تلك اللحظة قد فتحت فمي، لكن ماشهدته فجر بركان غضب داخلي، كأنني تركت الموقف كله وتصدرت في تفصيلة قد تراها هايفة لكنها والله جرحتني بقوة، زعقت في الرجل " كسر إيدك إنت.. هتكسر إيده ليه.. هو بيسرقك.. وبعدين يعني هو ده اللي اتشطرت عليه.. مانت واقف سامع شتيمتك بودنك من كل دول وماقتحتش بقك.. ولا ده عشان غلبان بتتشطر عليه"، لم يترك الرجل ذو السكسوكة لي فرصة لأكمل حيث اندفع قائلا 'طب إكسر إيده وشوف أنا هاحولك للنيابة إزاي.. جرب كده وإعملها.. وبعدين إنتو نازلين تهب في الحاجات دي بناء على إيه.. أنهي قانون اللي يديكو الحق في ده..

معاكسو إذن رسمي بكده"، ظهور إسم القانون في الحوار كان سيدفعني للضحك لكني مسكت نفسي إحتراما لمقاومة الرجل النبيلة، ذكرني بالجملة التي كتبتها في فيلم أبو علي عندما قال كريم عبد العزيز لمنى زكي في البوكس بعد فشل تجربتهما في اللجوء إلى القانون "لو نطقتي كلمة فيها حرف القاف والنون هاولع فيكي وفي البوكس والحاج اللي قاعد ده"، لو كنا في ساعة حظ لقلت لذي السكسوكة "قانون مين ياحاج.. يخرب عقلك ده إنت فقري ودمك عسل"، لكني ضبطت نفسي متلبسا بالسؤال عن مدى قانونية حملات المصادرة التي تشنها البلدية منذ وعيت على الدنيا، وهل يعني أن شخصا قام بمخالفة القانون والبيع في الشارع أن تكون ممتلكاته عرضة للنهب دون رقيب ولا حسيب، ولماذا في بلاد الله المحترمة التي زرتها على قلتها والتي سمعت وقرأت عنها على كثرتها والتي تشهد جميعها ظاهرة الباعة المتجولين لاتتم مصادرة الممتلكات ومرمطة الباعة بشكل همجي بل يتم إجبار البائع على دفع غرامة لأنه لايقف في الأماكن المخصصة للباعة أو لم يحصل على رخصة لممارسة عمله.

خرجت مجددا من الخلوة بتساؤلاتي عندما أدركت أن حركة المقاومة قد شهدت إنضمام سيدات للمرة الأولى، علا صوت سيدة وقفت إلى جوار أفراد القوة مشهرة يدها في وجوههم وقائلة "حسبي الله ونعم الوكيل.. ياظلمة ياأعوان الظلمة"، الله الله، حلم هذا أم علم ياالله، هل قالت حقا ياأعوان الظلمة، تفحصت المكان سريعا باحثا عن جورج إسحاق أو أي شعار من شعارات حركة

كفاية، فلم أجد إلا وجوها متعبة غاضبة قرفانة تحسبن وتدعو وتعلن سخطها، وأين في مصر الجديدة؟!، قلت لنفسي وهل تحدث هبة كهذه إلا في مكان كهذا به أناس لديهم وعي، وهل يمكن أن تكون هناك عزة بلا وعي، لو كان هذا المشهد في حي عشوائي لبدا المشهد أقرب إلى الهوجة ولتم ضرب أفراد القوة ونهب الفاكهة وتقليب اللاسلكي تمهيدا لبيعه في سوق الإمام الشافعي، لكن الناس هنا يقفون ليعترضوا بكل تحضر، لم يمد أحدهم يده أو يشتم أو يتجاوز أو يغلط، جميعهم يعترضون ويحسبنون ويدعون، والقانون لايمنع الحسبنة أبدا. وربما كان موقف هؤلاء الناس هو ماأربك أفراد القوة وكتف أيديهم عن الرد بعنف، فلن يستطيع أحد منهم أن يضرب أحدا لمجرد أنه يعترض بلسانه على مايراه ظلما، أعترف أنني كنت مرتبكا للغاية، لأنني للمرة الأولى كنت أعيش لذة أن ترى أفكارك تتحقق بشكل عفوي وساحر، هذه هي المقاومة المدنية التي تحلم بها، أن يعترض الناس على الظلم بشكل حضاري، لن يتمكن أحد من قمع هؤلاء، حتى لو أتت كل عربات الأمن المركزي المتواجدة في المنطقة فلن تستطيع أن تضرب مصلين خارجين من مسجد يعترضون على مصادرة فاكهة، هكذا أظن. الرجل ذو اللاسلكي أصبح الآن في مأزق لايحسد عليه، حتى أنني ظننت أن يتوع الفاكهة لم يعد لديهم مانع في أن تتم مصادرة فاكهتهم مقابل أن يستمتعوا برؤية الحكومة وهي لايصة هذه اللوصة المعتبرة، أخذ الرجل يدفع بيده المتجمهرين حوله قائلا لهم "إنتو بتعملوا كده ليه.. إحنا بنعمل كده

عشانكو.. مش إنتو اللي مبلغين عن بتوع الفاكهة دول"، كان يظن المسكين أنه قد وجد طوق نجاة بكلماته هذه، لكن أصوات الجميع تعالت دونما ترتيب " كدابين.. ماحدش بلغ.. يعني خلاص كل البلاغات خلصتوها وجايين عند بتوع الفاكهة.. مش تمسكوا الحرامية اللي ناهبين البلد الأول.. الحاجة دي سارقينها ورايحين على فين"، تصدق بالله أنني رأيت على وجه الرجل ذو اللاسلكي حزنا هزني من الأعماق بعد أن سمع الإتهام الأخير، ربما كان الرجل محتقرها ومجبرا على مايفعل، ملامحه على الأقل ليست كملامح الهجام ذي العصا الذي كان يراقب الموقف ولسان حاله يقول "آه ياولاد المركوب لو يحكموني عليكو لألبسكو البلح ده بلحاية بلحاية".

بعد صمت قصير صرخ الرجل ذو اللاسلكي "ياخواتنا حرام عليكو.. الحاجات دي بتروح للملجأ مابناخدهاش إحنا"، لو كان قد جرى إلى المسجد وأحضر مصحفا وحلف عليه وهو يقول هذه الجملة لما فرق كلامه مع أحد، نفس العبارات الساخطة كانت ستندلع أيضا "ملجأ ياواكلين مال اليتامى..هي الحداية بتحدف كتاكيت.. طب ملجأ إيه.. قولنا وإحنا نديله قد الفاكهة دي مرتين"، بدا ألا مستقبل للحوار مع هذا الجمهور الذي يتمتع بشك ديكارتي عميق، نظر الهجام لذي اللاسلكي نظرات ذات مغزى، انتهز بائع البلح فرصة إنشغال الإثنين بالنظرات ليقوم بخطف كرتونته ويجري، ظننا أنه أفلح في ذلك لكن ارتباكه جعله يخطف كرتونة برتقان سكري جرى وراءه صاحبها ليستردها منه، فيما استغل ذو

اللاسلكي انشغال الجمع بمتابعة ماحدث ليتجه لركوب العربية بينما الهجام يحمي ظهره، استوقفته في الطريق قائلا له "ماتكسب ثواب وإحنا في أيام مفترجة وتدي الناس دي حاجتها وكفاية اللي حصل لهم"، كاد الهجام ينزل علي بالعصا برغم نظرات المحبة الفياضة مني، لكن الرجل الناصح ذي السكسوكة حماني قائلا له " والمصحف لالبسك قضية لو ماسبت العصاية دي.. ملعون ابو اللي مسكها لك"، نط الهجام في العربية خلف رئيسه ليطلع السائق طلعة أمريكاني كادت تفرم أرجل بعض ذوي الجلاليب المختلفة الألوان، بينما تشعلق بالعربية بجنون بائع أخذ يتناول ماتيسر له من الكراتين مطيحا بها إلى الشارع لتتبعثر الفاكهة على الأرض وينشغل الناس بجمعها وتوزيعها على أصحابها وأصواتهم تعلو بالحسبنة على الظلمة الحرامية ولاد ستين في سبعين. لو شاهد سائح المنظر لإعتقد أن السيارة الفارة هي سيارة عصابة تمكنت قوات الشرطة التي ترتدي الجلاليب من ضبطها، ولو حلفت له على الووتر يجمد لما صدق أن الحكومة هي التي فرت وأن الأهالي هم الذين أحبطوا عملية الفاكهة التي تم تنفيذها دون عمل حساب أي هبات شعبية محتملة.

كنت تجيئ لتشوف نظرات الفخر في عيون الناس وقد شعروا أنهم حققوا انتصارا ساحقا، كنت تجيئ لتسمع تحليلاتهم السياسية الصاخبة المعارضة التي يتضاءل إلى جوارها كل ماتكتبه، كنت تجيئ لتشعر بأن هناك أناسا ليسوا بحاجة إلى خطبة جمعة لكي ينكروا المنكر ويأمروا بالمعروف وبشكل سلمي

حضاري. شعرت برغبة حميمة في عناق الرجل ذي السكسوكة وسؤاله عن إسمه ومهنته، لكنني قمعت رغبتي لأنه كان لامحالة سيظنني مخبرا ولربما تعامل معي بشكل غير حضاري لفش غله الذي كان واضحا من كلامه أنه لم يفش تماما. فاكتفيت بالمشي في ركابه هو وصحبه من المقاومين الذين بدا أنهم لايعرفون بعضهم، كانوا يمشون في إتجاه بعيد عن الإتجاه الذي أقصده، لكنني شعرت بما يشعر به الثوار بعد نجاح الثورة، الإستئناس ببعضهم البعض، ولذلك مشيت بصحبتهم، وليتني مامشيت.

فجأة اقتحم ركبنا رجل خرتيت من أولئك الذين أنزل الله على وجوههم غباوة بينة وأنزل في أيديهم موبايل أحدث موديل، قال لنا "ياإخواننا إنتو ناسيين حاجة مهمة"، توقفنا وقد تنبهت حواسنا المقاوماتية لعله ينبهنا إلى ظلم جديد ندفعه ونعترض عليه، وليتنا ماتوقفنا ولاتنبهنا، نظم أنفاسه اللاهثة قليلا ثم تابع " البياعين دول مسيحيين ياجماعة مايستاهلوش حمقتكو دي"، اندفعت فيه دون تفكير صارخا "وإيه علاقة إنهم مسيحيين ولا يهود حتى باللي حصل ده"، أخذ خطوة للخلف تنبئ أنه لم يكن يتوقع رد فعل كهذا، جاء رد متعقل من زميل مقاوم " هم يعني مش مصريين زينا"، بينما صرخت من جديد " يعني عشان مسيحيين نسيبهم يتسرقوا ويتضربوا.. هو ده الإسلام يعني"، أخذ خطوة أخرى للخلف ثم قال مبررا" أصلهم بيغلوشوا علينا وإحنا بنصلي بأصواتهم وهم بينادوا على الفاكهة"، شخط فيه ذو السكسوكة الذي كان صمته قد بدأ يقلقني " الكلام ده مش صحيح.. أنا باصلي هنا على طول

وعمري ماسمعتهم بينادوا إلا بعد مانخلص صلاة ونمشي"، علق زميل مقاوم لم يكن قد نطق طيلة صد العدوان " لعلمك من مصلحتهم إنهم يحترموا الصلاة ومايستفزوش الناس.. إنت غلطان ياحضرت"، حاول "حضرت" أن ينسى منطقه الطائفي المقيت ليقول لاهثا "برضه منظرهم كده مش حضاري.. إحنا في مكان راقي ومايصحش يقفوا بالشكل ده"، نظر إليه ذو السكسوكة نظرة جزمت أن قلما ساخنا على صداغه سيعقبها، لكنه اكتفى بهز رأسه قائلا " تصدق بالله إحنا شعب يستاهل اللي بيجراله.. الناس بتتبهدل وبتموت من الجوع وإنت تقول لي منظر حضاري"، ثم نظر إلينا جميعا بقرف وتركنا مغيرا إتجاه مشيه، فكرت أن أقوم أنا بواجب القلم لكنني تذكرت أن الشبشب الذي نزلت به من بيت نسايبي لن يساعدني على الجري، فكرت أن أكتفي بتوجيه شتيمةٌ قبيحة له لكنني خفت على ضياع الحسنات القليلة التي جنيتها من صلاة الجمعة، فاكتفيت بالزغر له وتوجيه الشتيمة القبيحة له في سري مقتنعا نفسي أنها لن تُحسب، فيما قال زميلنا المقاوم الدمث له " أنا معاك في موضوع الشكل الحضاري بس ده ييجي بعد حاجات حضارية كثيرة لازم نعملها أولها إننا نبقى بني آدمين".

بادرت بترك الجمع القليل الباقي مسرعا فلم يكن لدي رغبة بالمرة لسماع باقي الحاجات الحضارية التي يجب أن نعملها "بعدما نبقى بني آدمين"، فقد كنت بحاجة ماسة للتمسك بإحساس الهية الشعبية الظافرة التي شهدتها.

حتى لو كان إحساسا زائفا.

الفهرس

أجدع من أى مقدمة 9

السكان الأصليين لمصر 11

من غير ما تحس بيه 23

أم هند لا تريد حبا ولا حنانا.. تريد معاشا 31

فى وادى المصريين 47

"العاسيفة" التى ستأخذهم 55

هكذا سقطت أم هند 67

يا أهل الله يااللي فوق ! 79

فرحتين وشوية مكرونة 87

وإنت طيب يا سيدى 95

مما شك فيه! 103

لماذا أكره موائد الرحمن؟ 111

سيادة الرئيس.. أريد أن أهرش 127

قاطعوا الحصبة الألمانية 139

إشي خيال يا ناس! 145

القراءة للجميع.. أما الكتابة فللى معاه فلوس 151

لقاء فى شارع الثورة 157

إن الله جنودا من قش! 165

ملاكى قريش 173

حكومتك فى العشة ولا طارت؟ 179

الليلة المباركية 185

وتعيش لنا للممات ياريس.. يا قمرنا إنت يا سكرة! 193

رمضان فى منشية ناصر 18 يوما فقط! 201

معدوم يشترى ترباسا! 209

عبدالله سيتا أومباسييل 215

هيه هيه هييييييييه! 239

المومس اللي فاضلة! 247

مصر التى ما المسئول عنها بأعلم من السائل! 253

ضحايا ولا كشوف لهم! 265

عزيزى المواطن إوعى حد يوريك "القطر"! 277

وقائع هبة شعبية لم تكتمل فى مصر الجديدة! 295

تجليات أدبية

مشكلتي الثانية هي أنني أشعر بأكلان فظيع في ضهري، لا أدري هل سببه الحشرات التي يقسم زملائي أنها أقدم في المستشفى من بهيرة كبيرة الممرضات، أم سببه رقودي على السرير على وضع واحد كل هذا الوقت، مع أن التغيير سنة الحياة، نبهني عم عبد البديع إلى التباس الجملة الأخيرة وكونها يمكن أن تسوء موقفي في القضية، لكنني أقسم لسيادتك أنني لا أقصد منها شيء سوى أنني فعلاً أريد أن أمارس حقي الدستوري في الهرش وتغيير وضع رقودي على السرير، فأنا لست دولة تستحمل أن تعيش ربع قرن على وضع واحد دون أي تغيير، أنا بشر ضعيف خلقت من تراب وسففت التراب ويلزمني بين الحين والآخر أن أتقلب على الجنبين، فهل هذا كثير عليّ سيادتك؟!

الفوتوغرافيا وتصميم الغلاف: أحمد اللباد

ميريت